نسخ غير منقحة من الحياة

قصص قصيرة

رياض سعد

نسخ غير منقحة من الحياة

نسخ غير منقحة من الحياة

رياض سعد

التصنيف : الادب والروايات

الطبعة: الاولى

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (بلا) لسنة (بلا)

ISBN: 9922 – 978 – 5525 – 14

دار تركيب الرقيم السومري للطباعة والتوزيع والنشر الالكتروني

العراق – ديالى – بعقوبه – شارع الاوقاف

هاتف : 07775262892

manager@sss-publisher.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو وساطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

نسخ غير منقحة من الحياة

رياض سعد

2026

تنضيد الكتاب
معهد الترجمة والكتاب الماليزي
«ماليزيا»

مراجعة لغوية
الدكتور مهند محمد كاظم
«العراق»

تصميم الغلاف
معهد التكنالوجيا
« الهند»

المقدمة

لم أكتب هذه القصص لأنني كنت أبحث عن بطولةٍ أدبية، ولا لأنني كنت أظنّ أنّ العالم بحاجةٍ إلى حكاياتي بقدر ما كنت أشعر أنّ بعض الأشياء، إذا لم تُكتب، فسوف تختنق داخل صاحبها إلى الأبد.

منذ سنواتٍ طويلة، وأنا أنظر إلى الحياة بوصفها نصًا غير مكتمل؛ مليئًا بالشطب، والارتباك، والنسخ المشوّهة، والاعترافات المؤجلة... ؛ وربما لهذا السبب اخترتُ لهذه المجموعة عنوان: «نسخ غير منقحة من الحياة».

لأنّ ما ستقرأه هنا ليس قصصًا مصقولةً تمامًا، ولا شخصياتٍ مثالية، ولا عوالم مرتبة كما ينبغي للروايات الهادئة أن تكون... ؛ إنّها أشبه بأوراقٍ خرجت من قلب الحياة مباشرة، قبل أن تمسّها يدُ التجميل أو الخوف أو الرقابة.

نعم...؛ أنا كتبتُ هذه القصص، لكنني لم أختر دائمًا الطريق نفسه للوصول إليها... ؛ فبعضها وُلد من رحم الواقع، من مشاهد عشتها أو سمعتها أو مررتُ بالقرب من وجعها، وبعضها الآخر كان من بنات الخيال؛ خيالٍ حاول أن يقول ما عجز الواقع أحيانًا عن قوله ؛ وبعضها طلب اصحابها مني صياغتها ونقشها على ذاكرة الزمن ... ؛ واكثرها نسجتها من احداث الحياة و وقائع الزمن وهموم والام الناس .

هناك قصصٌ حقيقية إلى حدٍّ كبير، وأخرى تتكئ على السريالية والتأمل والرمز، لأنّ الإنسان نفسه ليس كائنًا واقعيًا بالكامل، بل خليطٌ غامض من الحقيقة والوهم، من الذاكرة والحلم، ومن الحياة كما نعيشها والحياة كما نتخيلها.

هذه النصوص كُتبت في أوقاتٍ مختلفة، وتحت مزاجاتٍ متناقضة، ونُشرت في مواقع وصحف عديدة، منها موقع صوت الأمة العراقية، ومنبر العراق الحر، وإيلاف، والحوار المتمدن وغيرها... ؛ بعضها

كُتب في ليالٍ مثقلةٍ بالأرق، وبعضها وُلد من موقفٍ عابر، أو من خيبةٍ قديمة، أو من صورة إنسانٍ مرّ في حياتي سريعًا لكنه بقي عالقًا في ذاكرتي طويلًا كندبةٍ لا تزول.

أنا لا أؤمن كثيرًا بالقصص التي تتعالى على البشر، ولا بالشخصيات الورقية التي لا تخطئ ولا تنهزم... ؛ فالإنسان الحقيقي هشّ، متناقض، مرتبك، ومحمّلٌ بأعباءٍ لا يراها أحد... ؛ ولهذا حاولتُ دائمًا أن أقترب من تلك المناطق المنسية في الداخل الإنساني؛ من الخوف الصامت، والوحدة، والخذلان، والحنين، ومن ذلك التعب الغامض الذي يسكن أرواح الناس حتى وهم يبتسمون.

في هذه المجموعة ستجد شخوصًا يشبهون الذين نصادفهم كل يوم: رجلًا أنهكته الحياة حتى صار يتحدث مع ظله، وامرأةً تخفي خرابها خلف الصمت، وعجائز يراقبون العالم كأنهم فائضُ زمنٍ قديم، وشبابًا يحاولون النجاة وسط واقعٍ يتآكل ببطء... ؛ وربما ستجدني أنا أيضًا متخفيًا بين السطور؛ في جملةٍ حزينة، أو فكرةٍ قلقة، أو شخصيةٍ لم أستطع أن أنقذها من مصيرها.

لقد حاولتُ أن أكتب بلا أقنعة، وأن أترك اللغة قريبةً من نبض الروح، لا من الزخرفة وحدها... ؛ لذلك قد تبدو بعض القصص واقعيةً حدّ القسوة، فيما تميل أخرى إلى السريالية أو التأمل الفلسفي، لأنّ الحياة نفسها لا تسير بطريقةٍ واحدة، ولأنّ الإنسان ليس كائنًا بسيطًا كما يبدو.

أعرف أنّ الأدب لا يغيّر العالم دائمًا، لكنه يستطيع على الأقل أن يجعلنا نفهم وجعنا بصورةٍ أقل قسوة، وأن يمنح وحدتنا صوتًا... ؛ وإذا استطاعت هذه القصص أن تجعل قارئًا واحدًا يشعر أنّ ما يختلج داخله قد وجده مكتوبًا أمامه، فسأشعر أنّ كل هذا التعب لم يذهب سدى.

هذه المجموعة ليست سوى البداية...؛ بدايةُ محاولةٍ طويلة لفهم الإنسان، والعالم، وتلك الفوضى التي نسميها حياة.

رياض سعد

حارس الذاكرة (١)

كان هناك رجلٌ يُدعى "الراوي"... أو هكذا كان يُستدعى في السجلات التي لا يقرأها أحد.

أما اسمه الحقيقي فكان قد سُحب منه منذ زمنٍ غير قابل للتحديد، كما تُسحب بطاقة هوية من جيب ميتٍ دون أن يلاحظ.

كان يعيش في مدينة تُدعى "نسيان".

مدينة لا تُرى بوضوح... بل تُحَسّ كصداعٍ طويل في مؤخرة الوعي.

شوارعها ليست مرصوفة بالحجر، بل بطبقاتٍ من محوٍ متكرر، كأن كل خطوة فيها تُعيد كتابة العالم ثم تمسحه فورًا.

الناس هناك لم يكونوا يمشون... بل كانوا ينجرفون.

يمسكون رؤوسهم بأيديهم كأنهم يمنعونها من السقوط، أو كأن أفكارهم صارت أشياء مادية تتسرب من فتحات غير مرئية.

كانوا يبتسمون أحيانًا، لكن الابتسامة تصل متأخرة... بعد أن تكون المشاعر قد غادرت.

الراوي وحده كان مختلفًا.

لم يكن ينام.

ليس لأن الأرق يسكنه، بل لأن النوم كان يرفضه.

كلما أغمض عينيه، ظهرت امرأة.

ليست رؤية كاملة... بل تشظّي ضوء داخل العتمة.

وجهها بلا ملامح ثابتة، لكنه يحمل يقينًا عاطفيًا مخيفًا... ؛ كأنه يعرفها قبل أن تُخلق ذاكرته.

كانت تأتي كل ليلة، لا تمشي، بل تتكثّف عند حافة إدراكه.

تضع شمعة صغيرة داخل رأسه، ثم تتركها تشتعل وحدها...، قبل أن تنطفئ مع أول خفقة قلب.

في إحدى الليالي، لم تختفِ بسرعة.

بقيت أطول.

وفي تلك الليلة تحديدًا، بدأ الراوي يسمع العالم بوضوحٍ مؤلم.

ذهب إلى "دار النسيان العام".

مبنى ضخم يشبه أرشيفًا بلا كتب، تديره وجوهٌ ممسوحة من التعبير، كأن شخصًا ما مسح ملامحهم بقطعة قماش رطبة ثم نسي أن يعيدها.

في الداخل، كان الناس يصطفون لتلقي "حقنة النسيان الرحيم".

جرعة صغيرة تمحو الألم دون أن تطرح أسئلة مزعجة عن المعنى.

عندما جاء دوره، سُئل:

– ما الذي تريد أن تنساه؟

صمت.

ثم قال:

– لا أعرف.

سألوه:

– وما الذي تريد أن تتذكره؟

وهنا حدث شيء غير متوقع...

كأن السؤال لم يوجَّه إليه، بل انفتح من داخله.

قال:

– امـــرأة... لا أعـــرف اســـمها، لكـــن وجودهـــا يضـــغط علـــى صـــدري كأنهـــا حقيقة لم تكتمل.

ضحك الموظف، ضحكة تشبه احتكاك ورقٍ قديم:

– إذن أنـــت مصـــاب بـــ"الذاكرة العاطفيـــة المزمنـــة".. , حالـــة غيـــر قابلـــة للعلاج.

– وما نهايتها؟

– إما أن تُنسى... أو تتحول إلى شخصٍ آخر لا يعرف أنه أنت.

خرج الراوي من الدار، لكن المدينة لم تعد كما كانت.

الجدران صارت تلمح له.

الأبواب تفتح نصف فتحة ثم تتراجع.

حتى اللافتات بدت وكأنها تكتب نفسها خصيصًا له.

في أحد الأزقة، وجد طفلًا يرسم وجهًا على الجدار.

لم يكن الرسم جميلًا، لكنه كان دقيقًا بشكلٍ يزعج الحقيقة.

قال الراوي:

– من هذا؟

لم يرفع الطفل رأسه:

– هذا أنت... حين كنت لا تزال تعرف لماذا تتألم.

ارتجف الراوي.

لأول مرة، لم يشعر أنه يتذكر... بل أنه يُستَخدَم للتذكر.

فهم فجأة أن المدينة ليست مكانًا، بل جهاز كبير لإدارة النسيان.

وأن كـــل شـــيء فيهـــاــالأطفـــال، الهـــواء، الصـــمتـــيعمـــل كموظـــفٍ فـــي وزارة محو الذاكرة.

وفي تلك اللحظة، قرر أن يغادر "نسيان".

لم يكن قرارًا... بل انهيارًا في نظام الطاعة الداخلي.

عنـــد حـــدود المدينـــة، حيـــث يبـــدأ الرمـــل ولا ينتهـــي المعنـــى، أوقفـــه رجـــل عجوز.

كان العجوز جالسًا كأنه لم يقم من مكانه منذ اختراع الزمن.

قال:

– إلى أين تذهب؟

أجاب الراوي:

– إلى حيث لا يقرر أحدٌ عني ما الذي يجب أن أتذكره.

ضحك العجوز، لكن ضحكته لم تتحرك من مكانها:

– لا يوجد "هناك".. , التذكّر ليس مكانًا... إنه انكشاف خطر.

ثم أضاف:

– كل من خرج من هنا، عاد بشكلٍ مختلف... أو لم يعد أصلًا.

لكن الراوي مشى.

ليس لأنه شجاع، بل لأن البقاء أصبح شكلًا من أشكال الموت البطيء.

مشى في الصحراء.

لم تكن صحراء فارغة... بل صحراء تمسح نفسها كل لحظة لتتأكد أنها موجودة.

حتى ظهرت الخيمة .

وحيدَة، كفكرةٍ نسيت صاحبها.

دخل.

وفي الداخل كانت تجلس هي.

نفس المرأة.

أو ما يشبهها بما يكفي ليكسر القلب.

لكنها لم ترفعه نحوه.

لم ترتبك.

لم تتذكر.

قالت بهدوء:

– من أنت؟

توقف الزمن داخل حلقه.

ثم قال:

– أنا من ظلّ يتذكرك حتى فقد اسمه.

نظرت إليه طويلًا، كأنها تفحص فراغًا تعرفه ولا تستطيع تسميته.

ثم ابتسمت:

– غريب... أشعر أنك مألوف، كألمٍ قديم لا أعرف متى حدث.

صمت.

ثم أضافت:

– لكني لا أتذكرك.

قال:

– وأنا أتذكرك أكثر مما ينبغي.

ابتسمت مرة أخرى، هذه المرة بمرارة خفيفة:

– إذن نحن في وضعٍ غير عادل... أنت تحملني كاملة، وأنا لا أحملك حتى كظل.

جلسا.

لم يكن هناك لقاء... بل تصادم هادئ بين ذاكرةٍ تقاوم الانطفاء ونسيانٍ بدأ يتعلم المشاعر.

هو يحاول أن يستعيدها كحقيقة.

وهي تحاول أن تنجو منه كذكرى لم تطلب أن تُولد.

وفي الخارج، بدأت المدينة تتلاشى ببطء، كأن "نسيان" نفسه فقد وظيفته.

ذلك المكان، حين توقف الزمن عن تحديد من يتذكر من...

سُمّي لاحقًا:

"حافة الذاكرة"

ندوب القدر وثارات الغدر (٢)

في زحام الحياة، حيث لا أحد يلتفت لندوب الآخرين، كنتُ أركض لا كإنسانٍ كامل، بل كظلٍّ يطارده ظلٌّ أقدم منه... , غريمٌ قديم خرج من بين خرائب الذاكرة، كأن السنوات لم تُطفئه بل زادته حدّة.

كان الثأر ليس فكرةً في رأسي، بل كائنًا حيًّا يسكن صدري.. , يوقظني بلا استئذان، ويدفعني إلى الشوارع كأنني آلةٌ لا تعرف التوقف.

عشر سنوات وأنا ألاحقه؛ لا لأن العدالة تريد ذلك، بل لأن شيئًا في داخلي تعفّن ولم يعد يقبل التأجيل.

في ذلك اليوم، كان الجوع ينهشني قبل الغضب.. , جسدي ينهار، لكن رأسي ما زال مشدودًا إلى وجهه، إلى تلك اللحظة التي يجب أن يسقط فيها... أو أسقط أنا.

دخلتُ مطعمًا صغيرًا في السوق الشعبي.. , الهواء هناك كثيف برائحة الخبز والزيوت والعرق القديم.. , جلستُ بلا وعي، كأن الطاولة جذبتني إليها كمنقذٍ مؤقت من انهيارٍ قريب.

لم أنتبه أول الأمر للشيخ الذي كان يجلس قبالتي.

كان وجهه ككتابٍ قديمٍ لم يُغلق منذ عقود.. , التجاعيد فيه ليست علامات عمر، بل آثار حروبٍ داخلية لم تُعلن.. ؛ عرفتُه.. , أو ظننته كذلك.. , رجل من حكايةٍ قديمة في الحيّ، من سلالة ثأرٍ لا ينتهي.

كان الثأر في عائلته مثل مرضٍ وراثي: بدأ بدمٍ واحد، ثم صار سلسلةً بلا طرف.. , ابن عمٍ قُتل بدافع الغضب، ثم جاء الردّ بعد سنوات، بابنٍ سقط بدل أبيه، ثم تحوّل البيت إلى مقبرةٍ بلا شواهد.. , والشيخ بقي وحده... , الناجي الوحيد الذي لم يعرف إن كان بقاءه نعمة أم لعنة.

كان صامتًا.. , لكن صمته لم يكن فراغًا، بل ضغطًا خفيًا، كأن الهواء بيننا ممتلئٌ بجملٍ غير منطوقة.

في عينيه شيء يشبه الاعتذار المتأخر، وشيء آخر يشبه التحذير.. , لم يقل شيئًا، لكنني فهمت الرسالة بوضوحٍ غريب:

"الثأر لا ينتهي عند من تبدأ به... بل يبدأ منك أنت."

كان الجوع في بطني، لكن شيئًا أعمق بدأ ينهشني: الشك.

أي معنى أن أصل إليه الآن؟

أن أسحب كل هذا التاريخ إلى لحظة واحدة من الرصاص أو السكين؟

وماذا بعد؟

من يضمن أنني لن أصبح نسخةً جديدة من نفس الدائرة التي أكرهها؟

خرجتُ من المطعم ولم أفعل شيئًا.. , تركته خلفي، أو ربما تركت نفسي هناك.

قررتُ أن أؤجل الدم... , ليس كجبن، بل كمن يوقف آلةً كانت تبتلع روحه.

مرّت السنوات كما تمرّ الأشياء التي لا تعترف بنا.. , تغيّرت المدن، وتغيّر وجهي، لكن ذلك الثقل بقي في مكانه، لا يشيخ.

وفي يومٍ عابر، وسط شارع مزدحم لا يحمل أي ذاكرة، التقيتُ رجلًا من الحيّ القديم.. , لم يكن اللقاء مهمًا في بدايته، مجرد حديثٍ عن الغائبين، عن الذين تآكلوا بصمت الزمن.

ثم قالها كمن يرمي حجرًا في ماءٍ راكد:

"عدوّك القديم... مات.. , حادث سيارة.. , بلا قصة تقريبًا."

توقفت اللغة داخلي لحظة.. , كأن المعنى تأخر عن الوصول.

تابع:

"زوجتــه تتســوّل الآن قــرب المســاجد.. , وأولاده تفرّقــوا..., كــل واحــد فــي جهة.. , الحياة لم ترحمهم."

لــم أشــعر بانتصــار.. , لــم أشــعر بالراحــة أيضًــا.. , كــان هنــاك شــيء ثالــث أكثر تعقيدًا: فراغٌ أخلاقي لا اسم له.

تــذكّرتُ وجــه الشــيخ فــي المطعــم.. , لــم يكــن يحــذرني منــه، بــل كــان يحــذرني مني أنا.

فهمــتُ متــأخرًا أن الثــأر لا ينتهــي حــين يمــوت العــدو، بــل حــين نكتشــف أننــا كنا جزءًا من قتلةٍ أكبر... ؛ حتى ونحن لا نطلق الرصاص.

ومع ذلك، بقي سؤالٌ واحد يرافقني كظلّ لا يشيخ:

هل كان تركه للقدر عدالةً... ؛ أم تأجيلًا آخر للجريمة بشكلٍ مختلف؟

نافذة في الطابق الرابع عشر (٣)

فــي الطــابق الرابــع عشــر مــن فنــدقٍ زجــاجيٍ يطــلُّ علــى طهــران، كــان زيــد يشــعر أنّ العــالم قــد تحــوّل إلــى شاشــة عملاقــة، وأنــه لــيس ســوى إصــبعٍ يهــبط ويصعد فوقها بلا إرادة.

الغرفة باردة رغم التدفئة.

الستائر نصف مفتوحة.

والمدينــة تحــت النافــذة تبــدو ككــائنٍ ضــخمٍ لا ينــام؛ أضــواءٌ ترتجــف، طرقــاتٌ تمتد كالشرايين، ومآذن بعيدة تشبه مسامير صغيرة تدقُّ السماء.

أما هو، فكان غارقًا في هاتفه.

لم يعد يتصفح... بل كان يُسحب.

المقاطع القصيرة تتدفق كطلقات متتابعة:

فتاة ترقص بعينين زجاجيتين.

رجل يصرخ عن النجاح والثروة.

واعظ إلكتروني يبيع الحكمة بدقيقةٍ ونصف.

محلل سياسي يضحك بينما الخرائط تحترق خلفه.

ومؤثرون يشبهون نسخًا رديئة من بعضهم، كأن خوارزميةً واحدة أنجبتهم جميعًا.

كان يشعر أن التطبيق لا يعرض المحتوى، بل يلتهم وعيه قطعةً قطعة.

قال بصوتٍ خافت:

ـــ ما الذي أفعله هنا؟

لكن الهاتف لم يُجب.

الهاتف لا يجيب أبدًا.

إنه فقط يفتح أبوابًا جديدة للضياع.

مرَّ مقطع لحربٍ بعيدة، ثم إعلان لعطر، ثم جثة طفل تحت الأنقاض، ثم نكتة، ثم راقصة، ثم شيخ يتحدث عن القيامة.

اختلط كل شيء.

الموت والإعلان.

الشهوة والدين.

الدم والضحك.

حتى فقدت الأشياء معناها.

أطفأ الصوت للحظة، فشعر أن العالم صار أكثر رعبًا.

الصمت داخل التطبيقات يشبه الفراغ داخل المقابر.

رفع رأسه نحو النافذة.

انعكس وجهه على الزجاج كوجه رجلٍ آخر؛ شاحب، متعب، بعينين محمرتين من السهر والقلق.

همس:

— متى أصبحتُ هكذا؟

لكن السؤال الحقيقي كان أعمق:

متى صار الإنسان مجرد مستهلكٍ لوحشته؟

رنَّ إشعار جديد.

عاد تلقائيًا إلى الشاشة، كمدمنٍ يعرف أن السم في الكأس لكنه يشربه لأنه لم يعد يحتمل العطش.

ثم حدث الشيء الغريب.

وسط هذا السيل الملوث من الأصوات، ظهر مقطعٌ ثابتٌ بلا مؤثرات، بلا موسيقى، بلا ألوان صارخة.

صورة قديمة لقارئٍ يجلس بخشوع.

وانساب صوت محمد صديق المنشاوي:

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾

توقف إصبعه.

فقط... توقف.

كأن أحدًا أمسك الزمن من عنقه.

تسللت الآية إلى الغرفة لا كصوت، بل كشيءٍ أقدم من الصوت؛ كذكرى منسية تعود فجأة من طفولة بعيدة، من بيتٍ طيني، من أمٍّ كانت توقظه للفجر، من أبٍ مات قبل أن يفهمه.

شعر زيد بشيء ينكسر داخله.

ليس انكسار الألم...

بل انكسار القشرة.

أعاد الآية مرةً أخرى.

ثم ثالثة.

وكان كل تكرار ينزع طبقةً من الضباب عن قلبه.

نهض فجأة.

ارتطم الهاتف بالسرير.

وللمرة الأولى منذ سنوات، لم يلتفت إليه.

دخل الحمام.

فتح الماء البارد.

عندما لامس الماء وجهه، شعر كأن آلاف الإبر تخترق جلده، لكن خلف ذلك البرد كان هناك شيء يشبه النجاة.

غسل يديه طويلًا.

كأنه يحاول إزالة آثار العالم عنه.

وحين مسح رأسه، تذكّر عبارةً كان يسمعها قديمًا:

"أخطر الحروب ليست تلك التي تدور على الحدود... بل تلك التي تحتل الداخل."

توقف.

نظر إلى نفسه في المرآة.

وسأل انعكاسه:

— وهل احتُلَّ داخلي فعلًا؟

لم تُجبه المرآة.

لكن عينيه فعلتا.

عاد إلى الغرفة ببطء.

اقترب من النافذة.

كانت طهران تتمدد تحته مثل إمبراطورية من الضوء والتعب؛ مدينة مثقلة بالتاريخ، بالعقوبات، بالخوف، بالأناشيد، بالقبور، وبالأحلام المؤجلة.

فكر فجأة:

كم مدينةً في العالم تبدو هادئة الآن... بينما الطائرات في مكانٍ ما تستعد لمحوها؟

تخيّل الصواريخ وهي تعبر السماء كنيازك سوداء.

ناطحات الزجاج تنهار.

المآذن تصرخ بالنار.

الأمهات يركضن بأطفالهن في الشوارع.

وشعر برعبٍ غامض.

ليس خوفًا على المدينة فقط...

بل خوفًا من الإنسان نفسه.

كيف استطاع هذا الكائن أن يطوّر التكنولوجيا أسرع من تطوير روحه؟

الهاتف في الخلفية أضاء مجددًا.

إشعار جديد.

صورة جديدة.

حرب جديدة.

فضيحة جديدة.

استدار إليه.

حدق بالشاشة طويلًا.

ثم قال كأنه يخاطب عدوًا قديمًا:

ـــ أنت لا تنقل العالم... أنت تصنعه.

في تلك اللحظة أدرك أن المنصات لا تبيع المحتوى فقط، بل تعيد تشكيل الإنسان؛

تُعيد برمجة خوفه، شهوته، غضبه، وحتى حزنه.

كل شيء صار قابلًا للاستهلاك.

حتى الروح.

جلس على السجادة.

كانت ركعتاه ثقيلتين في البداية، كأن جسده نسي الطريقة.

لكنه حين ركع، شعر أن شيئًا داخله ينحني لأول مرة منذ زمن.

وحين سجد... انهار.

لا دموع عالية.

لا صراخ.

فقط انهيار داخلي هادئ، كجدارٍ قديم تعب من حمل الخراب.

همس في سجوده:

— يا الله... لقد أكلني العالم.

وبقي صامتًا.

خارج الفندق كانت المدينة تواصل ضجيجها.

السياسيون يهددون.

الشاشات تشتعل.

الأسواق تصرخ.

والجيوش تتحرك في الخرائط.

أما هنا، في هذه الغرفة الصغيرة، فكانت حرب أخرى تُحسم.

حرب رجلٍ ضد الفراغ.

وحين انتهى من الصلاة، شعر أن الهواء تغيّر فعلًا.

كأن الغرفة اتسعت.

كأن الجدران تراجعت قليلًا إلى الخلف.

نظر نحو الهاتف.

كان مطفأ الشاشة، ساكنًا، بلا سطوة.

وللمرة الأولى، بدا صغيرًا.

اقترب من النافذة مرةً أخيرة.

في السماء فوق طهران، كان هناك نجم وحيد يقف وسط العتمة، كحارسٍ قديم.

ابتسم زيد ابتسامة خفيفة.

ثم فهم شيئًا متأخرًا:

أن النجاة لا تأتي دائمًا من هزيمة العالم...

أحيانًا تأتي فقط من استعادة النفس قبل أن تتحول إلى تطبيقٍ آخر داخل هاتفٍ بارد.

وليمة الأجنحة المكسورة (٤)

كانا صديقين... لا، لم يكونا كذلك تمامًا.

كانا شقّين لروحٍ واحدة تاهت بين الماء والتراب، ثم اضطرت أن تتعايش في مدينة لا تشبه أحدًا.

عباس خرج من الأهوار كما يخرج الضوء من شقّ في ظلمة كثيفة.

ابنُ قصبٍ يتنفس الضباب، ويحفظ في دمه خفّة الطيور أكثر مما يحفظ أسماء الأشياء.. , كان يمشي وفي داخله ماءٌ لا يهدأ، كأنه خُلق ليغادر دائمًا نحو شيء لا يُسمّى.

وعلي خرج من جهة أخرى من الحكاية.

ابنُ أرضٍ ثقيلة، مشدودة بالعشيرة والحقول والطقوس القديمة.. , يعرف قيمة الثقل في كل شيء: في اللحم، في الكلام، في الصمت، وحتى في الصداقة.. , كان يمشي كمن يحمل ظلّ الأرض على كتفيه، لا يرفعه عنه حتى في الأحلام.

في العاصمة، التقيا.

المدينة لم توحّدهما، بل أخفتهما داخل قناع واحد اسمه "الطالب".

لكن تحت القناع، كان عباس يسمع خرير الأهوار كلما أغمض عينيه، وكان علي يشعر بأن التراب يتحرك في دمه كلما ضحك.

كانا معًا لأن الغربة تصنع صداقات سريعة، لكنها لا تضمن لها البقاء.

في البداية، لم يكن بينهما شيء سوى الأكل والكلام والوقت الضائع.

لكن عباس كان يرى في الطعام طقسًا للعودة، لا مجرد حاجة.. , كان يشتاق إلى لحم الطيور كما يشتاق الغريق إلى سطح الماء.

أما علي، فكان يرى في الطعام تثبيتًا للوجود، شيئًا يجب أن يكون ثقيلًا بما يكفي ليُطمئن الأرض في داخله.

علي، كان يؤمن أن اللحم ينبغي أن يكون ثقيلًا، أرضيًا، له صوف وذاكرة مراعي خضراء ...

كان أحدهما يأكل ليحلم، والآخر يأكل ليبقى.

في صباحٍ عادي، استيقظ عباس على رغبة لم يفهم مصدرها.

لم تكن جوعًا، بل نداءً قديمًا.

كأن طائرًا مبللًا بالطين يقرع نافذة ذاكرته.

أمسك هاتفه، وكتب رسالة إلى قريبه في ميسان:

"أرسل لي من الطيور الحرة... ما يكفي لوليمة."

لم يكن يطلب طعامًا فقط.

كان يطلب نسخة من نفسه قبل أن تضيع.

دعا عليًا إلى الوليمة.

قال له بصوتٍ فيه شيء من الرجاء:

"تعال... ستأكل شيئًا لا يشبه الأرض."

تردد علي.

فكرة الطيور لم تكن تثير فيه شهوة، بل شكًا غامضًا.

لكنه جاء، احترامًا لشيء لا يعرف اسمه: ربما الصداقة، ربما العادة، وربما الفراغ.

وقبل الموعد بيوم، تسللت إلى علي رسالةٌ من عبَّاس يخبره فيها بأن وليمة الغد ستكون من لحم طائر "الحذّاف"، وهو أقل جودة من بقية الطيور الحرة غالية الثمن والتي اشتراها من محافظة ميسان .

لم تكن الكلمات إشادة ولا تحذيرًا، بل اعترافًا بالحقيقة العارية... ؛ وهنا، في صمت المضيف ، انكسر الخيط العنكبوتي... ؛ و قرأ علي بين السطور إهانةً لم تُكتَب... ؛ اذ رأى في "الحُذاف" رمزًا للبديل

الــرخيص، للقيمــة المُســتَهانة... ؛كانــت الكلمــات قصــيرة، لكنهــا وقعــت علــى قلب علي كحجر في كأس ماء.

قرأ الرسالة مرات...

ثم بدأ داخله يتحدث بلغة الميراث:

لماذا الأدنى لي، والأعلى له؟

هل الصداقة تُطعم الفتات؟

وهل الكرم يُقاس بما يبقى في يد المعطي؟

"يحتفظ بالغالي لنفسه، ويُطعمني فتات موائده!" هكذا حكم .

فأرســل اعتــذارًا بــاردًا مهــذبا ، نســيجُه مــن حجــجٍ شــفافة كالزجــاج، تُخفــي وراءهــا صــخرةَ كبريــاء... ؛ تخيــل أن الــدعوة حجــابٌ لُطِّــخ بــازدراء، لا جسرٌ من لحمٍ وريش... ؛ فالحقيقة كانت أكثر مرارة: لقد شعر بالإهانة.

إذ اعتبــر أن هــذه الــدعوة إهانــة لا تكريمًــا؛ فقــد اســتبدل عبــاس الأغلــى والأطيــب بــالأدنى، وهــذا يــدل — فــي نظــره — علــى أن عبــاس يحــتفظ لنفســه بــالطيور الحــرة غاليــة الــثمن، بينمــا يطعــم أصــحابه مــا هــو أدنــى وأرخص...

في تلك الليلة، جلس عباس وحيدًا أمام الطيور المشوية...

لم يفهم لماذا انكسر الجسر فجأة...

كان يظن أن المشاركة وحدها كافية...

لــم يكــن يــدري أن بعــض القلــوب لا تبحــث عــن الطعــام ؛ بــل عــن الاعتــراف والتقدير والاحترام .

وأن بعض النفوس لا تقبل أن تُطعَم مما لا يُحب صاحبه أن يخسره...

هنـاك، فـي مكـانٍ مـا بـين القـدر والصـحن، تـذكر علـي فـي بيتـه الآيـة القرآنيـة :
((لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون))

فالبر ليس وليمة...

البر امتحان خفيّ للنوايا...

وفـي المـدن الكبيـرة، لا تمـوت الصـداقات بسـبب الجـوع ... ؛ بـل بسـبب سوء الترجمة بين ذاكرة الماء وذاكرة الأرض...

ولعـل الآيـة الكريمـة كانـت نـاظرة إلـى مثـل هـذه النفسـيات؛ فـبعض النفـوس أنانية تشحّ بالخير، وبعضها يؤثر الآخرين على نفسه وينفق مما يحب.

نعـم، إن كتـاب القـرآن الكـريم كـان يعلـم أن بعـض النفـوس الأبيـة لا تقبـل بفتات الموائد، ولا بما رخص من الطعام.

في تلك الليلة، لم ينم علي بسهولة.

لم يكن غاضبًا بقدر ما كان مثقلاً بفكرة واحدة:

أن الإنسـان لا يُهـزم بمـا يُقـال لـه... بـل بمـا يظنـه عـن نفسـه حـين يُقـال لـه شيء صغير.

كان يعرف حديثًا قديمًا، لم يعد يذكر أين سمعه:

أن البـر لا يُقـاس بالنيـة فقـط، بـل بمـا يُنفـق مـن المحبـة حـين تكـون المحبـة مؤلمة.

لكن الألم، حين يختلط بالكرامة، لا يعود حكمة... بل يصبح جدارًا.

وفي مدينة كبيرة كهذه، لا تموت الصداقات فجأة.

تموت ببطء...

عبر رسالة صغيرة، أو طائرٍ أقل مما يجب، أو معنى لم يُشرح في وقته.

وهكـذا، بـين المـاء الـذي يفسّـر كـل شـيء بـالحنين، والأرض التـي تفسّـر كـل شيء بالكرامة،

سقطت وليمة أخرى...

لا على الطاولة، بل بين قلبين كانا يظنان أنهما يفهمان بعضهما.

مصطبة بين عالمين (٥)

كـان أحمـد يمشـي فـي الحيـاة كمـا يمشـي رجـلٌ يعـرف أن الوجـوه خُلقـت لتلتفت إليه...

طـويلًا، ممشـوقًا، يجـرّ وراءه ظـلاً مـن الهيبـة البـاردة؛ كـأن الجمـال لـم يكـن صـفة فيـه، بـل سـلطة خفيـة تُمـارَس علـى الآخـرين دون قصـد.. , شـفتاه ورديتـان كفجـرٍ خجـول يتـردد فـي إعـلان نفسـه، وخـدّاه يحمـلان دفئًـا دائمًـا، كـأن الحيـاة قبّلتـه هنـاك ذات شـغفٍ قـديم ولـم تغـادر.. , أمّـا أنفـه الرومـاني فكـان حـادًا كقطعـة مرمـرٍ نحتتهـا يـد الـزمن بصـبر نبـيّ، بينمـا شـعره الأسـود الكثيـف بـدا كمـوجٍ ليلـيّ هـائج، تاجًـا مـن كبريـاء لا يعتـرف بـالرؤوس المنحنية.

وحين يمشي، لا يعجّل الخطى أبدًا...

كـان يسـير الهـوينى، كـأن الشـوارع خُلقـت لتفسـح لـه الطريـق، فتتبعـه العيـون دون وعـي، وتتعثـر بـه القلـوب كمـا تتعثـر الفراشـات بنـورٍ لا تعـرف إن كـان خلاصًا أم احتراقًا.

النسـاء كـنّ يُفـتنّ بنظرتـه؛ تلـك النظـرة التـي تجمـع بـين بـرودة الرخـام ولهيـب الكبريـاء، لكـن أحـدًا لـم يكـن يـدرك أن خلـف ذلـك الوجـه المضـيء كانـت

تعـــيش نفـــسٌ متعبـــة، موشـــومة بنـــدوب نرجســـية قديمـــة، وقلـــبٌ يشـــبه قلعـــة مهجورة يسكنها طائرٌ أسود من العقد، لا يغرد إلا لنفسه.

لقــد تعلّــم أحمــد، منــذ ســنوات بعيــدة، أن اللامبــالاة أكثــر أناقــة مــن الاعتــراف بالألم.

وحــين خانــه أول حــبّ فــي شــبابه، لــم يبــكِ...، بــل شــيّد داخــل روحــه جــدارًا مــن التعـــالي، وأقنـــع نفســـه أن البشـــر مجـــرد ظـــلال عـــابرة، وأن الاقتـــراب ضـــعف، وأن الحنـــان فـــخٌّ لا يليـــق بمـــن يريـــد النجـــاة.. ، ومنـــذ ذلـــك الحـــين، صـــار يـــوزع ابتســـاماته كمـــا يـــوزع الأثريـــاء الصـــدقات: ببـــرودٍ محســـوب، دون أن يمـــنح قلبه لأحد.

فـــي مســـاءٍ معتـــدل، خـــرج بعـــد عشـــاء ثقيـــل بـــلا شـــهية، يتمشـــى فـــي حيّـــه الراقـــي، حيـــث الأشـــجار الباســـقة تتبـــادل الأســـرار فـــوق الـــرؤوس، والحـــدائق العامـــة تُســـرّح أنفاســـها الخضـــراء فـــي صـــدور المـــارة.. ، جلـــس علـــى مصـــطبة حديديـــة فـــي الحديقـــة المقابلـــة للمقهـــى المعتـــاد، وطلـــب قهوتـــه الســـوداء.. ، جـــاءه العامـــل مســـرعًا، لا لأن القهـــوة تحتـــرق شـــوقًا إليـــه، بـــل لأن إكراميـــة أحمد كانت تعادل نصف أجر يومٍ كامل.

أشعل سيجارة، وراح يرتشف القهوة متصنعًا لذةً لا يشعر بها.

كـــان يبـــدو هادئًـــا، لكـــن داخلـــه كـــان صـــحراء واســـعة؛ نجـــاحٌ، شـــركات، علاقـــات عـــابرة، نســـاء كثيـــرات...، ومـــع ذلـــك، ثمـــة فـــراغ غـــامض ينهشـــه بصـــمت، كدودةٍ سوداء تأكل جذور شجرة تبدو من الخارج مزدهرة.

حينهـــا جلـــس إلـــى جانبـــه رجـــل خمســـيني قصـــير القامـــة، أبـــيض اللـــون، يرتـــدي معطفًـــا قـــديمًا بعنايـــة مبـــالغ بهـــا، كـــأن الفقـــر حـــاول إذلالـــه طـــويلًا لكنـــه فشـــل فـــي انتزاع كرامته.

كانـــت ملامحـــه تشـــبه أســـاتذة الأزمنـــة الغـــابرة؛ أولئـــك الـــذين يحملـــون فـــي أعيـــنهم تعـــب الكتـــب القديمـــة ورائحـــة الـــورق المعتّـــق.. ؛ اســـمه حســـين.. ،

رجلٌ اعتاد الهرب من حيّه الفقير في أطراف العاصمة إلى هذه الحديقة كلما ضاق صدره، حتى صار الحلم نفسه أضيق من أن يتسع لأنفاسه.

تبادلا التحية.

سلامٌ عابر في ظاهره، لكنه بدا كأن القدر كتبه منذ زمن بعيد ثم نسي أن يسلّمهما إياه إلا الآن.

لاحظ أحمد شيئًا غريبًا منذ اللحظة الأولى...

ذلك الرجل البسيط، المختلف عنه في كل شيء، كان يملك حضورًا دافئًا يهزم برودة المكان.. , لهجته الشعبية، هندامه المتواضع، طريقته القديمة في الكلام، كلّها بدت بعيدة عن عالم أحمد الأنيق؛ ومع ذلك شعر نحوه بألفةٍ مربكة، كحنينٍ إلى ذكرى لم يعشها قط، أو كأن روحًا قديمة داخله تعرّفت إلى روحٍ أخرى كانت تنتظرها منذ سنوات.

بدأ حسين يتكلم، وبدأ أحمد ينصت.

ولأول مرة منذ زمن طويل، لم يكن يصغي بدافع التهذيب، بل بدافع الجوع.

جوعٍ خفيّ للفهم... للصدق... لشيءٍ لا يُشترى بالمال.

حكى حسين عن شبابه، عن زوجته التي ماتت مبكرًا وتركت له ابنة تزوجت ورحلت، وعن الوظيفة الحكومية التي أفنت عمره ثم رمت به إلى التقاعد كعلبة معدنية فارغة.

كان يتكلم بمرارة ساخرة، بينما عيناه تحملان ذلك الحزن الناضج الذي لا يصرخ، بل يجلس بهدوء داخل الروح مثل شيخٍ متعب.

أما أحمد، فوجد نفسه يتكلم دون حذر، كأن شيئًا في صوت حسين كان يفتح الأبواب المغلقة داخله.

حكـــى عـــن نجاحـــه، عـــن السـفر، عـــن النســـاء اللـــواتي مـــررن فـــي حياتـــه كـــالعطور الســـريعة، وعـــن شـــعوره الـــدائم بـــأن الجميـــع يريـــدون شـــيئًا منـــه، لا منه هو.

اعتـــرف، للمـــرة الأولـــى، بأنـــه يشـــعر أحيانًـــا كـــأن حياتـــه صـــالة فـــاخرة مليئـــة بالمرايا، لكنها خالية من البشر الحقيقيين.

مرّ الوقت كحلم قصير.

أُغلـــق المقهـــى، وخَلَـــت الحديقـــة، وبقـــي الـــرجلان علـــى المصـــطبة الحديديـــة يتحـــدثان كمـــا لـــو أنهمـــا يعرفـــان بعضـــهما منـــذ عمـــرٍ كامـــل.. , وحـــين انتبهـــا للوقت، كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجراً.

نهضا مرتبكَين من دهشة القرب السريع.

تبـــادلا أرقـــام الهواتـــف، وافترقـــا، لكـــن كليهمـــا كـــان يحمـــل داخلـــه قلقًـــا جمـــيلًا؛ ذلك القلق الذي يشبه بداية الحب أو بداية النجاة.

في اليوم التالي، استيقظ حسين مساءً على اتصالات فائتة من أحمد.

ابتســـم بعفويـــة لـــم يعرفهـــا منـــذ ســـنوات، واتصـــل بـــه فـــورًا، لكـــن الهـــاتف كـــان مغلقًـــا.. , أعـــاد المحاولـــة مـــرارًا...؛ عبثًـــا.. , مـــرّت الأيـــام ثقيلـــة، والحديقـــة صامتة، والمصطبة باردة كأنها فقدت سرّها.

وللمـــرة الأولـــى منـــذ وفـــاة زوجتـــه، شـــعر حســـين أن الوحـــدة تعـــود لتـــنهش قلبـــه بأسنان حادة.

لـــم يفهـــم كيـــف اســـتطاع شـــابّ لـــم يعرفـــه إلا لســـاعات أن يتـــرك داخلـــه هـــذا الأثـــر العميـــق.. , لكنـــه أدرك أن الإنســـان، مهمـــا كبـــر، يبقـــى محتاجًـــا إلـــى روحٍ تشبهه أو قد تختلف عنه اختلافا جذريا كي لا يسقط تمامًا في هاوية نفسه.

أما أحمد، فقد باغته اتصال عمل عاجل من دبي، فسافر على عجل.

أراد أن يخبر حسين، لكنه نسي هاتفه الشخصي؛ ذلك الهاتف الذي خصصه للحالات الإنسانية والعاطفية الخاصة، وكأن العاطفة عنده ملفّ منفصل عن بقية الحياة.

في دبي، بين الأبراج الزجاجية والوجوه اللامعة، شعر أحمد بغربةٍ لم يشعر بها من قبل.

كان يسير وسط المدينة الأكثر صخبًا، لكنه يسمع داخله صمتًا هائلًا.

كل شيء هناك يلمع: السيارات، النساء، الفنادق، الاجتماعات..., لكن روحَه كانت تنطفئ ببطء.. , وكان شبح حسين يطارده كظلّ ضمير طويل؛ يتذكر ضحكته البسيطة، طريقته في الإصغاء، ودفء الكلمات الخارجة من قلبٍ متعب لكنه صادق.

حينها فقط أدرك أحمد أن العمل الذي ملأ حياته لم يكن إلا ضجيجًا كثيفًا يغطي على صمت الروح.

أنهى أعماله بسرعة، وعاد بعد تسعة أيام بدت له دهرًا كاملًا.

بحث عن حسين بجنونٍ مكتوم؛ عاد إلى الحديقة يوميًا، جلس على المصطبة نفسها، طلب القهوة ذاتها، راقب الوجوه العابرة، واتصل مرارًا... , لكن الفراغ كان يجيبه كل مرة.

وفي الجهة الأخرى من الحكاية، كان حسين قد سافر إلى الهند لإجراء فحوصات طبية معقدة بعد تدهور صحته.

مكث شهرًا كاملًا في أروقة المستشفى، محاطًا برائحة الأدوية والموت البطيء، ولم يكن يملك من العالم سوى صورة أحمد العالقة في خياله؛ صورة ذلك الشاب الجميل المتعالي الذي اكتشف خلف غروره قلبًا خائفًا يشبه طفلًا ضائعًا في مدينة ضخمة.

كان يفكر به كثيرًا... أكثر مما ينبغي.

أحيانًا كابنٍ لم يُرزق به، وأحيانًا كصديقٍ متأخر أنقذه من وحشة الشيخوخة، وأحيانًا كشيءٍ غامض لا اسم له؛ شيء يتجاوز العلاقات المألوفة، ويشبه حاجة الأرواح إلى بعضها حين تتعب من العالم.

وحين عاد أخيرًا، اتصل به.

رفع أحمد السماعة، وما إن سمع صوت حسين حتى سرت قشعريرة حادة في جسديهما، كأن صعقة كهرباء أيقظت شيئًا نائمًا في أعماق الروح.

تواعدا على العشاء.

وحين التقيا، تعانقا طويلًا... لا كصديقين، بل كناجين من وحدةٍ مشتركة، كأن كل واحد منهما كان يمسك بالآخر كي لا يسقط مجددًا في هاوية نفسه.

منذ تلك الليلة، تغيّر كل شيء.

صار حسين جزءًا من حياة أحمد اليومية؛ يشاركه الطعام، السفر القصير، وحتى صمته الطويل.

وكان أحمد، للمرة الأولى، يشعر براحةٍ حقيقية حين يجلس قرب إنسان دون حاجة إلى التظاهر بالقوة أو الكمال.

أما حسين، فقد عاد إليه الإحساس بقيمته الإنسانية.

لم يعد ذلك المتقاعد المنسيّ الذي يذوب ببطء في أطراف المدينة؛ إذ تكفّل أحمد بمعيشته، ونقله إلى منزلٍ أنيق، وأشركه في إحدى شركاته مستشارًا إداريًا بعد تقاعده، لا بدافع الشفقة، بل اعترافًا بقيمة رجلٍ لم تُفسده الحياة رغم قسوتها.

كان كلٌّ منهما مرآةً للآخر.

أحمد رأى في حسين الشرف والطمأنينة والمعنى الذي افتقده وسط عالم المال البارد، وحسين رأى في أحمد فرصة متأخرة للعدالة؛ كأن الحياة اعتذرت له أخيرًا عن سنوات الحرمان الطويلة.

وهكذا، على مصطبة حديدية في حديقة عامة، تصالحت طبقتان اجتماعيتان، وتعانق جرحان قديمان، واكتشف رجلان أن الخلاص لا يأتي دائمًا في هيئة معجزة... , بل قد يأتي أحيانًا في هيئة إنسان يجلس إلى جوارك مصادفة، ثم يرمم داخلك بصمت.

ومنذ ذلك اليوم، أصبحا عالمين متكاملين:

أعطى أحمد حسين دفءَ الحياة المادية؛ منزلًا يضيء كقلعة في ليل الفقر، وعملًا يليق بحكمته، وأمانًا طال انتظاره...

وأعطى حسين أحمد ما لم تمنحه له كل ثرواته: معنىً يملأ الفراغ، وحكمةً تهدئ العاصفة داخله، وحنانًا أبويًا أعاد إلى قلبه القدرة على الشعور.

ففي تلك المصادفة العابرة، وجد النرجسي أخيرًا من يتجاوز مرآته ليرى العالم، ووجد الحكيم من يحوّل كلماته إلى ملجأ حيّ.

واختلطت الأقدار على تلك المصطبة، حتى بدا كأن الزمن نفسه توقّف هناك قليلًا... ليُرمم جزءًا صغيرًا من خلله الكوني.

مرايا الإسفلت (٦)

في ليلةٍ كانت المدينةُ فيها تبدّل جلدها الأخير من السنة، جلس عباس في المقهى كمن يجلس داخل ذاكرته لا على كرسيٍّ خشبي.

الأضواء المعلّقة فوق الشارع بدت شاحبة، مثل ابتسامات موظّفين أُجبروا على الفرح، فيما كان الضباب يهبط ببطء على الأرصفة، كأن السماء نفسها تريد إخفاء شيءٍ ما قبل منتصف الليل.

أمام عباس، جلس صديقاه القديمان: سالم وحيدر.

ثلاثتهم تجاوزوا الأربعين بقليل، لكن وجوههم تحمل تعب رجالٍ عاشوا أعماراً إضافية داخل أقبية أجهزة الأمن والحروب والتحقيقات والخيبات الوطنية.

كانوا يشربون الشاي والقهوة بصمتٍ متقطّع، ذلك الصمت الذي لا يخصّ الأصدقاء، بل الناجين.

قال سالم وهو يحرّك الملعقة:

— الغريب أننا كلما كبرنا، صرنا نخاف من الهدوء أكثر من الضجيج.

ابتسم حيدر بسخرية باهتة:

— لأن الضجيج واضح... أما الهدوء ففيه كمائن.

ضحك عباس قليلاً، لكنه لم يكن يصغي إليهما تماماً.

كان مأخوذاً بانعكاس وجهه على زجاج المقهى؛ وجهٌ بدا له غريباً، متعباً، كأنه يخصّ شخصاً مات منذ سنوات ولم يُدفن بعد.

وفجأة... تجمّد.

في الجهة المقابلة من الشارع، لمح رجلاً يخرج من محلّ للمعجّنات ممسكاً بكيس ورقي، وخلفه شاب عشريني يشبهه حدّ التطابق، سوى أن ملامحه لم تتعلّم القسوة بعد.

شعر عباس بأن شيئاً بارداً انغرس في معدته.

همس:

— إنه هو...

رفع سالم رأسه فوراً.

أما حيدر، فاكتفى بالنظر إلى وجه عباس؛ كان يعرف أن بعض الأسماء لا تحتاج إلى نطق، لأن الجسد نفسه يتذكّرها قبل اللغة.

الرجل كان خصمهم القديم: فاضل الكرخي.

ضابط سابق تحوّل بعد سقوط الدولة إلى تاجر ظلال، ثم إلى مسؤول نافذ يسرق المؤسسات كما تُسرق الجيوب في الزحام.

كان واحداً من أولئك الذين يخرجون دائماً من الحروب أنظف من ضحاياهم.

راقبه عباس من خلف الزجاج.

لم يكره فاضل فقط؛ كان يشعر نحوه بإهانة شخصية، كأن وجوده الحرّ في المدينة دليلٌ على فشل العدالة كلها.

قال عباس بصوت منخفض:

— انظروا إليه... حتى وهو يشتري المعجنات يبدو كأنه يوقّع صفقة فساد.

لكن ما أربكه حقاً لم يكن فاضل، بل ابنه.

الشاب كان يضحك بعفوية وهو يختار قطع الحلوى، يلتفت إلى أبيه أحياناً كما لو كان ينظر إلى بطلٍ لا إلى لصّ.

وفجأة تسلّل سؤالٌ خبيث إلى رأس عباس:

هل الشرّ يُورَّث؟

أم أن الأبناء مجرد مرايا بريئة لآباء معطوبين؟

خرج الثلاثة من المقهى بحذر.

لم يكن قرار المطاردة قراراً واعياً تماماً؛ بدا الأمر كما لو أن سنواتهم القديمة في التعقّب والاستجواب نهضت وحدها داخل أجسادهم.

ركبوا سيارة عباس.

كانت المدينة مزدحمة بأبواق السيارات واحتفالات رأس السنة، لكن عباس شعر بأن كل شيء حوله صامت.

عيناه معلّقتان بسيارة فاضل الحكومية التي تشقّ الشوارع بثقة رجلٍ تعوّد ألا يُحاسَب.

قال حيدر:

— لا تقترب كثيراً.

أجاب عباس بعصبية:

— أعرف.

لكن الحقيقة أنه لم يكن يعرف شيئاً.

كان يقود بانفعالٍ دفين، كأن المطاردة ليست لفاضل وحده، بل لكل ما خسره خلال السنوات الماضية: عمله، زواجه، إيمانه بالدولة، وحتى صورته عن نفسه.

انعطفت سيارة فاضل أكثر من مرة.

مرة تدخل شارعاً فرعياً، ثم تعود إلى الطريق العام.

مرة تتباطأ فجأة، ثم تسرع.

قال عباس:

ـــ لقد كشفنا.

رد سالم:

ـــ أنت مصاب بالارتياب يا رجل.

لكن الارتياب كان المهنة القديمة التي لم تغادرهم أبداً.

حتى بعد التقاعد، ظلّوا ينظرون إلى العالم بوصفه مؤامرة ناقصة.

بعد ساعة تقريباً، وصلوا إلى حيّ راقٍ عند أطراف المدينة.

توقفت سيارة فاضل أمام منزل ضخم تحيطه كاميرات وحراسة خفيّة.

أطفأ عباس المحرك.

ظلّ يحدّق بالبيت طويلاً.

قال حيدر:

ـــ وماذا الآن؟

لم يُجب.

في داخله، كان شيء أكثر ظلمة يتشكّل.

لم يعد يريد فضح فاضل أو الانتقام منه فقط؛ كان يريد أن يثبت لنفسه أن العالم لم يفقد منطقه بالكامل.

قال سالم:

ـــ ربما نستطيع الوصول إلى ملفاته القديمة... أو نسرّب مستندات...

قاطعه عباس:

ـــ لا... هذا النوع لا يسقط بالوثائق.

ثم أضاف بعد صمت:

— يسقط بالخوف.

نظر إليه صديقاه بقلق.

كانا يريان التحوّل الذي يحدث فيه ببطء؛ ذلك الخط الرفيع بين مطاردة المجرم والرغبة في التشبّه به.

في طريق العودة، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.

الألعاب النارية بدأت تظهر بعيداً فوق المدينة، مثل انفجارات ملوّنة بلا معنى.

عباس كان يقود بسرعة زائدة.

قال حيدر:

— خفّف السرعة.

لكن عباس لم يسمعه.

كان غارقاً في أفكاره:

وجه فاضل...

ضحكة الابن...

البيت الفخم...

سنوات الفقر...

وإحساسه المهين بأنه عاش شريفاً بلا جدوى.

وفجأة، ظهرت الشاحنة.

خرجت من العتمة كقدرٍ أعمى.

صرخة قصيرة.

ضوء أبيض.

ارتطام هائل.

ثم صمت.

في صباح اليوم التالي، استيقظت المدينة على خبر الحادث كما تستيقظ دائماً على مآسي الآخرين: بسرعة، ثم بلا اكتراث.

مات سالم فوراً.

أما حيدر، فدخل في غيبوبة طويلة.

عباس وحده نجا، لكن النجاة نفسها بدت له شكلاً آخر من العقاب.

في المستشفى، ظلّ يتذكّر لحظة الاصطدام لا بوصفها حادثاً، بل كأنها حكمٌ خفيّ.

كان يشعر أن الشاحنة لم تصدم السيارة فقط، بل صدمت الوهم الذي عاشوا داخله سنوات: وهم أنهم ما زالوا قادرين على إصلاح العالم أو حتى فهمه.

بعد أسابيع، خرج عباس بعكازٍ ووجهٍ جديد.

صار يمشي ببطء قرب الطرق السريعة، يحدّق بالإسفلت طويلاً، كأنه يقرأ عليه سيرةً سرّية.

اكتشف متأخراً أن فاضل لم يكن عدوه الوحيد.

كان هناك عدو آخر أكثر قرباً ووحشية: ذلك الفراغ الذي يتكوّن داخل الإنسان حين يشعر أن الشرّ أكثر نجاحاً من الفضيلة.

ومنــذ تلــك الليلــة، كلمــا رأى انعكاســه علــى زجــاج الســيارات أو بــرك المطــر، كان يتذكّر حقيقة مرعبة:

نحن لا نطارد أعداءنا فقط...

بل نطارد النسخ المحتملة من أنفسنا.

نعــم , بعــد الحــادث، ظــلّ الإســفلت مــرآةً كبيــرة تعكــس مــا لا نريــد رؤيتــه: أن الشــرّ لا ينتصــر لأنــه قــوي، بــل لأن الصــدفة كثيــراً مــا تصــطفّ إلــى جانبــه... ؛ وأن بعــض المطــاردات لا تنتهــي بإمســاك الهــدف، بــل بانكشــاف معنــى أعمــق: نحــن نلاحــق أشــباحنا بقــدر مــا نلاحــق أعــداءنا، وحــين نعتقــد أننــا نكتــب النهاية، يكون القدر قد طوى الصفحة وبدأ قصةً أخرى مغايرة...!!

مرآةُ اللهِ المكسورة (٧)

ياســر: ســيرةُ رجــلٍ كــان يظــنُّ أن الــروحَ تُهــذِّبُ الجســد، قبــل أن يكتشــف أن الجسدَ هو الامتحان الأخير للروح.

فــي مدينــةٍ عراقيــةٍ كانــت تتآكــل بــبطء تحــت أحذيــة الخــوف، وُلــد ياســر كأنّــه خطأٌ روحيّ في دفتر العالم.

لم يكن طفلًا بقدر ما كان سؤالًا مبكرًا عن الله.

الأطفــالُ فــي الزقــاق يركضــون خلــف الكــرات والــدعابل، أمّــا هــو فكــان يقــف قــرب الجــدار الطينــيّ الطويــل، يحــدّق فــي الســماء كمــا لــو أنّ ثمّــة بابًــا ســريًّا فوق الغيوم نسيه اللهُ مفتوحًا.

كــان يشــعر أنّــه أقــدم مــن عمــره، كــأنّ طفولتــه لــم تحــدث أصــلًا، أو حــدثت لشخصٍ آخر ثم أُعطيت له بالخطأ.

لم يتعلّم اللعب، بل تعلّم المراقبة.

يراقب الناس كما يراقب ناسكٌ قافلةً عابرة في صحراءٍ لا تخصّه.

كان أبوه يظنّه مؤدّبًا، وأمّه تظنّه صالحًا، والجيران يرونه هادئًا أكثر من اللازم.

لكنّ الحقيقة كانت أعمق من ذلك بكثير:

كان ياسر يخاف الحياة.

كلّما اقترب من البشر شعر أنّ روحه تتّسخ.

وكلّما اقترب من الله شعر أنّ جسده يفضحه.

في الليل، حين ينام الجميع، كان يستلقي على فراشه ويحدّق في السقف المظلم، ويتمتم:

ــ لماذا وضعتَني داخل هذا الجسد يا الله، إذا كنتَ تريدني أن أطير؟

لكنّ الله لم يكن يجيب.

وكان الصمتُ يكبر داخله ككهف.

كبر ياسر في عراق الحروب والمشانق والحصار.

بلادٌ تُعلّق أبناءها على أعمدة السياسة ثم تطلب منهم أن يغنّوا للوطن.

رأى النعوش أكثر مما رأى الأعراس، وسمع بكاء الأمهات أكثر مما سمع الموسيقى.

وحين كان الآخرون يتعلّمون معنى الحياة، كان هو يتعلّم معنى الذنب.

أصبح الدينُ ملجأه الوحيد.

يقرأ الكتب القديمة بنهمٍ يشبه الجوع، يحفظ أسماء الله الحسنى، ويُطيل السجود كأنّه يريد أن يحفر بجبهته نفقًا نحو السماء.

لكنّ شيئًا آخر كان ينمو في الظل.

جسدُه.

ذلك الحيوان الصامت الذي لم يكن يفهم اللغة التي تتكلّمها روحه.

كانت الشهوة تأتيه على هيئة رؤى مباغتة:

وجه امرأةٍ مجهولة، عنقٍ أبيض، شعرٍ مبتلّ، أصابع ناعمة، أو رائحة أنثى تعبر قربه صدفةً فتقلب داخله خرائط اليقين.

وكان يكره نفسه بعد كلّ ارتعاشة.

يشعر أنّه يعيش بحقيقتين متناقضتين:

متصوّفٌ يريد الفناء في الله،

وكائنٌ أرضيّ تسحبه الغريزة إلى قاع الطين.

كان يتطهّر كثيرًا، يصلّي كثيرًا، ويبكي كثيرًا.

لكنّ الرغبة كانت تعود دائمًا، أكثر دهاءً من التوبة.

شيئًا فشيئًا، صار يشعر أنّ الله يراقبه من داخل مرآةٍ مكسورة:

كلّ قطعةٍ فيها تعكس وجهًا مختلفًا له.

الزاهد.

الخاطئ.

العاشق.

المريض.

الطفل المرتعب.

والذئب المختبئ تحت جلد الناسك.

ثم ظهرت دلال.

ظهرت في الزقاق ذات ظهيرةٍ خانقة، ومشت ببطءٍ كأنّها خارجةٌ من حلمٍ قديم.

كانت ترتدي حجابًا بسيطًا، وتمشي مطأطئة الرأس، لكنّ حضورها كان يهزّ المكان كلّه.

شعر ياسر، لحظة رآها، أنّ العالم انقسم إلى نصفين:

ما قبل دلال،

وما بعدها.

عرف لاحقًا أنّها ابنة رجلٍ أعدمه النظام لأنه متديّن.

وكان في الأمر ما يشبه القرابة الخفية بينهما:

كلاهما يحمل داخله خرابًا لا يراه أحد.

صار ينتظر مرورها كلّ يوم.

يقف عند زاوية الزقاق كأنّه من حرّاس المعابد القديمة.

لم يكن يحبّها بطريقة طبيعية.

كان يحبّها كما يحبّ الجائعُ الخبز في سنوات المجاعة، وكما يحبّ السجين نافذته الوحيدة.

كانت بالنسبة إليه رمزًا أكثر منها امرأة.

الطهارة التي يريد لمسها.

والجنة التي يريد اقتحامها.

وهنا بدأ انهياره الحقيقي.

كان يتخيّلها كثيرًا.

ثم يكره نفسه كثيرًا.

كلّما حاول أن يراها روحًا، أعادها الجسدُ إلى الأرض.

وكلّما حاول أن يشتهيها، شعر أنّه يدنّس شيئًا مقدّسًا.

كان يعيش حربًا أهلية داخل جسده.

في اليوم الرابع والأربعين، حدث ما سيُفسد حياته كلّها.

كانت وحدها في الزقاق.

وكان هو ممتلئًا حتى الاختناق.

اقترب منها فجأة، كأنّ شخصًا آخر خرج من داخله ودفعه نحوها.

قبّلها بسرعة مرتبكة، قبلةً خاطفة على وجهها ورقبتها، ثم هرب.

لم تستغرق اللحظة سوى ثوانٍ، لكنها مزّقت عمره إلى الأبد.

سمع صرختها خلفه، لا كصوت امرأة، بل كصوت ضميرٍ يُذبح.

ظلّ يركض طويلًا.

وحين وصل غرفته، نظر إلى يديه كما لو أنّهما يدَا شخصٍ ارتكب جريمة.

في تلك الليلة لم يبكِ.

البكاء كان أرحم من شعوره الحقيقي.

لقد اكتشف شيئًا مرعبًا:

أن الإنسان يستطيع أن يتحوّل إلى ما يكرهه خلال لحظة ضعفٍ واحدة.

ومنذ ذلك اليوم بدأ تعذيبه الداخلي.

لم يعد يرى نفسه عاشقًا، بل معتديًا على براءة شخصٍ آخر.

صار يشعر أنّ كلّ صلاةٍ لا تصل، وكلّ دعاءٍ يرتطم بسقف الغرفة ويعود إليه مكسورًا.

وكان السؤال ينهشه بلا توقف:

كيف يمكن لرجلٍ أحبّ الله بهذا العمق أن يؤذي إنسانةً بهذه القسوة؟

مرّت السنوات.

كبر ياسر، لكنّ الحادثة بقيت حيّة داخله، كشوكةٍ في الروح.

تعرّف لاحقًا إلى أخيها محسن في المدرسة، وصارا صديقين.

وكان كلّ لقاءٍ معه يشبه وقوفه أمام محكمةٍ سرّية.

ثم حدث ما لم يكن مستعدًا له.

ذهب ذات مساءٍ إلى بيت محسن.

طرق الباب.

فتحت دلال.

تجمّد الزمن.

لم تقل شيئًا، لكنه رأى في عينيها تلك اللحظة القديمة كاملةً، كأنّها لم تنتهِ بعد.

أغلقت الباب بهدوء.

وكان ذلك الهدوء أشدّ عليه من أيّ شتيمة.

عاد إلى البيت محطمًا، وشعر أنّ الإنسان قد يُسامَح على أخطائه كلّها، إلا الأخطاء التي تُشعر الآخر بأن جسده لم يعد آمنًا للحظة واحدة.

ومنذ تلك الليلة، صار يفهم الأخلاق بطريقة مختلفة:

ليست الأخلاق قمعَ الرغبة،

بل حماية هشاشة الآخر من عنف رغباتنا.

بعد سنواتٍ أخرى، شاهد زفّة دلال.

كانت ترتدي الأبيض.

لكنّ الأبيض بدا له كالكفن.

شعر أنّه يخسر شيئًا لم يكن يملكه أصلًا.

لا المرأة فقط، بل النسخة النقيّة من نفسه التي ماتت يوم قبّلها بالقوة.

تزوّج لاحقًا من امرأةٍ أخرى، عاش حياةً عادية في ظاهرها، لكنّ الداخل ظلّ خرابًا مؤجّلًا.

وفي أحد الأيام، عادت زوجته من زيارةٍ لبيت دلال، وقالت له بهدوء:

— دلال تسأل: هل تاب ياسر؟

ارتجف.

لم تكن تسأله إن كان قد صلّى أو استغفر.

كانت تسأله إن كان فهم.

إن كــان أدرك أخيــرًا أنّ التوبــة ليســت خوفًــا مــن الله فقــط، بــل اعترافًــا كــاملًا بإنسانية الآخر.

دخل غرفته تلك الليلة، وأغلق الباب، ثم كتب على الجدار:

"الخطيئة ليست ما تفعله الأجساد فقط…

الخطيئــة الحقيقيــة أن تــرى الإنســانَ موضــوعًا لرغبتــك، لا عالمًــا كــاملًا مــن الألم والكرامة والخوف."

ثم جلس طويلًا في الظلام.

وحــين نــام، رأى دلال فــي الحلــم طفلــةً تحمــل مصــحفًا مــبللًا بــالمطر، وتنظــر إليه بحزنٍ عميق.

قالت له:

— تب إلى قلبك أولًا… فالله لا يسكن القلوب التي تؤذي ثم تبرّر.

استيقظ فجرًا.

توضّأ ببطء، كأنّه يتعلّم الماء للمرّة الأولى.

وحين رفع يديه إلى السماء، لم يطلب المغفرة هذه المرّة.

بل طلب أن يصبح إنسانًا.

مذكّرات رجلٍ لم يعد يخاف من شيخوخته (٨)

في بيتٍ قديم عند أطراف المدينة، بيتٍ يشبه ذاكرةً رطبة أكثر مما يشبه مكانًا للسكن، جلس حسين قرب النافذة الخشبية يتأمل الغبار وهو يعبر شعاع المغيب ببطءٍ جنائزي.

كان بيت زيد دائمًا يثير فيه شعورًا غامضًا؛ كأن الأرواح التي مرّت من هنا لم تغادر تمامًا، بل بقيت عالقة في الستائر الثقيلة ورائحة القهوة والكتب الصفراء.

في تلك الأمسية، كان رضائي هناك.

جلس في الزاوية المعتادة، نصف غارقٍ في الظل، كأنه رجل خرج لتوّه من صورة قديمة.

كان أكبر من حسين بخمسة عشر عامًا، لكن الفارق الحقيقي لم يكن في العمر، بل في التعب.

رضائي بدا كمن عاش أكثر من حياة داخل جسد واحد؛ رجلٌ أكلته المدن، وخانته الأحلام، ثم عاد من كل ذلك بوجهٍ هادئ يشبه الحكمة أو الاستسلام، ولم يكن حسين يعرف أيهما بالضبط.

منذ سنوات، كان يعتبره نوعًا من "الأخ الأكبر المتأخر"... أو الأب الذي يصل بعد خراب البيت.

أشعل رضائي سيجارة، راقب الدخان وهو يصعد ملتويًا، ثم سأل فجأة:

ـــ كم عمرك الآن يا حسين؟

ضحك حسين بخفة:

ـــ خمس وثلاثون... أو أقل بقليل من الخيبة الكاملة.

ابتسم رضائي دون أن يضحك.

كانت لديه تلك الابتسامة التي لا تمنح الطمأنينة، بل تمنح شعورًا بأن الرجل يعرف شيئًا مرعبًا عن المستقبل.

قال بهدوء:

ـــ الخامسة والثلاثون أخطر من العشرين... لأنك تبدأ فيها بسماع صوت التصدعات الأولى.

سكت قليلًا، ثم مال نحوه:

ـــ هل تعرف ماذا يحدث بعد الأربعين؟

رفع حسين كتفيه:

ـــ يزداد الوزن... يتساقط الشعر... يبدأ الناس بالحديث عن الضغط والسكري والموت المبكر.

هزّ رضائي رأسه ببطء.

ـــ لا..., بعد الأربعين يحدث الانقلاب الحقيقي.

الجسد لا يشيخ فجأة..., الروح هي التي تتعب أولًا.

تكتشف أنك لم تعد تركض نحو الحياة، بل تحاول فقط ألّا تسقط منها.

ثم أضاف وهو يحدّق في فنجانه:

ـــ قبل الأربعين، يظن الإنسان أن الوقت لا نهائي.

بعدها، يبدأ برؤية نهايته في التفاصيل الصغيرة:

في صعود الدرج...

في أسماءٍ ينساها فجأة...

في الوحدة التي تأتي ليلًا دون سبب.

كان صوت المطر بالخارج يزداد.

أما حسين فشعر بشيء ثقيل يستيقظ داخله.

قال رضائي:

— اسمعني جيدًا... أسوأ ما يحمله الرجل إلى شيخوخته ليس المرض... بل الأشياء التي لم يعشها.

رفع حسين حاجبيه:

— تقصد الندم؟

— الندم ليس فكرة... الندم كائن حي.

يأكل الإنسان من الداخل ببطء، ثم يجلس مكان قلبه.

ظلّ حسين صامتًا.

أكمل رضائي، بصوتٍ بدا كأنه اعتراف شخصي أكثر من كونه نصيحة:

— الناس يظنون الفضيلة هي أن تقمع نفسك دائمًا... , لكن الكبت الطويل يتحول إلى عفن روحي.

الرغبات التي لا تُعاش لا تموت...؛ بل تبقى متجمدة داخلك، ثم تعود في الشيخوخة مشوهة ومذلّة.

ثم ضحك فجأة، ضحكة قصيرة متعبة:

— أتدري ما مأساة الشيخوخة يا حسين؟

أن الجسد يتحول إلى مترجمٍ سيئ للرغبات.

تشعر بالجوع ولا تستطيع الأكل.

تشتهي النوم فيطردك الأرق.

تشتاق إلى امرأة، فيقف الجسد بينك وبين خيالك كحارسٍ عجوز خائن.

ابتسم حسين رغم قلقه.

لكن رضائي لم يكن يمزح.

قال وهو يطفئ سيجارته:

ــــ افعل ما تستطيع الآن.

سافر.

أحب.

اخطئ.

اخسر مالك إن لزم الأمر.

جرّب الحياة قبل أن تتحول إلى متحف ذكريات ممنوع اللمس.

ثم اقترب منه أكثر:

ــــ لا تؤجل نفسك يا حسين... , لأن الإنسان حين يؤجل حياته طويلًا، ينتهي به الأمر وهو يعيش بقايا عمرٍ لا يشبهه.

تسللت الكلمات إلى حسين كسمٍّ بطيء.

في تلك الليلة، خرج من بيت زيد وهو يشعر أن العالم اتسع فجأة.

كأن رضائي لم يمنحه نصيحة، بل سلّمه مفتاحًا سريًا للحياة.

وخلال السنوات التالية، عاش حسين بعنف.

سافر كثيرًا، أحب نساءً كثيرات، خسر أموالًا، دخل في صداقات مدمرة، وخرج منها، شرب الحياة حتى الثمالة.

كان يصرف مدخراته كما لو أن المستقبل عملية احتيال اخترعها الخائفون.

كان يريد أن يهزم الندم قبل أن يولد.

لكنه، دون أن يشعر، كان يهرب أيضًا.

يهرب من فكرة الفراغ.

من خوفه القديم أن يصبح رجلًا عاديًا يعيش ثم يموت دون أثر.

وحين بلغ الأربعين، لم يشعر بشيء خارق.

لا أبواب سماوية فُتحت، ولا حكمة هبطت عليه.

فقط تعبٌ خفيف بدأ يسكن المفاصل.

ثم جاءت الخمسون.

وهنا بدأت الفاتورة.

ارتفع الضغط.

ضعف القلب.

صارت الأدوية مصطفة قرب سريره كجنودٍ يحرسون هزيمته اليومية.

وأصبح جسده الذي حمله عبر المغامرات يتصرف نحوه بشيءٍ من الانتقام.

وفي ليلة شتوية قاسية، استيقظ مذعورًا على ضغطٍ حاد في مثانته.

حاول النهوض.

لكن جسده كان أبطأ من الإلحاح.

وقبل أن يصل إلى الحمام، انفلت البول دافئًا ومهينًا فوق ساقيه وملابسه.

تجمد في مكانه.

كانت الإهانة أشد من الألم.

نظر إلى نفسه طويلًا، كأنه يرى للمرة الأولى النهاية الحقيقية للإنسان:

ليس الموت... بل انهيار السيطرة.

جلس على حافة السرير يلهث.

ثم، وسط تلك اللحظة القاسية، عاد صوت رضائي من مكانٍ بعيد داخل ذاكرته:

"بعد الأربعين... لا نعيش كما نشاء، بل كما نستطيع."

ضحك حسين فجأة.

ضحكة صغيرة، مكسورة، لكنها صادقة.

أدرك حينها شيئًا تأخر نصف عمره ليفهمه.

رضائي لم يكن يدعوه إلى التهام الحياة بجنون...

بل كان يحذّره من أن يعيش مؤجلًا.

الحرية لم تكن في الإفراط.

الحريـــة الحقيقيـــة أن تصـــل إلـــى الشـــيخوخة دون شـــعورٍ بـــأن حياتـــك سُـــرقت منك.

نهض ببطء، غيّر ملابسه، ثم جلس قرب النافذة.

كان الفجر يتكوّن فوق المدينة مثل فكرةٍ جديدة.

وللمرة الأولى منذ سنوات، لم يشعر بالخوف من شيخوخته.

لقد خسر جسده تدريجيًا... نعم.

لكنّه لم يخسر حياته.

وفـــي ذلـــك الصـــباح البـــارد، فهـــم أخيـــرًا أن العمـــر لـــيس عـــدد الســـنوات التـــي نعبرها...

بـــل عـــدد المـــرات التـــي عشـــنا فيهـــا بصـــدق، قبـــل أن يتحـــول كـــل شـــيء إلـــى ذكرى.

مدينة الدخان.. ومزرعة المعنى (٩)

١- جحيم الرتابة

كانـــت الأيـــام تمـــر فـــوق رأس فاضـــل كقطـــار صـــدئ لا يتوقـــف، يحمـــل فـــي عرباتـــه نفـــس الوجـــوه، نفـــس الغبـــار، نفـــس الحـــر الـــذي يوشـــك أن يغلـــي عروقـــه .

فـــي إحـــدى مـــدن العـــراق الوســـطى القريبـــة مـــن الجنـــوب ؛مدينـــةٍ يشـــبه صـــيفها فرنًـــا مفتوحًـــا علـــى مـــدار العـــام , شمســـها لا تعـــرف الحيـــاء، والهـــواء فيهـــا ثقيـــلٌ كأنـــه يحمـــل تاريخًـــا طـــويلًا مـــن الغبـــار والتعـــب ؛ ولـــد فاضـــل فـــي مدينـــة كـــان مناخهـــا صـــحراويا حـــارا، جافـــا، مشمســـا، وقليـــل الأمطـــار علـــى مـــدار العـــام...

؛ وكــأن الســماء هنــاك نســيت أن للفصــول وجوهًــا مختلفــة، فبقيــت معلقــة فـــي صيف أبدي لا يرحم .

كانــت المدينــة التــي يعــيش فيهــا فاضــل تشــبه قــدرًا كبيــرًا تُغلــي فيــه الشــمس البشــر بــبطء ... ؛ســماءٌ بيضــاء مــن شــدة الضــوء، وشــوارع يغطيهــا غبــارٌ قــديم كــأن الأرض تحــاول أن تخفــي تعبهــا تحــت طبقــة مــن التــراب. الهــواء نفســه بــدا أحيانًــا كأنــه مــريض؛ يتــنفس بصــعوبة ويُعــدي صــدور النــاس بضــيقٍ يشــبه ضــيق الأيــام ... ؛كــان فاضــل واحــدًا مــن أولئــك الــذين ولــدوا فــي مــدنٍ لا تتغيــر... ؛ الأيــام فيهــا تتشــابه كمــا تتشــابه النوافــذ فــي بنايــةٍ حكوميــة قديمــة، والسنون تمرّ ببطءٍ كأن الزمن يجرّ قدميه فوق الإسفلت الساخن... .

نشأ فاضل بين رتابتين متوازيتين :

رتابــة الحيــاة الاجتماعيــة والاقتصــادية والعلاقــات المتشــابكة، ورتابــة المنــاخ القاســي الــذي لا يتغيــر... ؛ اذ كانــت الأيــام تتشــابه حتــى صــار الــزمن نفســه نسخة مكررة من ذاته ...

نعــم , تســللت الرتابــة إلــى عظــام فاضــل كــالمرض المــزمن: رتابــة الحيــاة الاجتماعيــة بعلاقاتهــا المتكــررة، ورتابــة الاقتصــاد بضــنكه الأبــدي، ورتابــة العلاقــات العامــة التــي لا تفضــي إلــى عمــق، ورتابــة المنــاخ القاســي الــذي لا يتغيــر. كــان يعــيش فـــي صــحراء مزدوجــة: صــحراء الطبيعــة وصــحراء الروح .

لكــن ذاكــرة فاضــل كانــت تقــاوم هــذا الجمــود ... ؛كــان يتــذكر عقــد الثمانينيــات مــن القــرن المنصــرم ، حــين كــان الليــل أبــرد، والنســيم أرقّ، والســماء أكثــر رأفــة بالبشــر... ؛ كــان أهلــه يضــعون الرقــي والبطــيخ فــوق الســطوح ليبــردا وحــدهما، ويتركــون المــاء فــي الحِــبّ الطينــي فيصــير بــاردًا دون كهربــاء أو أجهــزة... ؛ وكــان النــاس ينــامون علــى الأســطح تحــت النجــوم , ويتحــدثون مــع القمــر ؛ يكتفــون بنســيم الليــل بــدل المكيفــات... ؛ لكــن تلــك الايــام ذهبــت مــن غيــر رجعــة ... ؛ الان صــار الهــواء ثقــيلاً، كــأن المدينــة ترتــدي معطفًــا من الدخان ... ؛ كان العالم أقل تعقيدًا... وربما أقل اختناقًا .

جسـده نفسـه صـار مـرآةً لبيئتـه الملوثـة , اذ لـم يحتمـل هـذه الحيـاة ... ؛عـانى فاضـل طـويلاً مـن الأجـواء المناخيـة المسـمومة... , اختنـق، مـرض، وتحسـس... ؛ كـان يتحسـس مـن كـل شـيء: حساسـية فـي الأنـف والـرئتين والـدم والجلـد والعـين... ؛ باختصـار، كـان يتحسـس مـن كـل مـا هـو ملـوث، سـام، كيميـاوي، وغيـر طبيعـي... ؛ كـان جسـده يرتجـف كإنـذار مبكـر لكارثـة بيئية آتية، لكن أحداً لم يكن يصغي .

نعـم , كـان يعـاني مـن حساسـيةٍ تشـبه احتجاجًـا بيولوجيًـا ضـد العـالم... ؛ أنفـه يـرفض الغبـار، ورئتـاه تعترضـان علـى الـدخان، وجلـده يحـتج علـى السـموم، وعينـاه تـدمعان مـن تعـب الهـواء ... ؛ كـأن جسـده يعلـن عصـيانًا صـامتًا علـى البيئة التي يعيش فيها .

ذات يـوم، وبينمـا كانـت شـمس الظهيـرة تضـغط علـى صـدور النـاس، خـرج بعـض شـباب الحـي فـي تظـاهرة احتجاجيـة يطـالبون بالخـدمات وتحسـين الواقـع الصـحي... ؛ لكـنهم أشـعلوا النيـران فـي إطـارات السـيارات الكبيـرة ... ؛فتتقلـع قطـع الأسـفلت مـن الشـوارع العامـة، وتنقطـع طـرق المواصـلات، وتتلـوث البيئـة، وتنتشـر الأمـراض الخطـرة ... ؛ ثـم تكدسـت سـحب سـوداء كثيفـة فـي السـماء... ؛ وبـدأ فاضـل يختنـق ... ؛كـان الـدخان يتسـلل إلـى صـدره كـوحشٍ خفـي... ؛ ومـع كـل نفـسٍ كـان يشـعر أن الهـواء نفسه صار خصمًا له ...

وقـف فاضـل يتأمـل المشـهد المتنـاقض: شـباب يطـالبون بتـوفير الخـدمات وتحسـين الواقـع الصـحي وإنشـاء البنـى التحتيـة، وهـم أنفسـهم يحرقـون إطـارات السـيارات الكبيـرة، فتتقلـع قطـع الاسـفلت مـن الشـوارع العامـة، وتنقطع طرق المواصلات، ويتلوث البيئة، وتنتشر الأمراض الخطرة .

وفـي لحظـةٍ بـين السـعال والـدوار تسـاءل فـي نفسـه :هـل الطريـق إلـى الفضـيلة يمر عبر الرذيلة؟

وهل يبدأ الإصلاح بالخراب؟

وهل المطالبة بتحسين الواقع الصحي تتجانس مع إحراق الممتلكات العامة وإطلاق الروائح السامة وتلويث الهواء ؟

لم يجد جواباً ...!!

بدت له المدينة وكأنها تفكر بمنطقٍ معكوس؛ كأن الناس يريدون إنقاذ الغريق بإلقاء ماء البحر عليه ...!!

٢- ابنه الذي يرث الجرح

كان المشهد كله يبدو له مثل مفارقة كونية :ناس يطالبون بالصحة... وهم يصنعون المرض بأيديهم ... ؛لكن الألم الحقيقي جاء لاحقًا ... ؛ ابنه الصغير على أصيب بعد تلك الحادثة بالربو والتهاب الرئتين، وأصبح مثله يتحسس من تلوث الجو... ؛ ورث الابن مرض الأب، كما يرث أبناء هذا الوطن جراحاته المزمنة... ؛ فما كسر قلبه حقا لم يكن مرضه هو، بل مرض ابنه الصغير ؛ اذ صار صدر الطفل الصغير يصفّر عند كل نفس، كناي حزينٍ يعزف لحن التعب ... ؛ حينها شعر فاضل أن الهواء نفسه صار عدوًا لعائلته ... ؛ وصار يتمنى لو كان باستطاعته استبدال هذا الوطن بآخر ... .

٣-دعوة من الجبل

اتصل به أخوه الأكبر، طالب، وقال له بصوتٍ يحمل شيئًا من الطمأنينة :

يا فاضل، لماذا لا تأتي إلى الشمال؟

هناك قرية جبلية في السليمانية... ؛ و لدي صديق كردي طيب اسمه كاكا عبد القادر، يملك فيها مزرعةً تتوسطها فيلا جميلة..., الهواء هناك نظيف... , كأنه خرج لتوه من رئة الغابة ؛ وقد تحدثت معه عن حالتك أنت وابنك، وقد دعاكم للإقامة أسبوعًا هناك.

صمت فاضل لحظة، وكأن الفكرة تبدو له كحلمٍ بعيد ... ؛كانت الفكرة تشبه نافذة تُفتح فجأة في غرفةٍ خانقة .

وقال :متى نذهب؟

طالب :

غدًا... , إن شئت .

استعد فاضل للسفر كالذي يستعد للحج ... ؛ حزم حقائبه كمن يحزم بقايا روحه ، ملأ سيارته بالبنزين، غير زيت المحرك، ذهب إلى السوق للتسوق... , واشترى مؤونة الطريق... ؛ كان يشعر أنه مسافر إلى جسد آخر غير جسده ... ؛ وكأنه على موعد مع خلاص ما ...

٤-رياح الجنة

في صباح اليوم التالي، انطلقت سيارة فاضل ... ؛ كانت العائلة معه: زوجته مريم، وأطفاله علي وسارة وقيس .... .

مروا ببغداد ثم ديالى فصلاح الدين فكركوك، حتى دخلوا حدود السليمانية بعد خمس ساعات من السفر... ؛ توقفوا خلالها للصلاة، ولتناول الطعام، ولشراء الفاكهة ...

كان الطريق طويلًا، لكنه بدا وكأنه رحلةٌ من زمنٍ إلى زمن ... ؛ كلما ابتعدوا عن الجنوب، خفّ ثقل الهواء ...

على تخوم السليمانية، فتحت الرياح الباردة ذراعيها لاستقبالهم... ؛ كانت النسمة كيد أم حنون تمسح على وجوههم المتعبة... ؛ تنفسوا بعمق، وكأنهم يتنفسون لأول مرة منذ أن خُلقوا... , امتلأت صدورهم بالهواء النقي ، كأنهم خرجوا للتو من وادٍ مليء بالسموم إلى بستانٍ من الأوكسجين!!

قالت مريم وزفرتها كشهقة عاشق : هكذا يكون الهواء ... ؛ كأننا خرجنا من فرنٍ ودخلنا الجنة .

كان السؤال يحمل في طياته خمسة وثلاثين عاماً من الاختناق ...!!

٥- المزرعة : امرأة من ياقوت

وصلوا إلى المزرعة بعد أن دلهم برنامج الخرائط في جهاز الموبايل... ؛ وجدوا مفتاح البوابة الرئيسية كما قال كاكا عبد القادر، فوق إحدى دعامات البوابة الخارجية... ؛ فتحوا البوابة، وإذا بالمزرعة تستقبلهم استقبال الجنة لأهلها ...

دهشوا للمناظر: أرضية معبدة بالحجر والمرمر تؤدي إلى الفيلا عبر سلالم من المرمر الأبيض ؛ المرمر الأبيض كان يلمع كأنه سكر نثرته الجن على الأرض ... ؛ نوافذ من الزجاج المضلل الجميل تغطي غرف الفيلا ذات الطابقين، أعمدة إنارة حديثة تصطف على جانبي الطريق كأنها حرس ملكي مهيب ... .

أما الأشجار الباسقة فكانت قصة أخرى... ؛ خمسة دوانم من الجنة الموزعة بدقة: عند المدخل تصطف أشجار الرمان و تقف كجنودٍ يحملون قناديل حمراء ... ؛ والحمضيات التي تنبعث منها روائح الأزهار العطرة ؛ تعطر الهواء كبخور في محراب : البرتقال، الليمون، النارنج، اللنكي، والسندي... ؛ ثم الأكواخ الخشبية التي تظلل كراج السيارات وفناء الفيلا الأمامي، حيث العنب الذي يتسلق الأخشاب كرياضي يتباهى بعضلاته وهو يصعد الجبال بزهو، ثم تتدلى عناقيده الناضجة كمجوهرات سلطانية تضيء للناظر من بعيد .

ثم أشجار التفاح والإجاص، والجوز واللوز، والورود والزهور التي تملأ المزرعة ... ؛ وكأنها أرواح قديمة تحرس المكان ومن فيه ...

دخلوا الفيلا عبر الصالة الكبيرة التي يتوسطها درج كبير مزين بمقابض خشب الصاج الجميل، يؤدي الداخل إلى الطابق العلوي... ,الدرج الرخامي يصعد بهم إلى طابق الأحلام .

من السقف تتدلى ثلاث سلاسل طويلة تحمل ثلاث ثريات كريستال كبيرة، تمنح المكان قدسية مرقد ديني أو فخامة فندق خمسة نجوم ... ؛ أربعة

أبــواب خشــبية تطــل علــى الصـــالة: اثنـــان يؤديـــان إلـــى غـــرف نـــوم كبيـــرة مؤثثـــة بأثـــاث راقٍ و بـــذوقٍ هـــادئ، والثالـــث إلـــى مطـــبخ يلحـــق بـــه فنـــاء صـــغير فيـــه فـــرن لخبـــز الخبـــز وغســـالة ملابـــس ومســـتلزمات منزليـــة اخـــرى ، والرابـــع إلـــى حمامـــات مزينـــة بـــأرقى أنـــواع الكاشـــي والســـيراميك وأحـــواض الاســـتحمام الجميلة .

دخل فاضل وزوجته إلى الغرفة الأولى، ودخل الأولاد إلى الثانية .

٦-حوار في الجنة المؤقتة

جلســت مــريم علــى حافــة الســرير، تنظــر مــن النافــذة إلــى الجبــل البعيــد، ثــم قالــت بصــوت شــجي كأنــه بكــاء قــديم : لمــاذا لــم نخلــق نحــن هنــا... ؛ لمــاذا نحن هناك وهم هنا ؟

أجــاب فاضــل وعينــاه تبحثــان عــن شــيء لا يُــرى: لــو أن الطــرق كانــت ســالكة، والأقـــدار مطاوعـــة ، والأســـباب متيســـرة، لهـــرب الجميـــع مـــن الجميـــع... ؛ حتـــى هـــؤلاء الـــذين تـــراهم فـــي جنـــاتهم، يتمنـــون لـــو يهربـــون إلـــى جنـــة أخـــرى ...

مريم : لكن لماذا يا فاضل ؟!

فاضـــل :الإنســـان يســـتطيع أن ينتقـــل مـــن مدينـــة إلـــى أخـــرى... ومـــن بلـــدٍ إلـــى بلـــد... ؛لكـــن المشـــكلة ليســـت دائمًـــا فـــي المكـــان ... ؛ فالإنســـان يـــا مـــريم لا يهـــرب مـــن المكـــان فقـــط... ؛ قـــد يهـــرب مـــن ذكرياتـــه، مـــن فقـــره، مـــن نظـــام جـــائر، مـــن مـــاضٍ لا يغفـــر، مـــن جريمـــة اقترفهـــا أو عـــار لحـــق بـــه، مـــن روتـــين يقتلـــه بـــبطء... ؛ كـــل إنســـان يحمـــل فـــي جعبتـــه ســـبباً للهـــروب... ؛ نعـــم : لكـــل إنســـان شـــيئًا يريـــد الهـــروب منـــه... ؛ أو شـــيئًا يريـــد الوصـــول إليـــه ... ؛ لا يوجـــد إنســـان علـــى وجـــه الأرض إلا ويتمنـــى الهجـــرة مـــن منطقتـــه فـــي يـــوم مـــن أيـــام حياتـــه ... , و لـــو أتـــاح الله للنـــاس الأقـــدار، وتحكمـــوا بهـــا كمـــا يشـــاؤون ؛لمـــا بقـــي أحـــد فـــي داره وحيـــه ومدرســـته وعملـــه ومنطقتـــه وبلـــده... ؛ لهـــرب الكل من الكل ، ولانهارت الدنيا وانقلبت الأمور رأساً على عقب .

ثـــم أضـــاف بصـــوتٍ هـــادئ : بعضـــهم يهـــرب مـــن الظلـــم، وبعضـــهم مـــن الفقـــر، وبعضـــهم مـــن الماضـــي , وبعضـــهم يبحـــث فقـــط عـــن نفســـه , وبعضـــهم لا يعرف لماذا يمكث ولماذا يرحل ...!!

قاضـــل : ولهـــذا الســـبب تغيـــرت ظـــروف النـــاس وتفاوتـــت معايشـــهم وأحـــوالهم... ؛ لكـــن طالمـــا عـــانى أحـــرار النـــاس مـــن هـــذه المعادلـــة... ؛ بـــل إن بعضـــهم ضـــجر وتـــذمر واعتـــرض علـــى هـــذه الأقـــدار التـــي رفعـــت أناســـاً وخفضـــت آخـــرين، وأســـكنت ناســـاً فـــي قصـــور وآخـــرين فـــي أكـــواخ ... ؛ وفـــي لحظـــة صـــفاء، تـــذكر فاضـــل بيـــت الشـــعر الـــذي يلخـــص مأســـاة الإنســـان مـــع قسمته الضيزى، فأنشد بصوت خافت :

لو كنتُ كالله لي يدٌ في حركة الأفلاك *** لمحوتُ ما للفلك من آثارْ

وخلقتُ عوالم أخرى *** تسيرُ وفق مشيئة الأحرارْ

تأملت مريم كلماته، ثم قالت: "لله في خلقه شؤون.

٧-ضحكة الجنون المقدس

انتهـــى النقـــاش... ؛ راحـــت مـــريم تتفقـــد الأطفـــال فـــي الغرفـــة الثانيـــة، بينمـــا دخـــل فاضـــل إلـــى الحمـــام... ؛ بعـــد خروجـــه، أمـــرهم بالاســـتحمام، ثـــم أعـــد الشاي وأحضر معجنات...

جلســـوا فـــي المســـاء جميعـــاً لأول مـــرة فـــي حيـــاتهم علـــى طاولـــة مســـتديرة مـــن خشـــب الصـــاج الفـــاخر، حولهـــا كراســـي مـــن الخشـــب المطـــرز بـــالألوان الذهبية...

احْتَسَـــوُا الشـــاي حـــول الطاولـــة المســـتديرة، والمزهريـــة الكريســـتالية تتوســـطهم – فيهـــا باقـــة ورد طبيعـــي تفـــوح رائحتهـــا فـــي المكـــان- كشـــاهد علـــى لحظـــة اســـتثنائية... ؛ كـــانوا ينظـــرون إلـــى وجـــوه بعضـــهم ويبتســـمون... ؛ ثـــم بـــدأ الضحك كهمهمة خفيفة، ثم كموج، ثم كعاصفة ...

فجـأة علــي ضــحك ، فتبعــه الجميــع : ضــحكت ســارة وقــيس , ثــم انفجــرت مــريم ضــاحكة , وبعــد لحظــة كــان الجميــع يضــحكون بــلا ســبب ؛ ضــحكوا حتــى كــادت الفــيلا أن تطيــر بهــم ... ؛ ضــحكوا حتــى امــتلأت الصــالة بالقهقهات ... ؛ صار الضحك عدوى تنتقل عبر الأثير.

لــم يعرفــوا لمــاذا يضــحكون... ؛ ربمــا ضــحكوا لأنهــم كــانوا ســعداء حقــاً لأول مــرة، والســعادة الحقيقيــة لا تحتــاج أســباباً ... ؛ ربمــا لأن الضــحك كــان غائبًــا عــن حيــاتهم منــذ زمــن طويــل ... ؛ ربمــا لأن أرواحهــم، مثــل صــدورهم، احتاجـت قلـيلًا مـن الهـواء ... ؛ ربمـا لأن الضـحك كـان سـجينًا فـي صـدورهم منــذ ســنوات ... ؛أو ربمــا لأن الإنســان حــين يقتــرب قلــيلًا مــن الســعادة..., يكتشف أن قلبه لم ينسَ كيف يفرح .

لــم يعرفــوا لمــاذا ضــحكوا بــلا ســبب... ؛ خصوصــاً أن جيــل فاضــل ومــريم كــان جــيلاً مؤمنــاً بمقــولات وأمثــال كانــت أشــبه بدســاتير للحيــاة الاجتماعيــة، منهــا (الضــحك بــلا ســبب مــن قلــة الأدب) لكــنهم ربمــا ضــحكوا علــى تلــك المقولــة الباليــة التــي لاحقــتهم طــوال عمــرهم: "الضــحك بــلا ســبب مــن قلــة الأدب"... ؛ ربمــا ضــحكوا لأنهــم اكتشــفوا أن الضــحك بــلا ســبب هــو أجمــل أنــواع الضــحك... ؛ولعــل هــذه الضــحكات هــي الضــحكات الحقيقيــة الصــادقة البريئــة التــي حرمــوا منهــا بســبب الكبــت والتقيــد بالعــادات والتقاليــد والــرؤى العفنة .

٨- حفلة الشواء اللذيذ

خلــدوا الــى النــوم بــاكرا , ثــم اســتيقظوا فــي اليــوم الثــاني عنــد الواحــدة ظهــرا ... ؛ وبعــد تنــاول الفطــور الــذي عوضــهم عــن وجبــة الغــداء ... ؛ نهضــوا وراحــوا يمشــون فــي المزرعــة، جابوهــا طــولاً وعرضــاً، لــم يتركــوا متــراً إلا وطئــوه بأقــدامهم... ؛ شــاهدوا مســبحاً كبيــراً ممتلئــاً بالمــاء الصــافي الــزلال، وحوله كراسي ومصاطب للجلوس ...

غابــت الشــمس ســريعاً... ؛ أضــاءوا الفــيلا والمزرعــة بالمصــابيح الكهربائيــة، وأخرجــوا الموقــد الحديــدي للشــواء، وأعــدوا الحطــب... ؛ ثــم

قامـت مـريم بإعـداد أسـياخ اللحـم والكفتـة والكبـاب... ؛ عنـدما احتـرق الخشـب، خرجـت منـه رائحـة زكيـة... ؛ ثـم هبـت علـيهم نسـمة شـمالية عذبـة زادت مـن سـعير النـار ومـن لهيـب قلـوبهم العطشـى لمثـل هـذه الأجـواء الجميلـة التـي تشـعرهم بـأن للـدنيا فصـولاً وطقوسـاً مختلفـة ورياحـاً متغيـرة... ؛ فقد سئموا الحر وضوء الشمس الحارق في منطقتهم المنكوبة .

قال علي ببراءة:بابا، هذا اللحم طيب جداً ,كأني آكل اللحم لأول مرة.

أجـاب فاضـل: نعـم يـا بنـي، لأن الحطـب طبيعـي مـن أشـجار الغابـات، واللحـم طـري، والهـواء عليـل... ؛ اعلـم يـا بنـي أن السـعادة تتكـون مـن عـدة أجـزاء، وكـل شـيء جميـل يتكـون مـن عـدة عناصـر... ؛ هنـاك أشـياء لا تـتم إلا باكتمـال جميـع عناصـرها... ؛ مثـل المـاء الـذي جعـل الله منـه كـل شـيء حـي، يتكـون مـن عنصـرين أساسـيين: الهيـدروجين والأوكسـجين... ؛ فلـولا اجتمـاع هـذين العنصـرين، لمـا صـار المـاء عـذباً يمنحـك طعـم الحيـاة... ؛ لكـن النـاس يـا بنـي يعفـون تلـك الحكمـة، ويطلبـون مـن الحيـاة نتـائج مكتملـة بمقدمات ناقصة ...!!

٩- ليلة الرعب الوهمي

فـي الليلـة الثانيـة ذهـب كـل الـى فراشـه , لكـنهم لـم ينـاموا ... ؛ فقـد هبـت ريـاح قوية كأرواح ثائرة ... ؛ و الرعد يضرب السماء، والبرق يشق الظلام.

الابـواب صـرت كـأبواق يـوم القيامـة , الاشـجار تمايلـت كسـكارى , الامطـار انهمـرت فـي شـهر أيـار...,لأول مـرة يشـاهدون المطـر فـي شـهر أيـار؛ وكـأن الزمن أصيب بالجنون ...

انطفـأت الكهربـاء، فصـار الظـلام كثيفـاً كقطيفـة سـوداء... ؛ الاطفـال التصـقوا ببعضـهم...؛ اصـوات الرعـد كانـت كطبـول معركـة همجيـة بدائيـة لاقـوام متوحشـة ... ؛و تحركـت سـتائر النوافـذ ... , وبـدت الفـيلا كأنهـا سفينة في بحرٍ هائج.

خاف الأطفال ... ؛ ولكن فاضل قال لهم وهو يهدئهم :

الإنسان البدائي كان يخاف من هذه الظواهر الطبيعية ويربطها بعالم الاشباح والقوى الخفية ... ؛ لانه لم يفهمها ... ؛ بعضهم عبدها ... ؛ وبعضهم تخيل فيها آلهةً أو شياطين.

ثم نظر إلى النافذة وأضاف:

انتم ايضا , تخافون منها لأنكم لا تفهمونها...؛لكن الخوف الحقيقي ليس من الرعد، بل من بشَر لا يفهم النواميس الكونية والقوانين الطبيعية ... ؛ فالخوف غالبا ما يولد من الجهل لا من الحقيقة .

سأل علي بصوته المتهدج:وهل توجد الجن والشياطين حقاً.؟

أجاب فاضل:البعض يخلقونها في عقولهم ثم يخافون منها... ؛ كما ان البعض يخلقون الأكاذيب والأوهام ثم يستميتون في الدفاع عنها... ؛ فالعبرة يا بني في الإنسان نفسه، فهو وحده القادر على اليقين أو الرفض... ؛ بعض الناس يفسرون سلوكك تفسيراً مقلوباً لأنه ينسجم مع تصوراتهم المسبقة عنك... ؛ فلا تكن مثلهم ... ؛ لا تخلق شياطين ثم تخاف منها .

نعم ,الأطفال ما زال بعضهم يخاف من هذه الظواهر بسبب جهله بحقيقتها، أو إيمانه ببعض الأفكار الماورائية التي تتحدث عن مخلوقات تظهر في الظلام.

صرير الأبواب وأصوات الأشجار شكلت سيمفونية رعب لم يسمعوها من قبل... ؛ دهشوا ... ؛ لم تغمض عيونهم إلا بعد ساعات من المراقبة... ؛ رغم كلام فاضل ..,ثم ناموا تعبا .

نهضوا في الساعة الحادية عشرة صباحاً... ؛ لم يشاهدوا أشعة الشمس القوية التي كانت تنزل عمودياً على رؤوسهم في منطقتهم، لأن المزرعة

كانت بين جبلين يحجبان ضوء الشمس العمودي عنها وعن المزارع القريبة .

أعدت مريم الفطور، وجلسوا على المائدة الجميلة يتحدثون عن الليلة الماضية ...

قالت سارة : الاجواء كانت مخيفة للغاية .

رد قيس : لم تكن كذلك عندما كانت الكهرباء موجودة... ؛ نعم، بعد انطفاء الكهرباء، شكل الظلام مع أصوات الرعد والبرق والرياح تحالفاً مخيفاً.

٩- الشواء الاخير

في الليلة الرابعة، أعدوا الشواء... ؛ اللهب كان يرقص والحطب يئن بأريج عذب؛ ومريم كانت تشوي الكباب ككاهنة تؤدي طقسها الاخير ... .

نظروا إلى بعضهم في صمت... ؛ كانوا يعرفون أن هذه الليلة قد تكون الأخيرة ... ؛ فقد جاء الاتصال من المدينة قبل بضعة ساعات كصاعقة في ليلة صافية :أم فاضل في المستشفى، فقد تعرضت لوعكة صحية.

قضوا أربعة ليالي جميلة مليئة بالسعادة والفرح والبهجة... ؛ انفتحت شهيتهم للطعام، وأصبح بعضهم يناقش بعضاً كأنهم يتعرفون على بعضهم لأول مرة... ؛ غمرتهم الطاقة الإيجابية.

١٠- العودة الى الجحيم

حزموا حقائبهم بسرعة... ؛ والطريق الى المدينة كان أسرع من طريق المجيء ... ؛ كأن السيارة نفسها كانت تعرف أنها عائدة الى السجن ؛ فأسرعت لتنهي فترة الافراج المؤقت .

في الطريق، كان علي يسعل... ؛ الغبار يلاحقهم كقدر لا مفر منه... ؛ نظر فاضل في المرآة، فرأى وجه ابنه الشاحب، وخلفه جبال السليمانية تبتعد كحلم ينتهي سريعا .

قالت سارة بصوتها الطفولي:متى نعود إلى المزرعة يا بابا؟

لم يجب ... ؛ كان يعرف أن العودة قد لا تحدث أبداً... ؛ليس لأن المسافة بعيدة، بل لان الظروف قد لا تساعده على السفر مرة اخرى .

وفي النهاية، نحن جميعاً مسجونون في جغرافيا أقدارنا، حتى لو زرنا الجنة مؤقتاً، سنعود لنستيقظ على رائحة الإطارات المحترقة، وصوت طفل يبحث عن هواء نقي في وطن لا يعرف سوى ريح السموم .

١١- الرجوع الى الرتابة والتلوث البيئي

عاد فاضل إلى حيه القديم، إلى ذكرياته القديمة، إلى روتينه القاتل، إلى أمراضه المزمنة، إلى التلوث والتخلف ... ؛ لكن شيئاً في داخله قد تغير... ؛ تلك الليالي الاربعة تركت في روحه جرحاً جميلاً... ؛جرحاً سيجعله يقاوم أكثر، يحلم أكثر، وربما يوماً ما؛يهرب أكثر .

نام علي تلك الليلة وفي صدره أزيز خفيف، لكن على وجهه ابتسامة لا تفارقه... ؛ كان يحلم بالمزرعة، بالجبل، بالهواء الذي يداعب وجهه كأم لم تنجبه ... ؛وفاضل بقي ساهراً ينظر إلى السقف، يتمنى لو كانت له يد في حركة الأفلاك، فيمحو آثار الفلك ويخلق عوالم أخرى تسير وفق مشيئة الأحرار...

لكنه عاد ليضحك في الظلام، ذلك الضحك المجنون الذي تعلمه هناك، ويهمس لنفسه : الحرية ليست في امتلاك الجنة، بل في زيارتها من حين لآخر... ؛ربما السعادة ليست في الهروب الدائم، بل في جرعة أوكسجين تكفي لتعيش بقية عمرك في وطنك.

وعاد إلى صدره نفس ثقيل، لكن في قلبه نسمة عليلة لا تموت .

ولو مرةً واحدة، أنها موجودة."

مدينةُ الانتظار ..حكايةُ الرجل الذي وُلد في الطابور (١٠)

في مدينةٍ لا تظهر على الخرائط، كان الناس يولدون بأرقامٍ لا بأسماء.

الاسم امتيازٌ مؤجل، مثل الكهرباء، مثل العدالة، مثل الحياة نفسها.

وحين يولد الطفل، يُعلَّق في معصمه شريطٌ معدني يحمل رقماً طويلاً، ثم يُقال لأمه ببرود الموظفين:

— احتفظي به جيداً… سيأتي دوره في "النداء العظيم".

لا أحد يعرف ما هو النداء العظيم بالضبط.

البعض يقول إنه وظيفة حكومية.

البعض يقول إنه بيت.

آخرون يعتقدون أنه جواز سفر.

أما الشيوخ، فكانوا يضحكون بصمت، كأنهم يعرفون السرّ لكنهم تعبوا من شرحه.

الرجل الذي سنسميه مؤقتاً "٧٢١" وُلد في الطابور، كما وُلد أبوه قبله، وكما سيموت ابنه لاحقاً وهو ينتظر شيئاً لا يعرفه.

كانت مدينة الانتظار مبنيةً كأنها ثكنةٌ عسكرية تنكّرت في هيئة وطن.

شوارعها مستقيمة أكثر من اللازم، رمادية أكثر من اللازم، وصامتة بطريقة تثير الشك.

الجدران العالية تحجب الأفق، واللافتات الحكومية تملأ السماء:

"الطاعة استقرار."

"الصبر يصنع المجد."

"المواطن الصالح لا يسأل كثيراً."

في المدرسة، لم يتعلم ٧٢١ كيف يفكر، بل كيف يردد.

كان المعلم، رجلٌ أصلع تفوح منه رائحة تبغ رخيص وخيبة قديمة، يدخل الصف كل صباح ويقول:

— الوطن سفينة... ومن يشكّك بالقائد يثقبها.

ثم يوزّع عليهم دفاتر رديئة الورق، ويطلب منهم كتابة الإنشاء ذاته كل أسبوع:

"لماذا نحن أسعد شعوب الأرض؟"

كان ٧٢١ يكتب مثل الآخرين، لكنه في الليل كان يشعر بشيءٍ معطوب يتحرك داخله، كحيوانٍ محبوس تحت جلده.

كان يرى أمه تخيط ملابس الجيران حتى الفجر كي تشتري الزيت، ويرى أباه يعود من الدائرة الحكومية بعينين مطفأتين، فيسأل نفسه:

إذا كنا سعداء... لماذا يبدو الجميع كأنهم نجوا بالكاد من كارثة؟

كبر الصبي، وكبرت معه المدينة كمرضٍ مزمن.

دخل الجامعة، تلك القلعة الإسمنتية التي تشبه سجناً تعليمياً أكثر من كونها مؤسسة معرفة.

الممرات مليئة بصور رجال ميتين ما زالوا يحكمون الجدران، والقاعات مزدحمة بطلابٍ يحفظون نظريات عن الحرية وهم يخشون الكلام.

هنـــاك تعــرّف إلـــى "١٣"، شـــاب نحيـــل يبيـــع الســـجائر المفـــردة أمـــام الكليـــة كـــي يدفع أجور النقل.

كان المواطن ١٣ يقول دائماً:

ــــ نحن لا ندرس لنعيش... نحن ندرس كي نؤجل الانهيار.

ضـــحك ٧٢١ أول مـــرة ســـمع العبـــارة، ثـــم اكتشـــف لاحقـــاً أنهـــا أدق تعريـــف للجامعة.

كـــانوا يقـــرأون عـــن المـــدن الحديثـــة، عـــن العدالـــة الاجتماعيـــة، عـــن اقتصـــاد الســـوق، عـــن الديمقراطيـــة، عـــن الإنســـان بوصـــفه قيمـــة عليـــا...، ثـــم يخرجـــون من المحاضرة ليتقاتلوا على مقعد في حافلة مهترئة.

وحين تخرّج ٧٢١، سلّموه شهادة مختومة بعناية، كأنها وثيقة مقدسة.

عاد بها إلى البيت منتشياً، وكانت أمه تبكي فرحاً وهي تقبّل الورقة.

لكن أباه، الذي كان يعرف المدينة أكثر، اكتفى بالنظر إليه طويلاً وقال:

ــــ الآن يبدأ الطابور الحقيقي.

في سوق العمل، اكتشف ٧٢١ أن الكفاءة نكتة ثقيلة.

الوظائف تُباع مثل اللحم.

المدير ابن مسؤول.

الموظف ابن حزب.

الحارس ابن طائفة.

أما الغرباء، فعليهم أن يدفعوا أو يركعوا أو يختفوا.

ظـــلّ أشـــهراً يتنقـــل بـــين الـــدوائر، يحمـــل ملفـــه الأزرق كمتســـوّل يحمـــل وعـــاءً فارغاً.

كل مكتب كان يطلب ورقة جديدة، توصية جديدة، ختماً جديداً، أو إذلالاً إضافياً.

وفي إحدى الدوائر، قال له موظف بدين دون أن ينظر في وجهه:

ـــ شهادتك ممتازة... لكن ملفك فقير.

فهم ٧٢١ العبارة فوراً.

الملف الفقير يعني: لا واسطة، لا رشوة، لا اسم عائلة يفتح الأبواب.

بعد عامين، وجد عملاً أخيراً في شركة يملكها رجل لا يعيش في المدينة أصلاً.

كان يعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً مقابل راتب يكفي لأسبوعٍ واحد من الحياة الرديئة.

ومع ذلك، أقنع نفسه أنه محظوظ.

ففي المدن المريضة، يصبح الحد الأدنى من الكرامة نوعاً من الرفاهية.

ثم أحبّ.

أو ظنّ أنه أحب.

كانت "٧" تعمل في مكتبة صغيرة قرب النهر الآسن الذي يشطر المدينة.

امرأة بعينين متعبتين وصوتٍ يبدو كأنه قادم من حياةٍ أفضل.

كانت تسأله دائماً:

ـــ هل تتخيل نفسك عجوزاً هنا؟

ولم يكن يعرف كيف يجيب.

تزوجا رغم كل شيء، كأنهما يرتكبان خطأً جميلاً ضد المنطق.

استأجرا شقة ضيقة بسقف متشقق، وكانا يضعان الأواني تحت نقاط المطر في الشتاء.

في الليلة الأولى بعد الزواج، قالت له ٧وهي تنظر إلى الرطوبة التي تزحف على الجدار:

— هل هذه حياة؟

أجابها بعد صمت طويل:

— لا... لكنها الشيء الوحيد المتاح.

أنجبا طفلين.

ومع الطفلين دخلت المدينة بيتهما بالكامل.

المستشفى يطلب مالاً أكثر من العلاج.

المدرسة تبيع النجاح.

الدوائر تبيع التواقيع.

والأسواق ترفع الأسعار كلما ازداد الفقراء جوعاً.

صار ٧٢١ يركض طوال الوقت.

يركض خلف الإيجار.

خلف الحليب.

خلف الدواء.

خلف الديون.

وفي كل مرة يظن أنه اقترب من النجاة، كانت المدينة تسحب الأرض من تحته بهدوء خبير.

أما زوجته ٧، فقد بدأت تنطفئ تدريجياً.

لم تعد تتحدث كثيراً.

كانت تقضي الليل تحدق في الفراغ بينما الأطفال نائمون، كأنها تسمع انهياراً بعيداً لا يسمعه سواها.

وفي أحد الأيام قالت له:

ـــ نحن لا نعيش... نحن فقط نمنع الكارثة ونهرب من الموت .

في المساء، كان يذهب إلى المقهى ذاته.

المقهى الذي يشبه غرفة انتظار جماعية لوطنٍ يحتضر.

أصدقاؤه هناك:

١٣ الذي صار أصلع قبل الثلاثين.

و٥٥ الذي باع كتبه ليشتري دواء لأمه.

و٢١ الذي يحلم بالهجرة أكثر مما يحلم بالحياة.

كانوا يدخنون بصمت بينما التلفاز يكرر الأخبار نفسها:

الحاكم يبتسم.

المشاريع قادمة.

الأزمة مؤقتة.

الوطن بخير.

وفي كل مرة، كان رواد المقهى يضحكون تلك الضحكة القصيرة التي تشبه السعال.

ثم يعود الصمت.

صمت مدينة تعرف أنها خُدعت طويلاً، لكنها فقدت حتى طاقة الغضب.

وذات ليلة، بينما كانت الكهرباء مقطوعة كعادتها، صعد ٧٢١ إلى سطح البناية.

المدينة تحتَه بدت كوحشٍ ضخم يتغذى على سكانه ببطء.

أضواء القصور تلمع بعيداً، بينما الأحياء الفقيرة تغرق في العتمة والرطوبة والكلاب الضالة.

لأول مرة، فهم الحقيقة كاملة:

النداء العظيم لن يأتي.

لم يكن هناك نداء أصلاً.

كانت مجرد أسطورة اخترعتها المدينة كي يبقى الجميع واقفين في الطابور دون تمرّد.

نظر إلى معصمه.

الشريط المعدني القديم ما زال هناك، باهتاً كذكرى مهملة.

"٧٢١".

رقمٌ لا أكثر.

ضحك فجأة، ضحكة حادة أفزعت حتى نفسه.

ثم بكى.

بكى على أبيه الذي مات منتظراً.

على أمه التي استنزفت عمرها في الخياطة والصبر.

على ٧ التي تحولت إلى ظل امرأة.

على طفليه اللذين ورثا الطابور قبل أن يتعلما الكلام.

وفي تلك اللحظة، أدرك الشيء الأكثر رعباً:

أن المدينة لم تكن سجناً لأن أبوابها مغلقة...

بل لأن سكانها، بعد سنوات طويلة من القهر، نسوا أصلاً أن الأبواب يمكن أن تُفتح.

ما تبقى بين الأصابع... (١١)

كان اللقاء الأول أشبه بحبة رمل دخلت العين عن غير قصد... ؛ لم يخطط أحدٌ منهم لهذا التشابك الغريب... ؛ سالم، بابتسامته الواسعة التي تخفي فراغاً أشبه ببئر مُغلق، جمع بين عليّ ذي النظرة الحادة التي تبحث عن خطيئة تعكس خطيئتها الخاصة، ومحمد الحامل بين ضلوعه طَيْف رجلٍ آخر كان يُريد أن يكونه... ؛ التقوا، فصاروا ثلاثة ظلال تطول وتقصر تحت أضواء خافتة في غُرف لا تذكر وجوه من يمر فيها.

نعم , تَصَادَفَتْ أَرْجُلُهُمْ عَلَى طَرِيقٍ وَعِرٍ، وَسَطَ ضَبَابِ المَدِينَةِ، حَيْثُ جَمَعَتْهُمْ أَصَابِعُ الصُّدْفَةِ الْغَادِرَةِ... ؛ كَانَ سَالِمٌ – ذَلِكَ المَوْظَّفُ الَّذِي تَآكَلَتْ ضَمِائِرُ يَدَيْهِ بِحَبَّاتِ الذَّهَبِ السَّامَّةِ – هُوَ الْخَيطَ الْوَاهِيَ الَّذِي نَسَجَ عَلَى جِسْرِهِ لُغْزَ اللِّقَاءِ بَيْنَ عَلِيٍّ، الشُّرْطِيِّ الْحَانِقِ عَلَى نَفْسِهِ، وَمُحَمَّدٍ،

رَجُـلِ الأَعْمَــالِ الَّــذِي تَخْتَبِــئُ الرِّيَــاحُ فِــي جُيُــوبِ مِعْطَفِــهِ الْبَــاهِي... ؛ اِلْتَقَــوْا عَلَــى مَوَائِــدَ لَحْمُهَــا دُهْنِــيٌّ وَخَمْرُهَــا كَــدِرٌ، وَتَحْــتَ سُــقُوفِ شُــقَقٍ حَمْــرَاءَ تَبْكِــي عَلَــى عَوْرَاتِهَــا... ؛ حَتَّــى أَنَّهُــمْ، فِــي لَيَــالِي السُّــكْرِ الْبَلْهَــاءِ، تَشَــابَكَتْ أَجْسَــادُهُمْ فِي رَقْصَةٍ بَهِيْمِيَّةٍ عَبَثِيَّةٍ، كَالْحَوَّامِ الَّتِي تَلْتَهِمُ بَعْضَهَا فِي أَعْمَاقٍ مُظْلِمَةٍ.

لــم يكــن مــا جمعهــم صــداقة، بــل فراغــا مشــتركا... ؛ والفــراغ، حــين يطــول، يخلق أوهاما تشبه المعنى.

ســالم كــان يــؤمن، فــي قــرارة نفســه، أن العــالم صــفقة خاســرة، وأن النجــاة لا تكــون إلا بالتحايــل... ؛ كـــان يـــرى البشـــر أرقامـــا مؤقتـــة، والضـــمير ترفـــا لا يليــق بمــن يريــد البقــاء... ؛ لــم يكــن شــريرا بــالمعنى التقليــدي، بــل كــان فارغــا، والفراغ أشد فتكًا من الشر.

أمــا علــي، فقــد عــاش عمــره كلــه وهــو يبنــي صــورة لنفســه، صــورة رجــل مســتقيم، منضــبط، يمكــن الوثــوق بــه... ؛ لكنــه لــم ينتبــه إلــى أن الصــورة، حــين تطــول، تتحــول إلــى قيــد... ؛ كــان يخشــى أن يــرى الآخــرون مــا يــراه هــو فــي داخلــه: رغبــة دفينــة فــي الســيطرة، فــي الامــتلاك، فــي أن يكــون مركــز الدائرة لا طرفها.

محمــد لــم يكــن أفضــل منهمــا، لكنــه كــان أكثــر وعيــا... ؛ كــان يــدرك أن الإنســان كــائن مــزدوج: وجــه للعلــن، وآخــر للظــل. غيــر أنــه أخطــأ حــين ظــنّ أن المعرفــة وحــدها تحمــي... ؛ فــالفهم لا يمنــع الســقوط، بــل يجعلــه أكثــر إيلاما.

نعــم ؛ هــم لــم يلتقــوا لأنهــم متشــابهون، بــل لأن الصــدفة تحــب أن تجمــع المتناقضات كما تجمع النار بالماء، علّها تراقب أيّهما سينطفئ أولا.

فــي البــدء، بــدوا كــأنهم ثلاثــة كــؤوس علــى طاولــة واحــدة، تختلــف ســوائلها لكنّهــا تتجــاور... ؛ ضــحك، ســهر، أحاديــث تتكســر علــى حــواف الليــل، وموائــد عــامرة بمــا لــذّ وطــاب، بينمــا كانــت القــيم تُتــرك عنــد البــاب مثــل معاطف قديمة.

غيـــر أن القـــرب يكشـــف مـــا لا تكشـــفه المرايـــا... ؛ فـــالموظف المرتشـــي ســـالم، حـــين يغيـــب عقلـــه، كـــان يظهـــر وجهـــه الآخـــر، وجهـــا خشـــنا يـــدهس الضـــعفاء، ويبـــرر فوضـــاه بأنهـــا سُـــكر، وكـــأن الغيـــاب المؤقـــت للـــوعي يمـــنح رخصـــة لانتهاك كل شيء...!!

وعلـــي، الـــذي بـــدا فـــي البدايـــة نقيّـــا، كـــان يخفـــي فـــي داخلـــه رغبـــة صـــامتة فـــي الامـــتلاك، لا المشـــاركة، وفـــي الســـيطرة لا الرفقـــة , وفـــي الانانيـــة لا فـــي الايثار ...

مـــال محمـــد إلـــى علـــي، لا لأنـــه أفضـــل، بـــل لأنـــه كـــان أكثـــر براعـــة فـــي إخفـــاء عيوبـــه... ؛ غيـــر أن الأنانيـــة لا تصـــبر طـــويلا؛ اذ بـــدأت تتســـرّب مـــن تصـــرفات صـــغيرة، مـــن نظـــرات تحكـــم، ومـــن أوامـــر غيـــر منطوقـــة، حتـــى صـــار الكـــرم مشـــروطا، والصـــداقة انتقائيـــة، والآخـــرون مجـــرّد أدوات فـــي مسرح الذات بالنسبة لعلي ...

جلسوا معا طويلا، يتبادلون الضحك، بينما كانت الأسئلة الكبرى تُؤجَّل:

من نحن حين لا يرانا أحد؟

وهل الأخلاق اختيار أم خوف مقنّع؟

بمرور الوقت، بدأت التشققات تظهر...

سالم صار أكثر فجاجة، كأنه يتحدّى العالم أن يوقفه...

وعلي صار أكثر تضييقا، كأنه يخشى أن يفقد ما يظنه ملكا له...

ومحمـــد، العـــالق بينهمـــا، بـــدأ يشـــعر بـــأن وجـــوده نفســـه مهـــدد، لا جســـديا، بـــل معنويا...

فـــي لحظـــة مـــا، أدرك محمـــد حقيقـــة موجعـــة :أن أســـوأ أنـــواع العلاقـــات هـــي تلـــك التـــي تُبنـــى علـــى إنكـــار الـــذات... ؛ وأن الصـــمت الطويـــل لـــيس حكمـــة دائمـــا، بل تواطؤ مؤجل.

وَلَكِنَّ الْقَلْبَيْنِ – قَلْبَ عَلِيٍّ وَقَلْبَ مُحَمَّدٍ – انْجَذَبَا فِي سِرِّيَّةٍ خَارِجَ إِطَارِ ذَلِكَ الْمُرْجُ الْفَاسِدِ... ؛ كأن شيئاً غريباً نبت بينهما ، كزهرة سامة تنمو في صدع حائط ... ؛ و أَدْرَكَا أَنَّ سَالِمًا بَحَرٌ آسِنٌ، يَقْذِفُ إِلَى شَوَاطِئِهِ بِجِيَفِ الْفُضُولِ وَالْعُنْفِ... ؛ و هَاهُوَ يَنْهَبُ حَقَائِبَ نِسَاءٍ مُهَشَّمَاتٍ، وَهَاهُوَ يُلْقِي بِنَفْسِهِ عَلَى جَسَدِ زَيْدِ الْمُرَاهِقِ الْكَاسِرِ، مُلْبِسًا اغْتِصَابَهُ ثَوْبَ السُّكْرِ وَالتَّبْرِيرِ الْعَفِنِ... ؛ فَارْتَدَّتْ نُفُوسُهُمَا – رُغْمَ أَنْفُسِهِمَا – عَنْ ذَلِكَ الْوَحْلِ، لِتَتَآخَى فِي هَوَامِشِ نَقَائِهَا الْمُزَيَّفِ... .

وجدا في صمت أحدهما إجابةً لصمت الآخر... ؛ وبدأت نظراتهما تتحاشى سالم حين يُحول السكرُ روحَه إلى وحشٍ صارخ. ذات ليلة، بينما كان سالم يُغني بصوتٍ مبحوح، نظر علي إلى محمد وقال بلهجة لم يسمعها منه أحد من قبل: "ألا يُخيفك أننا نغرق معاً؟"... ؛ لم يجب محمد، لكن عينيه قالت: نعم.

وتحوّل الاثنان إلى جُزر منعزلة في محيط سالم العاتي... ؛ في شقة علي البسيطة، حيث صورة لوالدته المتوفاة تُراقبهم من الإطار، كانا يشربان كأس الخمر كما لو كانا يتناولان دواءً للألم... ؛ كان محمد يأتي بفتياتٍ من عالمٍ آخر، يتركن معهما رائحةَ أحلامٍ رخيصة... ؛ وكان عليّ يُعامل كلّ واحدةٍ منهنّ بتلك اللّطافة الحزينة، وكأنه يُريد أن يَطلب الصفحة عن شيءٍ لم تفعلْه.

كَانَ عَلِيٌّ يُقَدِّمُ الطَّعَامَ وَالْخَمْرَ، مُقَابِلَ أَنْ يُمَنِّحَهُ مُحَمَّدٌ فَتَاةً تَأْتِي كَالْهَوَاءِ الْعَبِثِيِّ، تُلْبِسُ جَسَدَهَا لِلرِّجَالِ ثَوْبَ رِضًا مُؤَقَّتًا... ؛ وَلَكِنْ تَحْتَ جِلْدِ هَذِهِ الصَّدَاقَةِ الْجَدِيدَةِ، كَمَنَتْ حَيَّةُ الشَّكِّ... ؛ فَعَلِيٌّ – ذَا الأَصْلِ الْمُحَافِظِ والمتهم بالخبث واللؤم كما هو شائع عرفا – بَدَأَ يَكْشِفُ عَنْ أَنَابِيبِ نَفْسِهِ الْخَفِيَّةِ... ؛ كَانَ يَنْهَرُ الْفَتَاةَ إِذَا مَا أَبْدَتْ لِمُحَمَّدٍ إِشَارَةَ إِعْجَابٍ، مُحَوِّلًا لَذَّةَ الصَّدِيقِ إِلَى مِلْحٍ فِي جُرْحِهِ... ؛ وَسَرْعَانَ مَا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ نَغْمَةً

مُتَكَــرِّرَةً فِــي سِــيمْفُونِيَةِ حَقْــدٍ خَفِــيٍّ... ؛ فَــأَدَارَ مُحَمَّــدٌ رَأْسَــهُ، وَكَــتَمَ السُّــمَّ فِــي قَلْبِهِ، كَمَنْ يُخَبِّئُ جَمْجُمَةً تَحْتَ الْوَسَادَةِ...!!

ثــم جــاءت الرحلــة إلــى بيــروت... ؛ وســافروا اليهــا ســالم بمعيــة علــي , ومحمــد مــع صــديقه الملتــزم دينيــا جاســم ... ؛ هنــاك، تحــت ســماء مختلفــة، حــاول محمــد أن يلعــب دوره كــاملاً: الرجــل المحتــرم بــين أصــدقائه... ؛ لكــن علــي كــان يطلــق النكــات الثقيلــة، كحجــارةٍ فــي بركــة هادئــة، مُحــدثاً دوائــر مــن الريبــة فــي عيــون جاســم المُلتــزم... ؛ فــي تلــك اللحظــة، رأى محمــد انعكــاس صــورته فــي عينــي جاســم: رجــل ضــائع، يرافــق ظــلالاً مــن الشــر ... ؛ وشعر بخجلٍ عميق، كطفلٍ يُقبَض عليه وهو يسرق كرامةً لا مالاً.

نعــم , حــين ســافروا، ظنّــوا أن المســافات تمحــو الأقنعــة، لكــن الغربــة تفعــل العكــس؛ تكثّفهــا... ؛ هنــاك، حيــث كانــت القــيم تُختبــر لا تُعلــن، ســقط علــي فــي فــخ لســانه، وبــدا ســالم كمــا هــو، بينمــا وقــف محمــد فــي المنتصــف، يــدرك فجــأة أنه كان يجلس طويلا على حافة هاوية أخلاقية.

وبعــد العــودة، جفّــت تلــك الجُزيــرة الصــغيرة مــن "الصــداقة"... ؛ وكشــر علــي عــن انيابــه و صــار بــاب الشــقة يُغلــق، والهــاتف يصــمت... ؛ حتــى ســحر صــديقة محمــد ، تلــك الفتــاة التــي كانــت تظهــر وتختفــي كرائحــة زهــر فــي زقــاق مظلــم، تبخــرت مــن حياتــه... ؛ وعنــدما التقاهــا صــدفةً فــي الســوق، بــين أكــوام الخضــار وأصــوات الباعــة، همســت لــه بالحقيقــة: "كــان علــي يخــاف أن تُحبني.. وكان يكره فيك ما يكرهه في نفسه".

نعــم , انهــم عــادوا، لكــنهم لــم يعــودوا كمــا كــانوا... ؛ اذ انقلــب القــرب إلــى نفــور، والــودّ إلــى ضــغينة. علــي، الــذي شــعر بانكشــافه، تحــوّل إلــى خصــم صــامت، يقطــع الخيــوط واحــدة تلــو الأخــرى، ويحــرّك الآخــرين مــن خلــف الستار.

وفــي النهايــة، صــار كــلٌ مــنهم وحيــداً بطريقتــه الخاصــة... ؛ ســالم وراء القضــبان، يحمــل ســجنه فــي عينيــه قبــل أن يحملــه فــي جســده... ؛ و علــيّ فــي فــراش المــرض، يُراقــب ســقف غرفتــه كمــا كــان يُراقــب ســقف غرفتــه

الحمراء ذات ليلة، لكن الضيف الآن هو الشبح الذي هرب منه طويلاً... ؛ ومحمد، يمشي في شوارع المدينة، يحمل في جيبه مفتاح شقة لم يعد يزورها، وفي قلبه ذلك السؤال الذي لن يجد له جواباً: متى بالضبط فقدنا الحق في أن نكون بشراً؟

وتبقى الذكريات كرمادٍ دافئٍ في يديه، يتطاير مع أول نسمة، ولا يتبقى بين الأصابع سوى ذلك الشعور الغامض بأن الحياة مرت من هنا، ولم يمسك أحدٌ منها إلا بما لا يستحق الإمساك.

وهكذا انتهت الحكاية: لا غالب فيها ولا مغلوب ... ؛ فالأقنعة، مهما طال ارتداؤها، لا تمنع الوجه من التعفّن.

يدبر الأمر... (١٢)

كان غسان يعيش كمن يحمل في صدره حجرًا لا يراه أحد.

أيامه تمضي مثقلة بضجيجٍ داخليٍّ لا يهدأ؛ قلقٌ مبهم، التزامات تتكاثر، وديون صغيرة تتسلل إلى روحه أكبر من حجمها الحقيقي.

حتى الأشياء البسيطة فقدت طعمها؛ فنجان الشاي الصباحي، ضحكات الأصدقاء، ضوء الشمس المتسلل من النافذة... ؛ كلها بدت بعيدة عنه، كأنها تخصّ حياة شخصٍ آخر.

لم يكن رجلًا متدينًا بالمعنى الذي يمنح القلب استقرارًا، ولا منكرًا يرفض الإيمان تمامًا.

كان متعبًا فقط... ومترددًا.

يصلي أحيانًا بحماسة العائد من الغرق، ثم ينقطع كأن شيئًا لم يكن.

وحين تضيق به الحياة، كان يرفع رأسه إلى السماء بعينَي تاجرٍ خائف:

يا رب... هذه المرة فقط.

ثم إذا انفرجت أزمة، أو وصل مالٌ لم يكن يتوقعه، أو هدأت عاصفة الأيام قليلًا، امتلأ قلبه بخشوعٍ مؤقت، وأطال السجود كأنه وجد الطريق أخيرًا.

لكن الطريق كان يضيع منه كل مرة.

في مساءٍ بارد، جلس وحيدًا قرب النافذة.

كان ينتظر اتصالًا من صديقٍ وعده بعملٍ مؤقت يخرجه من ضائقته الأخيرة.

وضع الهاتف أمامه على الطاولة، وظل يحدق بالشاشة كل بضع دقائق.

تمر سيارة في الشارع فيظن أن الوقت تحرك، ثم يعود كل شيء ساكنًا كما كان.

مرّت الساعة الأولى.

ثم الثانية.

وبقي الهاتف صامتًا.

أطفأ الغرفة إلا من ضوءٍ خافتٍ يتدلى فوق رأسه، واستلقى على السرير بملابسه نفسها.

كان يشعر أن التعب لا يأتي من الجسد، بل من شيءٍ أعمق... شيءٍ يشبه الاستنزاف البطيء.

قبل أن ينام، خطر في ذهنه سؤال عابر:

كم مرة علّقت نجاتي على البشر؟

وحين استيقظ صباحًا، كان الصمت لا يزال في مكانه.

الجدران نفسها، الهواء الثقيل نفسه، والهاتف ممددًا على الطاولة كشيءٍ بلا معنى.

نهض بتثاقل، ومدّ يده إلى المذياع القديم المركون قرب السرير.

انبعث صوت محمد صديق المنشاوي رخيمًا، هادئًا، كأنه يخرج من مكان بعيد داخل الروح:

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَيُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

بقي واقفًا دون حركة.

شيءٌ ما انكسر داخله... أو ربما انكشف.

لم تكن الآية جديدة عليه، لكنه شعر هذه المرة أنها لا تُتلى فحسب، بل تزيح غبارًا تراكم طويلًا فوق قلبه.

راح يتذكر، ببطء، تلك اللحظات التي ظن فيها أن حياته انتهت:

يوم خسر عمله ثم جاءه رزقٌ من بابٍ لم يخطر له.

ويوم مرضت أمه وتعافَت بعد خوفٍ طويل.

وأيامًا كثيرة أُغلقت فيها الطرق أمامه، ثم ظهرت فجأة منافذ صغيرة لم يكن يراها وسط هلعه.

جلس على حافة السرير.

نظر إلى الهاتف الصامت، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة لأول مرة منذ أيام.

أدرك فجأة كم كان يعيش مذعورًا من فكرة أنه تُرك وحده في هذا العالم.

وكم كان يحاول أن يطمئن قلبه عبر الناس، والمال، والوعود المؤجلة.

أما الآن، فقد بدا له كل شيء أكثر هدوءًا... حتى خيبته نفسها.

فتح النافذة قليلًا.

دخل هواء الصباح باردًا ونظيفًا، وتحركت ستائر شباك الغرفة بخفة.

في الخارج، كانت الحياة تسير كعادتها؛ سيارات تعبر، وبائع خبز ينادي من بعيد، وعصافير تحط فوق الأسلاك القديمة.

لم يتغير العالم.

الهاتف لم يرنّ.

ومشكلاته لم تختفِ.

ومع ذلك، شعر أن الثقل الذي كان جاثمًا على صدره قد تراجع قليلًا، كأن يدًا خفية أزاحت عنه جزءًا منه.

أغلق المذياع بهدوء، ثم بقي جالسًا في الصمت.

لكن الصمت هذه المرة لم يكن فارغًا.

وليمة الجوع الذي لا يُشبِع... وسراب الشِّبع الذي لا يرحم (١٣)

لم يكن زيد طفلاً عادياً، أو هكذا بدا منذ اللحظة التي بدأ فيها يراقب الطعام لا بوصفه نعمة، بل بوصفه عبئاً خفيفاً يتخفّى في صورة لذة.

كان يرى في الخبز شيئاً يشبه الطين حين يُغري اليد بالتماسك، ثم يخذلها.. , وفي الأطباق الممتلئة نوعاً من الخداع الهادئ، كأنها وعد لا يُراد له أن يُنجز.

في بيتٍ يفيض بالطعام، تعلّم مبكراً أن الجوع ليس نقصاً، بل فضيلة.. , لم يكن أحد يعلّمه ذلك مباشرة، لكن الكتب التي امتلأت بها رفوف البيت كانت تفعل ذلك نيابة عن الجميع: زهدٌ، تقشف، صوم , تحذير من الجسد كأنه خطيئة مؤجلة.

كان يقرأ كما لو أنه يصوم.

وكلما ازداد قراءةً، ازداد خفةً... وازداد احتقاراً لثقل العالم.

لم يكن يحب الطعام.

بل كان يخشى أن يحبه.

١. الجوع كهوية

في سن مبكرة، صار الصوم عنده أكثر من عبادة.. , صار طريقة لرؤية العالم من أعلى، حيث تبدو الشهوات صغيرة، والناس أسرى بطونهم.

كان الجوع بالنسبة له حالة صفاء، كأن المعدة حين تفرغ، تترك للقلب مساحة كي يتنفس دون ضجيج.

ومع الزمن، لم يعد الصوم فعلاً إرادياً.. , صار طقساً داخلياً دائماً، حتى في غير أيام الامتناع.

كان يعيش كما لو أن جسده ضيف ثقيل على روحه.

٢. الجماعة المغلقة

حين كبر، وجد نفسه يقترب من جماعة متدينة، كانت تشبهه في شيء غامض:

اليقين الذي لا يطرح أسئلة.

وجوههم كانت هادئة إلى حد القسوة، كأنها فقدت علاقتها بالمفاجأة.. , يعيشون على الحافة بين الزهد والجمود، بين الطمأنينة والانغلاق.

شعر بينهم بشيء يشبه الانتماء، لكنه لم يكن انتماءً كاملاً.

كان أقرب إلى غرفة مغلقة، فيها هواء كافٍ للبقاء، لا للحياة.

٣. المرأة التي أربكت الجوع

ثم ظهرت المرأة.

لم تكن تشبه أفكار زيد عن العالم.

كانت تشبه العكس تماماً.

كانت تطهو كما لو أنها تعيد خلق الحياة من البداية، كأن النار في يديها لا تحرق، بل تُهذّب المادة لتصبح أكثر إنسانية.

رائحة طعامها لم تكن دعوة للأكل، بل استفزازاً هادئاً للذاكرة.

تزوجها دون أن يفهم كيف حدث ذلك.

وكأن الجسد قرر نيابة عنه.

لكن المفارقة كانت أن الطعام في بيتها لم يلغِ جوعه القديم.

بل جعله أكثر غموضاً.

كان يأكل... ثم يشعر أنه لم يأكل شيئاً.

كأن الجوع لم يعد في المعدة، بل في مكان آخر لا يُسمّى.

٤. زمن الحصار

في سنوات الحصار، كان العالم خارج البيت ينهار ببطء، بينما داخل البيت يستمر الطعام بشكل شبه طبيعي.

لكن زيد كان يعيش انفصاله الخاص عن الاثنين.

الناس خارجاً يقاتلون من أجل لقمة.

وهو يقاتل ضد اللقمة نفسها.

كان يرى في الطعام امتحاناً أخلاقياً لا علاقة له بالجوع.

وحين كان الآخرون ينجون بالخبز، كان هو يحاول النجاة من الخبز.

٥. الخبز الأسمر

في زيارة عابرة لأحد الأقارب، قُدّم له خبز أسود قاسٍ، كأنه خرج من ذاكرة الأرض لا من يد الإنسان.

أكله ببطء شديد، وكأن كل لقمة تحتاج إذناً من روحه.

لم يشعر بالشبع.

بل بشيء يشبه الانكشاف.

كأن الجوع لأول مرة لم يعد فكرة، بل جسداً آخر يجاوره في الداخل.

٦. السجن: الجوع الحقيقي

لم يكن مستعداً لما حدث لاحقاً.

داهمته السلطة فجأة، بلا تفسير واضح، بلا منطق يمكن الإمساك به.

كأن العالم انزلق من تحت قدميه دون مقدمات.

في السجن، تغيّر كل شيء.

لم يعد الجوع فكرة روحية.

صار مادة صلبة، لها صوت.

كان الخبز هناك يشبه العقوبة.

والطعام لا يُشبع، بل يُبقي الحياة في حدها الأدنى، كمن يُبقي النار مشتعلة فقط كي لا يموت البرد.

هناك، فهم لأول مرة أن الجوع ليس فضيلة.

بل تجربة عارية من أي معنى.

٧. الخروج الملتبس

خرج بعد شهرين.

لم يكن منتصراً، ولا مهزوماً.

خرج كمن فقد تعريفه القديم للأشياء.

البيت نفسه، الزوجة نفسها، رائحة الطعام نفسها... لكن شيئاً لم يعد كما كان.

بدأ يشعر بشيء جديد:

رغبة خجولة في الأكل، لا تشبه الزهد ولا الشهوة.

لكن الجسد كان قد تعلّم لغة أخرى.

لغة الألم.

٨. المرض

القولون العصبي لم يكن مرضاً فقط.

كان تعبيراً متأخراً عن كل ما لم يُهضم: الأفكار، الجوع، الخوف، الصمت الطويل.

صار الطعام عدواً صغيراً يدخل بهدوء ثم يتحول إلى معركة داخلية.

كل لقمة كانت احتمال أزمة.

وكل وجبة كانت مقامرة مع الجسد.

كان يعيش بين رغبتين لا تلتقيان:

أن يأكل كي يعيش... وأن يمتنع كي لا يتألم.

٩. التمرد الأخير

في ليلة ثقيلة، قرر أن يوقف هذا التوازن المستحيل.

دخل مطعماً، طلب أكثر مما يحتمل جسده، وأكل كما لو أنه يحاول تعويض عمر كامل من الامتناع.

لم يكن يأكل الطعام.

كان يأكل فكرة الطعام.

وحين عاد إلى البيت، كان الجسد قد بدأ يعلن رفضه النهائي.

الألم لم يكن عرضاً.

كان حكماً.

١٠. النهاية

في المستشفى، وسط أصوات المرضى ووجوههم التي تشبه الانتظار الطويل، بدأ زيد يفقد خفته الأخيرة.

لم يعد هناك فرق بين الجوع والشبع.

كلاهما أصبح طريقاً واحداً نحو الانطفاء.

وحين توقفت الأشياء داخله، لم يشعر أنه يموت.

بل أنه يصل أخيراً إلى حالة لا تحتاج تعريفاً.

لا جوع فيها.

ولا شبع.

ولا سؤال.

خاتمة

مات زيد كما عاش:

بين معنى لا يكتمل، وجسد لا يهدأ.

كأن حياته كلها كانت محاولة لفهم الطعام،

لكن الطعام كان مجرد ذريعة لفهم شيء آخر... لم يكتمل اسمه أبداً.

وفي اللحظة الأخيرة، ربما — فقط ربما —

لم يكن الجسد هو الذي يغادر...

بل الفكرة التي كانت تسكنه منذ البداية.

علاقة غريبة الاطوار (١٤)

في الليلة الأربعين، أدركتُ أخيرًا أنني لم أكن أطارده...؛ بل كنت أهرب منه.

كان المطر يهطل على المدينة مثل اعترافٍ متأخر، والرصيف اللامع تحت أقدامي يشبه مرآةً مكسورة تعكس وجهي بأعمارٍ مختلفة.

وقفتُ عند ضفة النهر أنتظر مكالمته المعتادة؛ تلك المكالمة التي تأتي دائمًا من رقمٍ مجهول، كأن المتصل لا يعيش في هذا العالم بما يكفي ليملك رقمًا ثابتًا أو اسماً حقيقياً.

أربعون ليلة.

ولم أره سوى أربع مرات.

ومع ذلك، كان حضوره يحتل أيامي كلها، كأن الغياب نفسه قد اتخذ هيئة رجل.

في اللقاء الأول، ظهر في مقهى قديم يطل على النهر... ؛ جلس قبالتي بصمتٍ طويل، كأنه يعرفني منذ خرابٍ قديم لا أتذكره.

كان وجهه هادئًا على نحوٍ يثير الريبة، وعيناه تشبهان بحرًا شتويًا؛ جميلاً إلى درجة مرعبة. تحدث قليلاً، لكنه أصاب روحي بدقة قاتل يعرف موضع القلب تمامًا.

قال يومها:

«البعض يدخل حياتنا لكي ينقذنا... , والبعض يدخلها لكي يوقظ الجحيم النائم فينا.»

ثم ابتسم.

ومنذ تلك الابتسامة، لم يعد شيء في داخلي كما كان.

كلما اقترب مني، شعرتُ أنني أقف على حافة هاوية... ؛ وكلما اختفى، تحول العالم إلى غرفة ضيقة بلا نوافذ... ؛ كنت أكرهه لأنني أحتاجه، وأحتاجه لأنني أخشاه.

كان يشبه البحر؛ ذلك الكائن الأزرق الذي يمنحك صفاءً سماويًا، لكنه يخفي في أعماقه مقابر لا تُحصى.

بعد كل لقاء، كان يفتعل خصامًا غامضًا ثم يرحل فجأة، تاركًا روحي معلقة في منتصف الطريق... ؛ كنت أعود إلى البيت كمن نجا من حادثٍ مروّع، لكنني، بدل أن أتعلم النجاة، كنت أشتاق إلى الحادث نفسه.

وفي غيابه، كانت المدينة تتحول إلى متحفٍ لصورته.

أراه في وجوه الغرباء، في ظلّ الأشجار، في النوافذ المبتلة، في أصوات القطارات البعيدة... ؛ حتى الموسيقى التي لم يكن يسمعها صارت تشبهه.

كنت أبحث عنه قرب الأنهار، في الموانئ، بين أسراب الطيور، تحت أشجار النخيل، كأنني أفتش عن إلهٍ منفيٍّ لا عن انسان .

أما الليل... فكان الكارثة.

عند المساء، يبدأ صوته بالظهور داخل رأسي؛ عميقًا، هادئًا، قاسيًا، كأنه قادم من قاع الكون. ثم يرن الهاتف أخيرًا.

رقم مجهول.

دائمًا رقم مجهول.

كنت أرتجف قبل أن أجيب، كما يرتجف المحكوم بالإعدام قبل سماع الحكم الأخير.

وحين يتحدث، أشعر أن الكلمات لا تخرج من فمه بل من جرحٍ مفتوح داخلي.

«هل اشتقتِ إليّ؟»

وكان السؤال وحده كافيًا لكي يبعثرني.

أخبرته مرة:

«أنت تؤذيني.»

فضحك بهدوء، وقال:

«بل أنا أكشفكِ فقط.»

ثم صمت.

كان صمته أكثر فتكًا من الكلام.

وفي اللقاء الرابع، حدث شيء لم أستطع نسيانه أبدًا.

التقينا في فندق مهجور عند أطراف المدينة، قرب البحر... ؛ كانت الريح تعصف بالنوافذ القديمة، والممرات الطويلة تفوح منها رائحة رطوبة

وذكريـــات متعفنـــة... ؛ جلـــس قـــرب النافـــذة، بينمـــا كـــان البحـــر خلفـــه هائجًـــا كوحشٍ أسطوري.

حدّقتُ فيه طويلًا وقلت:

«من أنت؟»

ابتسم تلك الابتسامة التي تشبه الأسرار، ثم قال:

«أنا الانسان الذي يظهر عندما تتعب من الكذب على نفسك.»

شعرتُ بالخوف.

ليس منه... بل من احتمال أن يكون صادقًا.

اقتـــرب منـــي بـــبطء، حتـــى شـــعرتُ بأنفاســـه علـــى وجهـــي... ؛ للحظـــة، تمنيـــت أن ألمســـه، أن أضـــع رأســـي علـــى صـــدره وأبكـــي كطفـــل نجـــى مـــن الحـــرب متأخرا... ؛ لكن شيئًا داخلي كان يصرخ: اهرب.

قال هامسًا:

«أنت لا تحبني ؛ انما تحب النسخة التي تتحول اليها بقربي ... .»

كانت الجملة أشبه بخنجرٍ بارد.

لأول مـــرة، أدركـــتُ أننـــي كلمـــا اقتربـــتُ منـــه، كنـــت أبتعـــد عـــن نفســـي أكثـــر... ؛ وأن هـــذا العشـــق لـــم يكـــن قصـــة حـــب، بـــل رحلـــة ســـقوط بطيئـــة داخـــل أكثـــر مناطق روحي ظلمةً ووحشة.

سألته:

«ولماذا تعود إليّ دائمًا؟»

نظر إلى البحر طويلًا، ثم قال بصوتٍ مبحوح:

«لأنني مثلكِ تمامًا... لا أستطيع النجاة مما يؤذيني.»

في تلك اللحظة، شعرتُ أننا لسنا عالقين ، بل ناجيين من خرابٍ واحد... ؛ روحين متعبتين تحاول كل منهما الاحتماء بالأخرى، بينما كلتاهما تحمل النار ذاتها.

ثم حدث الأمر الأكثر غرابة.

نهض فجأة، ارتدى معطفه الأسود، واتجه نحو الباب.

قلت بارتباك:

«إلى أين تذهب؟»

توقف قليلًا دون أن يلتفت، وقال:

«إلى المكان الذي جئتُ منه... داخلكِ.»

وخرج.

ركضت خلفه مذعورا، فتحت الباب، فتشت الممرات، ناديت اسمه...

لكن الفندق كان فارغًا تمامًا.

لا أحد.

فقط صوت البحر.

ومنذ تلك الليلة، لم يتصل مجددًا.

ومع ذلك، أحيانًا، عندما أقف قرب النهر ليلًا، وأرى انعكاسي المرتعش فوق الماء، أشعر أنني لم أفقده حقًا.

بل فقدت النسخة القديمة مني.

أما هو...

فما زال يعيش في مكانٍ ما بين الخوف والرغبة، بين الحب والهلاك، داخل تلك المنطقة المعتمة من الروح... حيث تتحول النجاة نفسها إلى نوعٍ آخر من الغرق.

عندما نزل الملاك على سطح البيت (١٥)

في ليالٍ عراقيةٍ لا تعترف بالرحمة، كان الشتاء أشبه بسلطةٍ أخرى تُضاف إلى سلطات القهر؛ بردٌ لا يكتفي بتجميد الجسد، بل يتسلّل إلى المعنى ذاته، فيحوّل الحياة إلى احتمالٍ ثقيل. انطفأت الكهرباء كعادتها، وكأن المدينة مُدانةٌ بالعيش في العتمة أكثر مما هي مُدانةٌ بالنجاة منها.

بغداد في تلك اللحظة لم تكن مدينة؛ كانت جسدًا مفتوحًا على نزيفٍ قديم، شرايينه أزقة ضيقة ، وذاكرته دخان ورماد .

السماء منخفضة حدّ الاختناق، سقفٌ من رصاصٍ رمادي، لا يترك للروح منفذًا إلا إلى الداخل... ؛ ومن الداخل يبدأ كل شيء: الخوف، والأسئلة، والنجاة التي تشبه الخيانة أحيانًا.

منذ سنوات الحصار والحروب، لم يعد الزمن في العراق زمنًا مستقيمًا؛ صار دائرة من الرماد... ؛ حربٌ تلتهم أبناءها، وانسحابٌ من الكويت تحوّل إلى طريقٍ للموت، كأن الأرض نفسها قررت أن تُصفّي حسابها مع من يمشون فوقها...؛ ثم جاءت الانتفاضة عام ١٩٩١ ، لا كحلمٍ بالحرية، بل كصرخةٍ خرجت من صدرٍ مُثقلٍ بالاختناق... ؛ لكنها ارتطمت بجدارٍ لا يسمع، فعادت إلى أصحابها محمّلةً بالدم والدمع والقيح .

وفي تلك السنوات، امتلأت البلاد بما لا يُرى في الخرائط: مقابر جماعية، وسجون تتكلم بلغة الصراخ، وأمهات يعدّدن أبناءهن كما يُعدّ الغائبون في صلاةٍ لا تنتهي.

في هذا الخراب، كان خالد يمشي كمن تعلّم النجاة بالحذر لا بالشجاعة... ؛ شابٌ عرف أن الحياة ليست عادلة، بل قابلةٌ للتأجيل فقط... ؛ وفي ليلةٍ ثقيلة، غادر بغداد نحو واسط، كأنما يهرب من ظلّه لا من المدينة.

هناك، في قضاء بدرة ، لجأ إلى سطح بيت صديقه حميد.. , سطحٌ بسيط، لكنه بدا له كحدٍّ بين عالمين: عالمٍ يطارده، وعالمٍ لم يولد بعد... , فرش بساطًا قديمًا، وأشعل نارًا صغيرة من حطبٍ جمعه بيدين مرتجفتين.. , كانت النار ترتجف بدورها، كأنها تخاف أن تُرى.

كانت النار تتراقص كطفلةٍ شقية، تقاوم الريح، وتبعث في العتمة وهجًا خجولًا يشبه الأمل حين يولد في قلبٍ منكسر.

أصدقاؤه—سعد وحيدر وكريم—تفرّقوا بين سجنٍ ومصير مجهول، وقيل إنهم ذاقوا في الرضوانية من ألوان العذاب ما تعجز اللغة عن حمله... ؛ أمّا صديقه محمد، فقد عبر الأهوار هاربًا نحو إيران، تاركًا خالد بين سؤالين: النجاة بأي ثمن؟ أم البقاء ولو كان الثمن الروح؟

قال حميد وهو ينفث أنفاسه في البرد:

— "هل يمكن للإنسان أن ينجو دون أن يخسر نفسه؟"

لم يجب خالد.. , كان ينظر إلى النار كأنها كائنٌ يفكّر بدلًا عنه.

في داخله سؤالٌ آخر كان أكثر قسوة:

هل البقاء بطولة... ؛ أم شكلٌ مؤجل من الانكسار؟

نزل حميد الى غرفته , واصر خالد على البقاء في السطح .

فجأة، حدث ما لا تُفسّره اللغة.

انشقّ الهواء فوق السطح، لا كصوتٍ ولا كضوءٍ مألوف، بل كتحوّلٍ في طبيعة الوجود ذاته... ؛ وكأن السماء فقدت توازنها للحظة، فسقط منها شيءٌ ليس جرمًا ولا جسدًا، بل معنى.

هبط النور.

لم يكن سقوطًا، بل نزولًا هادئًا، كأن الفجر قرر أن يلمس الأرض بيده... , تجمّد الهواء، وخفتت النار كأنها تحترم الحضور.. , وعلى "البيتونة" وقف كائنٌ لا يشبه البشر إلا في الشكل الظاهري، أما حضوره فكان خارج القياس.

طويل، مهيب، مكوّن من صفاءٍ يكاد يؤلم العين.. , بشرته كأنها صُنعت من ضوءٍ مُصفّى، وشعره امتدادٌ لجدائل من نورٍ لا يعرف التلوث.. , عيناه ليستا للنظر، بل للفهم.

ارتجف خالد.. , لم يكن خوفًا، بل انكشافًا داخليًا مفاجئًا، كأن روحه رأت نفسها بلا أقنعة.

قال الكائن، وصوته لم يُسمع بالأذن، بل سكن في العظم:

— "لا سلطان يدوم... إلا سلطان من لا يزول.

كل من قام على سببٍ سقط بسبب.

وحده مُسبّب الأسباب لا يسقط، لأنه ليس جزءًا من اللعبة."

صمت لحظة، ثم أضاف:

— "لا تحمل قلبك أكثر مما يحتمل.

الذين يخيفونك اليوم، سيصبحون غدًا خبرًا في ذاكرة الغبار.

ارجع، وامشِ في طريقك كأنك تُؤتمن على الحياة لا تُدان بها."

لــم يكــن خطابًــا، بــل تفكيكًــا داخليًــا لكــل مــا تــراكم فــي روح خالــد مــن خــوفٍ طويل.

سأله خالد بصوتٍ مكسور:

— "ومن يضمن أنني لستُ مجرد رقم في هذا الخراب؟"

أجابه الكائن:

— "من لا يُرى في حساب الطغاة، يُرى في ميزانٍ آخر."

ثــم ارتفــع بــبطء، لا كصــعود، بــل كعــودةٍ إلــى أصــلٍ غيــر مرئــي.. , وبقــي فــي الهـــواء أثـــرٌ يشـــبه الرائحـــة التـــي لا تُشـــبه الأرض: مـــزيج مـــن الطمأنينـــة والغياب، كأن الجنة مرّت من هناك ثم اعتذرت عن البقاء.

مرّت السنوات.

ســـقط النظـــام، وتبـــدّلت الوجـــوه، وارتفعـــت شـــعاراتٌ جديـــدة فـــوق أنقـــاض الشــعارات القديمــة.. , لكــن الخــراب، كمــا لــو أنــه فكــرة، لــم يتغيــر؛ فقــط غيّــر لغته.

خالد نجا.

لكــن الغريــب أنــه نجــا دون أن يحــتفظ بالقصــة كاملــة.. , كــأن الــذاكرة قــررت أن تحميــه منـــه، فخفّفـــت حـــدّة النـــور فـــي داخلـــه.. , انشـــغل بالحيـــاة: العمـــل، السياسة، الجدل، الخوف الجديد الذي لبس قناعًا مختلفًا.

ومع ذلك...

لم ينطفئ كل شيء.

كــان هنــاك دائمًــا شــيء صــغير فــي داخلــه، لا يُــرى، لكنــه يعمــل كنــبضٍ خفــيّ.. , كلمــا اشــتد عليــه الواقــع، شــعر بنســمةٍ تمــرّ فــي صــدره كــذكرى بــلا اســم.. , وكلما رأى ظلمًا جديدًا، سمع في داخله صدى جملةٍ قديمة:

"كل سلطانٍ إلى زوال..."

لم يتذكر الملاك بوضوح.. , لكنه لم ينسه تمامًا.

لأن بعض التجارب لا تتحول إلى ذاكرة... بل إلى طبقةٍ ثانية من الروح.

ربما كانت الذاكرة أعمق من الوعي، وأصدق من السرد... ؛ وربما كان الملاك وعده بلقاءٍ آخر في عالمٍ لا تُثقل فيه الأرواح بخرائط الطغاة ولا بحدود الدول...

وهكذا ظلّ خالد يمشي في الحياة كأيّ إنسانٍ عادي، لكنه في سرّه الذي لا يعلمه إلا الله كان يحمل ليلةً نزل فيها النور على سطح بيتٍ صغير، ليقول لقلبٍ مرتجف:

إن الظلام، مهما طال، ليس إلا استراحةً قصيرةً قبل أن يتكلم الفجر.

عندما يسرق الفراغُ قلبًا (١٦)

في مدينةٍ لا تُمسك من ملامحها سوى الضجيج، كان حسّان يعيش كأنّه تفصيلٌ زائد في لوحةٍ مكتملة بالازدحام... , شوارعها تمتلئ بالخطى، بالمقاهي، بالوجوه التي تلمع ثم تنطفئ، لكنّها في داخله كانت مدينة بلا قلب...؛ مدينة تُتقن الضحك دون أن تعرف لماذا، وتُجيد المرور بجانب الإنسان دون أن تراه أو تشعر به .

كان يمشي، لا لأنّه يريد الوصول، بل لأنّ التوقف يفضح ما فيه من فراغ... , كأن جسده موظفٌ يعمل في حياةٍ لا تخصّه، بينما روحه في إجازةٍ طويلة لا عودة منها.

لم يكن فقيرًا، ولا معزولًا اجتماعيًا بالمعنى المباشر، لكنه كان مفلسًا في أكثر العملات قسوة: "الحنان".

فـــي داخلـــه غرفـــة قديمـــة بـــلا نوافـــذ... ؛ كلمـــا حـــاول فتحهـــا، ارتـــدّ البـــاب عليـــه كأنـــــه يرفضـــــه... ؛ حتـــــى الـــــذكريات التـــــي كـــــان يُفتـــــرض أن تكـــــون دافئـــــة، صارت باردة كقطع زجاج مكسور.

الحب بالنسبة له لم يكن تجربة، بل شائعة سمعها ولم يعشها قط.

ومـــع الـــزمن، صـــار الصـــمت داخلـــه مدينـــة ثانيـــة.. , مدينـــة تنمـــو وحـــدها، تبتلـــع صـــوتَه حـــين يـــتكلم مـــع نفســـه، وتعيـــده إليـــه مشـــوّهًا، كأنـــه يحـــدّث صـــدًى لا إنسانًا.

فـــي إحـــدى الليـــالي الثقيلـــة، حـــين بـــدا الليـــل أطـــول مـــن عمـــره، جلـــس أمـــام هاتفـــه... ؛ الشاشـــة أضـــاءت وجهـــه كقمـــرٍ صـــناعيّ يفـــتّش عـــن كوكـــب صـــالح للحيـــاة... ؛ لـــم يكـــن يبحـــث عـــن أحـــد بعينـــه، بـــل عـــن أيّ شـــيء يُقنعـــه أنـــه لـــيس وحيدًا إلى هذا الحد.

دخـــل إلـــى العـــالم الأزرق... , ذلـــك البحـــر الـــذي لا مـــاء فيـــه، لكنـــه يبتلـــع الغرقى بكفاءة أعلى من المحيطات.

قال لنفسه:

ربما هناك... ربما خلف هذه الوجوه المعلّقة توجد قلوب حقيقية.

لم يمض وقت طويل حتى ظهر "خالد".

كـــان خالـــد يبـــدو كأنـــه يعـــرف الطريـــق إلـــى الإنســـان الوحيـــد: كلمـــات مرتّبـــة، نبـــرة واثقـــة، دفء محســـوب بدقـــة... , لا يبـــالغ فـــي اللطـــف، ولا يتركـــه ناقصًا... , رجل يبدو كأنه صديق قديم عاد من غياب طويل دون تفسير.

"أنـــت شـــخص مختلـــف يـــا حسّـــان... قليلـــون مـــن يفهمـــون مـــا أقـــرأه فـــي كلماتك."

جملة واحدة كانت كافية لتفتح بابًا ظل مغلقًا سنوات.

لم يكن حسّان ساذجًا بقدر ما كان جائعًا.. , والجوع حين يطول، لا يميّز بين الخبز والوهم.

خالد لم يكن وحده.

في الخلف، كانت هناك خيوط أخرى تُنسج بهدوء.. , امرأة تظهر لاحقًا، تحمل اسمًا آخر، وصوتًا أكثر نعومة.. , لم يكن دخولها مفاجئًا، بل مدروسًا كدخول ممثلة إلى مسرح يعرف متى تبتسم فيه الكاميرا.

كانت تعرف أين تلمس الرجل الوحيد: في فراغه، في خوفه من عدم كونه مرئيًا، في تلك المنطقة الغامضة بين الحاجة والخيبة.

"أشعر أنني أعرفك منذ زمن بعيد..." قالت له.

وهنا تحديدًا، لم يعد حسّان يتحدث مع أشخاص، بل مع تصميمٍ محكم لوهمٍ مزدوج: رجل وامرأة، صوتان، قناعان، شبكة واحدة تُحاك بعناية باردة.

خالد يزرع الثقة.

والمرأة تسقيها بالعاطفة.

خلال أيام قليلة، صار حسّان ينام وهو ينتظر رسالة، ويستيقظ وهو يمد يده للهاتف قبل أن يفتح عينيه بالكامل.. , لم يعد العالم الواقعي مهمًا، لأن عالمه الجديد صار أخفّ وزنًا وأسهل تصديقًا.

ثم جاء الطلب.

كان بسيطًا، إنسانيًا، مشحونًا بالضرورة:

"أنا في ظرف صعب... أحتاج مساعدة مؤقتة... سأعيدها فورًا."

بعـد دقــائق، رســالة أخـرى مــن الصـوت الثــاني، أكثـر ارتباكًــا، أكثـر قربًــا مــن القلب:

"أنت الوحيد الذي أشعر أنني أستطيع طلب هذا منه..."

هنــا لــم يعــد المــال مــالًا، بــل اختبــارًا للصــدق.. , وحسّــان، الــذي لــم يــتعلم يومًــا كيــف يشــكّ، دفــع.. , مــرة، ثــم أخــرى.. , كأنـــه يشــتري اســتمرار الحلــم لا أكثر.

مئة دولار هنا... ؛ مئتان هناك...

ثم صمت.

اختفى خالد كما تختفي الإشارات الضعيفة في العاصفة.

اختفت هي أيضًا، وكأن التطبيق نفسه قام بمسحهما من الوجود.

لكن الغريب لم يكن الاختفاء... ؛ بل ما حدث داخل حسّان.

لم يقل: "لقد خُدعت."

بل قال:

"هل أصابهما شيء؟"

تحــوّل الضــحية إلـــى منقـــذٍ متخيَّـــل.. ؛ صــــار يبحـــث عنهمـــا فـــي الفـــراغ، لا ليســتعيد مالـــه، بـــل ليطمـــئن علـــى وهمـــه.. , كـــان قلبـــه، بـــدل أن ينكســـر، يـــرفض التصديق أن الخديعة كانت كاملة.

صـــار يـــدخل التطبيـــق كـــل يـــوم كمـــا يـــدخل معبـــدًا بـــلا إلـــه.. , يفـــتح المحادثـــة الفارغـــة، كمـــن ينتظـــر صـــوتًا مـــن قبـــرٍ رقمـــي.. , يحـــدّق طـــويلًا فـــي "لا شيء"، لكنه يراه ممتلئًا بالاحتمالات.

في الليل، كان يتخيل أن خالد ربما مريض.

أن المرأة ربما خائفة.

أن هناك سوء فهم، أو خطأ، أو قدرًا قاسيًا.

لم يكن المال هو الضحية الحقيقية.

الضحية كانت فكرة "أنه أخيرًا كان مهمًا لأحد".

وهنا كانت الجريمة الأعمق: لم يسرقوه من حسابه، بل من حاجته للصدق.

في المدينة خارج هاتفه، كان كل شيء يعمل بشكل طبيعي: المقاهي تضحك، العلاقات تُستهلك بسرعة، والجسد يتحول إلى وسيلة عبور.

كانت الدعارة الرقمية تمارس شكلًا جديدًا من الاقتصاد الخفي: ليست بيع الجسد فقط، بل بيع الانتباه، بيع الحنان المصنوع، بيع الوهم الذي يبدو دافئًا بما يكفي ليُصدّق.

و النصب والاحتيال الالكتروني لم يعدا مجرد جريمة، بل صناعة كاملة تتقن هندسة الوحدة البشرية.

حسّان لم يكن حالة فردية.. , كان نموذجًا.

نموذج الإنسان الذي تُرك وحده طويلًا حتى صار مستعدًا أن يدفع مقابل جملة لطيفة.

كل ليلة، قبل أن ينام، كان يسأل نفسه بصوتٍ خافت:

هل كنتُ غبيًا؟

أم أن العالم أصبح ذكيًا أكثر من اللازم؟

ثم يطفئ الشاشة.

لكن الضوء لا ينطفئ داخله.

ففي مكانٍ ما من ذلك الفراغ، كان خالد لا يزال موجودًا... ليس كشخص، بل كفكرة:

أن أحدًا ما قد يحبك فجأة... ثم يختفي فجأة... دون تفسير... ودون رحمة.

وهكذا، لم تُغلق القصة.

بل بقيت مفتوحة على سؤال واحد، ينام معه ويستيقظ عليه:

هل كان الوهم هو ما سرق قلبه...

أم أن قلبه كان فارغًا إلى الحد الذي جعل أي وهم يبدو كحقيقة؟

قصتي مع البلبل القتيل (١٧)

في هذا العالم، لا تأتي الكوارث دفعة واحدة، بل تتسلل كالماء المتسرب من سقف قديم؛ قطرةً قطرة ... ؛ حتى يغدو البيت كله صداً داخلياً.. ؛ مصباح ينطفئ بلا سبب، جهاز يتعطل في لحظة لا معنى لها، خبر سيئ يتسلل في منتصف يوم عادي كطعنٍ صغير لا يُرى... , ثم يتراكم كل شيء حتى يصبح العيش نفسه سؤالاً بلا جواب.

في ذلك الوقت، كانت زوجتي قد بدأت تميل إلى فكرة غريبة، أو هكذا بدت لي.

قالت وهي تراقبني كمن يبحث عن خلاص غير معلن:

ـــ نحتاج بلبلًا.

ضحكتُ، لا سخريةً منها فقط، بل من العالم كله:

ـــ بلبـــل؟ فـــي هـــذا الخـــراب؟ وهـــل صـــار الطـــائر علاجـــاً للمشـــاكل والحـــظ النحس؟!

لكنها لم تضحك.. , كانت جادة بشكل يثير القلق.

قالت بهدوء يشبه يقيناً طارئاً:

ـــ البلبل يطرد العين.. , يخفف الطاقات السلبية.. , يوازن البيت.

قلتُ، وقد بدأتُ أضيق بالفكرة:

ـــ ومـــن أيـــن يـــأتي البلبـــل بكـــل هـــذه المهـــام ؟! هـــل صـــار الطـــائر وســـيطاً بيننـــا وبين الغيب؟!

أجابت، كأنها تردد ما سمعته لا ما اخترعته:

ـــ هنـــاك طاقـــات ســـلبية ...‚ لا تُـــرى.. , تُرســـل مـــن الحاســـدين.. ؛ مثـــل موجات خفية.. ؛ تهاجم الإنسان دون أن يشعر.

صـــمتُّ قلـــيلاً.. ؛ لـــم أقتنـــع، لكننـــي كنـــت أستســـلم تـــدريجياً، لا للفكـــرة، بـــل للإرهـــاق مـــن الجـــدل ذاتـــه.. ؛ فـــي المجتمعـــات المتعبـــة، لا تُهـــزم بـــالحجج، بـــل بالتعب.

وفي النهاية، ذهبت.

ســـوق الطيـــور كـــان عالمـــاً موازيـــاً: أصـــوات متداخلـــة، أقفـــاص متراصـــة، أجنحـــة تصـــطدم بالحديـــد كأنهـــا تحـــاول تـــذكير الســـماء بأنهـــا مـــا زالـــت موجودة.. , وبين هذا الصخب، رأيته.

بلبـــل صـــغير، مضـــطرب الحركـــة، لكنـــه جميـــل علـــى نحـــو يثيـــر حنينـــاً غيـــر مفهـــوم.. ‚كـــان يغنـــي كأنـــه لا يعـــرف لمـــاذا وُضـــع فـــي قفـــص، أو كأنـــه قـــرر أن يتصالح مع القفص بالغناء.

اشـتريته، وأنـا أشـعر أننـي لا أشـتري طـائراً، بـل أوقـع عقـداً صـغيراً مـع شـيء لا أفهمه.

في البيت، بدأت التحولات.

لـم يعـد البلبـل مجـرد طـائر.. , كـان شـيئاً يتجـاوز التعريـف.. , كائنًـا يراقبنـي كمـا أراقبـه.. , صـوتاً يـدخل فـي الفراغـات الصـامتة داخـل اليـوم.. , كأنـه خيط رفيع يربطني بما تبقى من الخفة في العالم.

كانت زوجتي تقول:

ـــ ألم أقل لك؟

لكننـي كنـت أصـمت.. , لأننـي بـدأت ألاحـظ شـيئاً آخـر: أن البيـت تغيّـر فعـلاً، لا بسـبب الطاقـات، بـل بسـبب حضـور حيـاة صـغيرة تـرفض أن تكـون هامشاً.

كنـت أطعـم البلبـل بيـدي.. , يقتـرب دون خـوف.. , ثـم بـدأ ينتظرنـي.. , ثـم بدأ يتعرف عليّ.. , ثم صار يغرد حين أعود.

لـم أعـد أراه طـائراً فقـط، بـل كائنـاً يعيـد ترتيـب داخلـي.. ؛ كـأن صـوته يـوقظ شيئاً فيّ كنت أظنه مات منذ زمن.

حتى بدأتُ أتركه يطير داخل الغرفة.

وكان يعود.

في كل مرة.

وكأن بيننا اتفاقاً غير مكتوب: الحرية المؤقتة مقابل الثقة.

لكن الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تُمنح لتدوم.

في أحد الأيام، جاء ضيوف.. , ضجيج، أطفال، فوضى بريئة.. , باب القفص فُتح بلا قصد.. , لحظة واحدة كانت كافية.

طار.

لم يصرخ أحد.. , إلا داخلي أنا.

خرجتُ من البيت دون وعي.. , ركضتُ في الشارع كمن فقد جزءاً من جسده.. , كنت أسأل الجيران، الأطفال، الهواء نفسه:

ـــ بلبل... هل رأيتم بلبل؟

حتى جاءني طفل:

ـــ رأيته على شجرة سدر... ,في بيت قريب.

ذهبت.

كان البيت غريباً عني، لكنني لم أكن أرى البيوت.. , كنت أرى شيئاً واحداً فقط: احتمال أن أجده.

فتحت فتاة الباب.

لم تكن مجرد فتاة.. , كانت لحظة مربكة بين الجمال والصدفة، بين الواقع والاختبار.. , لم أفكر كثيراً في التفاصيل، لكنني شعرت بشيء يشبه الانزلاق الداخلي: كأن العالم أعاد توزيع معاييره فجأة.

قلت لها مرتبكاً:

ـــ بلبل... سقط هنا؟

أجابت بهدوء:

ـــ نعم , أخذه أخي.

ثم أضافت:

ــــ سأعيده لك.

لكن نظرتها القصيرة كانت كافية لتربك ما تبقى من اتزاني.. , لم تكن نظرة طويلة، لكنها كانت كمن يفتح نافذة صغيرة في جدار مغلق منذ سنوات.

عدتُ مع البلبل.

لكنني لم أعد كما خرجت.

في الأيام التالية، بدأت الحرب الداخلية.

بلبل في الخارج، وصوت آخر في الداخل.. ؛ لم أعد أميز بين فقد الطائر بالأمس وفقد شيء آخر لا اسم له.. ؛ كنت أستيقظ وأنا أفكر بها، وأنام وأنا أفكر بالبلبل، وأضيع بين الاثنين كأنهما وجهان لفقد واحد.

الحب، حين يأتي في لحظة خاطئة، لا يبدو حباً، بل ارتباكاً فلسفياً.

ثم جاءت النهاية.

في صباح عادي، دخلت لأتفقد القفص الخشبي .

كان مكسوراً.

البلبل اختفى , مرة اخرى ..

بحثنا جميعاً.. , ثم وجدناه.

ميتاً.

بجسد صغير بلا حركة، وعينين كأنهما توقفتا عن السؤال.

قالوا: قطة سوداء.

قطة اعتادت قتل الطيور.

لكن السؤال لم يكن "من قتل؟"، بل: لماذا القتل نفسه يبدو أحياناً بلا ضرورة؟ بلا جوع؟ بلا غريزة واضحة؟ كأنه فعل وجودي خالص، لا يحتاج سبباً.

نظرتُ إلى الجثة الصغيرة، وشعرت أن شيئاً في داخلي يُسحب بصمت.

الغضب جاء أولاً.. , ثم الرغبة بالثأر.. , ثم شيء آخر أكثر خطورة: برود غريب، يشبه الفهم.

حملتُ فكرة الانتقام.

لكن في اليوم التالي، علمت أن القطة نفسها ماتت دهسا ..

ملقاة في الشارع.

تمزقها الكلاب.

لم أشعر بالراحة.. , شعرت بالعبثية والسوداوية فقط.

كأن العدالة، إن وُجدت، لا تأتي لتُرضي أحداً، بل لتقول: لا أحد يفهم اللعبة بالكامل.

ذهبتُ لأخبرها.

لكن الشارع كان مختلفاً.

موسيقى، زينة، ضحكات، سيارات.

قالوا:

— عرس ميسون.

الفتاة التي أحببتها عن بعد ..

وقفتُ لحظة.

ثم فهمت شيئاً بسيطاً وقاسياً:

أن كل شيء يمكن أن يحدث في العالم في الوقت نفسه... , موت، حب، عرس، فقد، قطة، بلبل...؛ دون أن ينتظر أحداً أحداً.

عدتُ أدراجي.

لم أكن حزيناً فقط.

كنت خفيفاً بشكل مؤلم... ؛ كأن شيئاً كان يثبتني للعالم، ثم انقطع.

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد البيت كما كان.

لا بلبل.

لا قفص.

لا يقين.

فقط روتين يعود بهدوء، كأنه لم يحدث شيء.

لكنني، في داخلي، كنت أعرف:

أن بعض الكائنات الصغيرة لا تموت فقط...

بل تأخذ معها نسخة منّا، وتتركنا نكمل الحياة بنسخة قلقة .

قناع العيد (١٨)

جاء العيد، وانتهى شهر رمضان، لكن زيدًا لم يلحظ أي انكسارٍ زمني في سير الأيام، ولا أي انتقالٍ من طبقةٍ إلى أخرى في نسيج الوقت.

كـان الـزمن عنـده قـد فقـد قدرتـه علـى المفاجـأة، صـار سـطحًا أملـسَ ينسـاب فوقـه كـل شـيء بالدرجـة ذاتهـا مـن البـرود؛ لا ليـالٍ تُنـذر بشـيء، ولا صـباحات تُبشّـر بشـيء، فقـط تكـرارٌ هـادئ يشـبه اجتـرار نفـس المشـهد بصيغةٍ أخرى.

فـي داخلـه، لـم يعـد هنـاك فـرق بـين "اليـوم" و "أمـس"، بـين "العـادة" و "الاسـتثناء"... ؛ حتـى كلمـة عيـد بـدت لـه كأنهـا تسـمية خارجيـة، ملصـق لغوي لا علاقة له بما يجري في الداخل.

فـي ظهيـرة ذلـك اليـوم، جلـس أمـام جهـاز الاسـتقبال الفضـائي... ؛ الشاشـة الزرقـاء كانـت تعلـن العيـد بصـوتٍ مرتفـع: أغـانٍ تتكـاثر بـلا ضـرورة، ضـحكات جـاهزة، مـذيعون يوزّعـون البهجـة كمـا لـو أنهـا هبـات حكوميـة، وجـوه لامعـة تقـول إن الفـرح ممكـن بالتقسـيط، وإن الحـزن مجـرد سـوء فهـم جماعي.

كـان المشـهد كلـه يبـدو لـه كعـرضٍ مسـرحيٍّ طويـل، يـؤدي فيـه الجميـع أدوارًا محفوظة مسبقًا:

"كل عام وأنتم بخير"

"أعاده الله عليكم بالفرح"

"أين ستقضون العيد؟"

أسئلة لا تنتظر إجابات، بل تنتظر فقط أن تُقال.

أغلق الصوت.

لكـن الصـورة بقيـت تلمـع، كأنهـا تصـرّ علـى إقناعـه بـأن العـالم بخيـر، وأن المشكلة فيه هو وحده.

وقف زيد في منتصف الغرفة.

سأل نفسه، بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

ـــ هل يجب أن أفرح لأن التقويم قال ذلك؟

لم يجب أحد... , حتى الجدران بدت منشغلة بصمتها الخاص.

ثم أضاف، وكأنه يختبر سؤالًا أكثر خطورة:

ـــ أم أنني مريض لأنني لا أستطيع الفرح؟

كان يشعر أن العيد لا يضيف شيئًا إلى حياته، بل يفضحها.

في الأيام العادية، يمكن للحزن أن يتخفّى: في كوب شاي بارد، في رسالة مؤجلة، في نومٍ غير مكتمل... ؛ أما في العيد، فكل شيء يصبح مكشوفًا؛ لأن العالم كله يبتسم في اللحظة نفسها التي يفشل فيها هو في حتى تقليد الابتسامة.

مدّ يده إلى هاتفه.

رسائل كثيرة:

"كل عام وأنت بخير يا زيد 🌙"

"عيد سعيد"

"عيدك مبارك "

ردود جاهزة، مصفوفة كأنها نسخ من جملة واحدة قُسّمت على آلاف الألسنة.

توقف عند إحدى الرسائل.

لم يفتحها.

شعر أن فتحها يعني الاعتراف بأنه جزء من لعبة اجتماعية لا يفهم قواعدها، لكنه مجبر على لعبها.

تراجع قليلًا.

في داخله، رغبة قديمة بالانهيار كانت ترفع رأسها بهدوء: أن يبكي، أن يترك كل شيء ينهار لحظة واحدة بلا تفسير، أن يعترف أن ثمة اختناقًا لا يحتاج إلى سبب كبير كي يُصدّق.

لكن شيئًا آخر منعه.

ليس القوة.

بل الخوف من "سوء التوقيت".

ففي العيد، حتى الحزن يحتاج إلى إذن غير مكتوب.

قال لنفسه:

— ليس الآن... ليس اليوم.

كأن الألم أيضًا يخضع للدوام الرسمي.

ذهب إلى المرآة.

نظر إلى وجهه طويلًا.

لم يرَ شيئًا واضحًا.

فكر أن يصنع قناعًا.

بحث بعينيه في الغرفة.

لم يجد شيئًا يصلح سوى قميصه.

رفع طرفه، وغطّى به وجهه.

لكن القماش لم يكن كاملًا، فبقيت عينيه مكشوفتين، وبقيت ملامحه نصف ظاهرة، كأنه لا ينجح لا في الاختباء ولا في الظهور.

ضحك ضحكة قصيرة، بلا صوت تقريبًا.

— حتى القناع ناقص... همس.

في تلك اللحظة، رنّ الهاتف.

أجابه دون أن يغيّر وضعه.

صوت أمه:

— زيد... لماذا لم تأتِ؟ اليوم عيد.

صمت.

ثم قال:

— لا أشعر أنه عيد.

تنهّدت الأم، تنهيدة طويلة تشبه العادة أكثر مما تشبه الحزن:

— العيد لا يحتاج شعورًا يا بني... العيد يُعاش.

كأنها تقول له: المشكلة أنك ما زلت تعتقد أن الشعور شرط.

أغلق الهاتف.

جلس على الأرض.

القميص ما زال على وجهه، لكنه أصبح أثقل، كأنه لم يعد قماشًا بل فكرة: فكرة أن الإنسان يستطيع أن يختبئ من العالم دون أن يختفي منه.

في الخارج، كان الجيران يطلقون ضحكات متقطعة، أصوات أطفال، زيارات سريعة، جمل قصيرة تتكرر:

"تفضلوا عندنا"

"إن شاء الله العام القادم أفضل"

"كيف حالك؟ الحمد لله"

لغة اجتماعية كاملة تُقال دون أن تعني نفسها.

فكّر زيد:

هل نحن نحتفل فعلًا... , أم نؤدي طقسًا لحماية أنفسنا من الاعتراف بأن لا شيء تغيّر؟

ثم خطر له سؤال آخر، أكثر قسوة:

هل الأعياد ليست سوى إعادة جماعية لتأكيد أن الحياة مستمرة، حتى لو لم يكن أحد يعيشها حقًا؟

في منتصف هذا الصمت الداخلي، شعر بشيء غريب:

ليس حزنًا.

ولا فرحًا.

بل فراغًا ناعمًا، يشبه الوقوف في ممر طويل بلا أبواب.

رفع القميص عن وجهه.

نظر حوله.

الغرفة كما هي.

الضوء كما هو.

العالم كما هو.

لكنه لأول مرة شعر أن المشكلة ليست في أن الحياة بلا معنى...

بل في أن المعاني تُفرض عليه جاهزة، في مواعيد محددة، مثل العيد تمامًا.

همس لنفسه، بصوتٍ أقرب للاعتراف:

— ربما لا أحد يطلب مني أن أكون سعيدًا... بل أن أبدو سعيدًا فقط.

وفي تلك اللحظة، فهم زيد أن العيد ليس حدثًا في الزمن...

بل اختبارًا اجتماعيًا لمدى قدرتك على ارتداء القناع دون أن يسقط منك.

وظل جالسًا، لا محتفلًا ولا منكرًا، بل شاهدًا على شيء لا يُقال:

أن الإنسان قد يُجبر أحيانًا على الاحتفال...

لكن لا أحد يستطيع أن يجبره على الفرح.

كان أقرب ممّا ظنّ (١٩)

كان البيت هادئًا أكثر من المعتاد تلك الليلة.

ضوء الصالة الخافت يتمدّد فوق الجدران الباردة، فيما ظلّ صوت التلفاز القادم من الغرفة البعيدة يحاول عبثًا أن يملأ الفراغ.

وقف نوري في الممر، يلتقط أنفاسه بسرعة، ويلتفت خلفه كل لحظة.

كانت يده ترتجف قليلًا وهو يقبض على مقبض الباب، فيما التصق قميصه بظهره من العرق.

لم يكن متأكدًا إن كان أحد قد رآه، لكنه لم يكن مستعدًا للمجازفة.

فتح الباب ببطء شديد، ودخل بخفة حذرة، ثم أغلقه وراءه كما لو أن حتى الباب لا ينبغي أن يشعر بوجوده.

مرّت خطوات خافتة في الخارج.

تجمّد نوري في مكانه.

— هل رأيته؟

جاء الصوت منخفضًا وقريبًا.

— لا... لكنه لا يمكن أن يكون بعيدًا.

أسند ظهره إلى الباب، وكتم أنفاسه.

كان قلبه يضرب صدره بعنف حتى خُيّل إليه أن صوته سيفضحه.

امتدّ الصمت طويلًا.

ثم بدأت الخطوات تبتعد شيئًا فشيئًا، حتى اختفت.

ظلّ واقفًا للحظات، يحدّق في العتمة أمامه، قبل أن يجرؤ على الحركة.

فتح الباب ببطء، وأطلّ بحذر إلى الممر.

لم يكن هناك أحد.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة متعبة، ابتسامة من نجا مؤقتًا فقط.

همس لنفسه:

— في المرة القادمة... لن أرتبك هكذا.

كرتي الأولى (٢٠)

أو: الكائن الذي تذكّر سقوطه متأخرًا

حين أتذكّر حياتي الأولى، لا أتذكّر اسماً.

أول ما يعود إليّ هو ظهري المحدودب، كأنّ أحدهم وضع فوق عظامي صخرةً غير مرئية، ثم تركني أمشي بها آلاف السنين.

أتذكّر الشعر الكثيف الذي كان يغطّي جسدي مثل عشبٍ بريّ، وعينَيّ الواسعتين اللتين كانتا تخيفان حتى الحيوانات.

لم أكن قردًا تمامًا... ؛ لكنني لم أكن إنسانًا أيضًا.

كنتُ شيئًا عالقًا بين مرحلتين،

روحًا متأخرة عن جسدها،

أو جسدًا سبقَ روحهُ إلى الأرض.

عشتُ فوق جبالٍ شاهقة، أعلى من الغيوم، في عالمٍ باردٍ ورطب، حيث الضبابُ لا يغادر الصخور أبدًا.

هناك، كانت الأشجارُ ملتويةً كأصابعَ عجوزٍ يحتضر، وكانت الريحُ تعوي طوال الليل كأنها تحاولُ تحذيرنا من شيءٍ لا نفهمه.

لم أكن وحدي.

كان هناك قردٌ ضخم يرافقني دائمًا.

لم يكن صديقًا بالمعنى الذي نعرفه الآن، لكننا كنّا نتقاسمُ الجوع والخوف والصمت.

نجلسُ أحيانًا قرب حافة الجبل، يلتهمُ هو أوراق الأشجار بطمأنينةٍ غبية، بينما أحدّقُ أنا في السماء بشعورٍ غامضٍ يشبهُ الحنين.

كان ينظر إليّ أحيانًا باستغراب، كأنّه يدركُ أنني مختلف عنه.

وأنا أيضًا كنتُ أشعر بذلك.

كان داخلي شيءٌ زائد... ؛ شيءٌ يشبهُ الشرارة.

قلقٌ لا تعرفه الحيوانات.

سؤالٌ بلا لغة.

في الليل، كنتُ أنام داخل كهفٍ ضيق تفوح منه رائحة الرطوبة والعظام القديمة.

لكنني نادرًا ما كنتُ أنام حقًا.

كانت الأحلامُ تهاجمني كالعواصف.

أرى نفسي أسقطُ من مكانٍ بعيد،

بعيد جدًا،

حتى إن النجوم كانت تبدو تحتي لا فوقي.

وأسمعُ أصواتًا لا تشبهُ أصوات هذا العالم.

أصواتًا تقول:

— ليس هنا... ؛ أنت لستَ من هنا.

ثم أستيقظُ مذعورًا، أتحسسُ الصخور حولي، وأزحفُ نحو فتحة الكهف لأتأكد أن الأرض ما تزال موجودة.

في صباحٍ رماديّ، حدثَ ما غيّر كل شيء.

كنتُ أتبعُ حيوانًا صغيرًا يتحرك بين الصخور بسرعة البرق.

الجوعُ كان ينهشُ معدتي، والبردُ يقطعُ أطرافي، لذلك ركضتُ خلفه بجنون.

القردُ كان يصرخُ خلفي.

لأول مرة، بدا صوته أشبه بتحذير.

لكنني لم أتوقف.

قفزَ الحيوانُ فوق حافةٍ صخرية، وقفزتُ وراءه دون تفكير.

وفجأة... اختفت الأرض.

أتذكّرُ تلك اللحظة بوضوحٍ يفوق كل ما عداها.

الهواءُ صار سكينًا ضخمة.

السماءُ انقلبتْ إلى هاوية.

والجبالُ بدأت تدور حولي كأنّ العالم كله قد فقد توازنه.

كنتُ أسقط.

وللمرة الأولى، فهمتُ معنى أن يكون الإنسان وحيدًا تمامًا.

في أثناء السقوط، حدث شيءٌ لم أفهمه إلا بعد ملايين السنين.

الزمن تباطأ.

رأيتُ جسدي في الهواء كأنني أنظرُ إلى كائنٍ آخر.

ذلك المخلوق المشوّه، نصف الحيوان ونصف الحلم، كان يلوّح بذراعيه بعجزٍ مضحك.

ثم ظهروا.

كائناتٌ من نور.

لم تكن ملائكة كما تصفها الكتب، بل أشبهُ بوعيٍ خالصٍ يرتدي الضوء.

اقتربوا مني بهدوءٍ مخيف، واخترقت أيديهم صدري دون ألم.

شعرتُ بشيءٍ يُنتزعُ مني.

شيءٌ أعمق من القلب.

وحين نظرتُ إلى الأسفل، رأيتُ جسدي يصطدمُ بالصخور.

سمعتُ عظامه تتكسر.

رأيتُ الدم ينسكبُ كثيفًا وأسود، ورأيتُ الجمجمة تنفتحُ كثمرةٍ فاسدة.

لكنّ أكثر ما أرعبني لم يكن الموت.

بل اللامبالاة.

الجبالُ بقيت صامتة.

الريحُ واصلت عواءها.

والقردُ جلس قرب الجثة يحدّق فيها بحزنٍ غامض، قبل أن يمدّ يده المرتجفة ويلمسُ وجهي المحطم.

في تلك اللحظة أدركتُ شيئًا مرعبًا:

لقد كان أول مخلوقٍ يحزنُ عليّ في هذا الكون.

تركتُ الأرض بعدها.

أو ربما انتُزعتُ منها.

لا أعرف.

كنتُ أطيرُ فوق الكوكب، أراه يصغر شيئًا فشيئًا، كعينٍ زرقاء تحتضر في الظلام.

ثم عبرنا فضاءاتٍ لا نهاية لها.

رأيتُ نجومًا تولد وتموت في لحظات، وكواكبَ سوداء تبتلع الضوء، ومخلوقاتٍ هائلة تمرّ قربنا دون أن تلاحظ وجودنا.

سألتُ الكائنات النورانية:

ـــ من أنا؟

لكنها لم تُجب.

سألتُ:

ـــ لماذا وُلدتُ هناك؟

فقال أحدها أخيرًا بصوتٍ بارد:

ـــ لأن الوعيَ يبدأ دائمًا من الألم.

ثم وصلنا إلى عالمٍ آخر.

لم تكن فيه جبال ولا أشجار ولا أصوات.

فقط بياضٌ هائل يشبهُ النسيان.

هناك، اقترب مني أحد الكائنات ووضع يده فوق رأسي.

وفجأة بدأت ذاكرتي تتساقط.

سقط الكهف أولًا.

ثم الجبل.

ثم القرد.

ثم وجهي.

حتى اسمي الذي لم أكن أعرفه اختفى هو الآخر.

وقبل أن يبتلعني الفراغ تمامًا، سمعتُ السؤال الأخير يتردد داخل روحي:

— ماذا لو كانت الحياة كلها مجرد سقوطٍ طويل... ؛ والموتُ ليس إلا ارتطامًا آخر؟

كرتي الثانية (٢١)

كانت السماء تسقطُ فوقي حين وُلدتُ للمرة الثانية.

لا أتذكرُ اللحظة الأولى بدقة، لكنني أتذكرُ الرعب.

ذلك الرعب القديم الذي يشبهُ ذاكرةً أقدم من الجسد نفسه... ؛ كأنني كنتُ أعرفُ مسبقًا أن السقوطَ قدرٌ يتكرر، وأن الأرواح لا تهبطُ إلى الأرض إلا بعد أن تُطرد من مكانٍ أكثر نقاءً.

استيقظتُ عاريًا فوق أرضٍ موحلة، والريحُ تعوي حولي كذئبةٍ جائعة.

كان الليلُ كثيفًا إلى درجة أنني شعرتُ بأن الكون كله قد انطفأ، ولم يبقَ سوى عينين تراقبانني من مكانٍ بعيد.

لم أكن أملكُ اسمًا.

ولا ذاكرة.

ولا لغةً أفهمُ بها نفسي.

لكنّ جسدي كان يعرف أشياءً لا يعرفها عقلي.

كلما نظرتُ إلى السماء اختنقتُ.

كان داخلي يرتجفُ كما يرتجفُ طفلٌ يتذكرُ لحظة سقوطه من يد أمّه.

كنتُ أخافُ المرتفعات دون سبب، وأرتعبُ من الطيور حين تحلّق عاليًا، كأنها رسلٌ جاءت لتعيدني إلى الهاوية التي هربتُ منها.

وجدتني بعد أيام وسط قبيلةٍ تعيشُ قرب غابةٍ سوداء.

رجالها عظامُ الوجوه، يطاردون الوحوش بالرماح الحجرية، ونساؤها يخبزن الجذور المحروقة فوق النار كأنهنّ يطبخن أجزاءً من الأرض نفسها.

كانوا ينادونني: "الهابط من السماء".

في البداية ظننتُ أنهم يسخرون مني، لكنّ العجوز "أور"، وهو أقدم رجال القبيلة، كان ينظر إليّ بخوفٍ حقيقي.

قال لي ذات ليلة، بينما كانت النارُ تلتهمُ عظام حيوانٍ ضخم:

— أنت لا تشبهنا... ؛ الذين يسقطون من الأعلى يحملون في أرواحهم لعنة التذكّر.

سألته:

— وما الذي يجب أن أتذكره؟

حدّق طويلًا في النار، ثم همس:

— أن الحياة ليست سوى كرةٍ تتدحرجُ من موتٍ إلى موت.

لم أفهمه يومها.

لكنني بدأتُ أرى أشياء غريبة بعد ذلك.

في النوم، كانت تأتيني مدنٌ لا تشبهُ عالمنا.

أبراجٌ من الضوء، ووجوهٌ شفافة، وكائناتٌ بلا أفواه تتحدث داخل رأسي.

كنتُ أرى نفسي أطير بين المجرات كرمادٍ مشتعل، ثم أسقط فجأة نحو الأرض مثل نيزكٍ مكسور.

وحين أستيقظ، أجدُ يدي ترتجفان.

ثم جاءت الحرب.

في البداية كانت مجرد شائعاتٍ عن قبائلَ تقتربُ من النهر، لكنّ الدم يصل أسرع من الأخبار دائمًا.

رأيتُ أول جثةٍ عند الفجر.

كان شابًا من قبيلتنا، ما تزال عيناه مفتوحتين بدهشةٍ طفولية، كأنه لم يفهم حتى اللحظة الأخيرة لماذا اخترق الرمحُ عنقه.

تركه الجميع حيث سقط.

في ذلك الزمن، لم يكن البشر يدفنون موتاهم.

كانوا يتركونهم للشمس والذئاب والريح.

لكنّ الرائحةَ كانت تقتلني.

شيءٌ عميقٌ في داخلي كان يرفضُ أن يتحول الإنسان إلى طعامٍ للحشرات.

وحين تمددت الديدان فوق وجه صديقي، شعرتُ بأنني أنا الذي أتعفن.

في الليل، حفرتُ له قبرًا بيديّ.

كانت الأرضُ قاسية، وأظافري تتكسر، لكنني واصلتُ الحفر كأنني أنقذُ نفسي لا جثته.

حين انتهيت، ظهر "أور" خلفي فجأة.

قال وهو يراقب الجسد المدفون:

ــــ الآن بدأتَ تتذكر.

سألته:

ــــ أتذكر ماذا؟

قال:

ــــ أنك كنتَ إنسانًا قبل أن تصبح وحشًا.

لكنّ الحرب تغيّر الجميع.

بعد أشهر، لم أعد الرجل نفسه.

تعلمتُ كيف أطعنُ بلا تردد.

كيف أسمعُ صراخ خصومي دون أن أرتجف.

كيف يتحول الدم، بعد اعتياد طويل، إلى لونٍ عادي.

كنتُ أعودُ من المعارك وجسدي يرتعشُ بنشوةٍ غامضة، كأن الموتَ مخدرٌ سماوي.

وذات يوم، بينما كنتُ أركضُ خلف رجلٍ من القبيلة المعادية، رفع حجرًا ضخمًا وضربني به على رأسي.

سمعتُ صوتَ جمجمتي وهي تتشقق.

ثم سقط العالم.

حين فتحتُ عيني، لم أكن على الأرض.

كنتُ معلّقًا في فضاءٍ شاسع، والجثثُ تحتي تبدو كنقاطٍ سوداء بعيدة.

حولي كانت تتحركُ كائناتٌ من نور.

لم تكن تملكُ وجوهًا، لكنني شعرتُ بحزنها.

لمستْ رأسي بأيدٍ باردة، وفجأة عادت إليّ الذكريات دفعةً واحدة.

تذكرتُ أنني سقطتُ من قبل.

وعشتُ من قبل.

وقتلتُ من قبل.

ومتُّ من قبل.

وأن الأرض ليست سوى محطةٍ تتكرر، بينما الروحُ تُلقى في كل مرة داخل جسدٍ جديد، لتعيد أخطاءها نفسها بأسماءٍ مختلفة.

صرختُ:

ـــ أريدُ أن أتوقف!

لكنّ أحد الكائنات اقترب مني وقال بصوتٍ يشبهُ الموسيقى البعيدة:

ـــ لا أحد يتوقف... ؛ الوعيُ لعنةٌ أبدية.

ثم حملوني نحو منطقةٍ مظلمةٍ في أطراف الكون.

كان الظلام هناك حيًّا.

يتنفس.

ينتظر.

شعرتُ بجسدي يتجمد ببطء، وبأفكاري تنطفئ واحدةً بعد أخرى.

وقبل أن أغيب تمامًا، سمعتُ الصوت نفسه يهمس:

ـــ استعد... ؛ الكرة الثالثة تقترب.

ثم سقطتُ مجددًا نحو الأرض.

لحظة موت (٢٢)

اقتحم الغبار غرف الدار بلا استئذان، كأنه يعرف الطريق إلى صدري أكثر من الهواء نفسه.

في لحظات قليلة صار كل شيء رماديًا: الجدران، الأنفاس، وحتى الضوء الذي كان يتسلل من النافذة بدا متعبًا، كأنه يزحف بدل أن يسقط.

لم أكن واقفًا على قدميّ كما يجب، كنت أتمايل داخل جسدي كغريبٍ فقد عنوانه.

دار بي البيت، أو ربما دارت بي الرئتان، لا فرق في زمن الاختناق.. , نوبات الربو كانت تعلن حضورها كجنود قدامى، يطرقون باب الصدر بلا رحمة، والدهر يضع يده على عنقي بصبر بارد.

قلت لنفسي إن عليّ أن أخرج.. , أي خروج، حتى لو كان إلى حدّ الفقد.. ؛ أوقفت سيارة أجرة في الشارع العام.. , كان السائق ينظر إليّ بسرعة، كأنه يفهم أن في صدري شيئًا لا يحتمل التأجيل.

قلت بصوت متقطع:

— إلى مستشفى ابن النفيس.

تحرك.. , لم يسأل كثيرًا.. , وكأن السيارات تعرف أحيانًا أنها لا تنقل جسدًا فقط، بل تنقل شيئًا على حافة الانطفاء.

في الداخل، بدأت الأزمنة تتكسر.

الـدقائق لـم تعـد دقـائق.. , تمـددت كأنهـا خيـوط ضـوء سـقطت مـن عـالم آخـر.. ؛ الشارع من النافذة صار شريطًا باهتًا، والوجوه تمر كظلال لا تكتمل.

كـل شـيء كـان يحـدث بـبطءٍ مريـب، أو بسـرعة لا يمكـن إدراكهـا، كـأن الزمن نفسه فقد توازنه أمام اختناقٍ بسيط في الرئة.

كنـت أسـمع أشـياء لا علاقـة لهـا بالسـيارة: صـوت البيـت، ضـحكات بعيـدة، أسـماء لـم أعـد متأكـدًا أنهـا لـي.. , حتـى جسـدي بـدأ يبـدو فكـرةً قديمـة، لا ضرورة لها الآن.

ثم جاء السؤال، كطعنة هادئة:

كيف أفعل كل هذا...؛ وأنا في غيبوبة وجودية محضة؟

لـم يكـن هنـاك جـواب.. , فقـط ذلـك الإحسـاس بـأنني أقـف خـارج نفسـي، أراقب رجلاً يشبهني وهو يتهاوى ببطءٍ في الخارج .

عنـد المستشـفى، تـداخلت الوجـوه: ممرضـة، طبيبـة، أصـوات مسـتعجلة، أبـواب تُفـتح وتُغلـق كأنهـا تحـاول منـع شـيء مـن الهـروب أو الـدخول.. ؛ لكننـي لـم أعـد فـي قلـب المشـهد تمامًـا.. ؛ كنـت علـى الحافـة، حيـث الصـوت يصل متأخرًا، وحيث الألم لا يكتمل.

تـدلت يـداي بـلا قـرار، وتخشـبت قـدماي، وجحظـت عينـاي كأنهمـا تبحثـان عـن تفسـير أخيـر فـي الهـواء.. ؛ كـل مـا كنـت أعرفـه يتراجـع خطـوة خطـوة: الاسم، البيت، العمل، حتى فكرة "أنا".

وفي تلك اللحظة، لم يعد الجسد ملكي.

كـان مسـجّى علـى سـرير أبـيض، مـثقلاً بنوبـات الربـو وضـربات الـدهر، مستسـلمًا إلـى حـدّ السُـكر.. ؛ أمـا أنـا... , فكنـت أعلـى قلـيلًا، أو أبعـد قلـيلًا، أراه ـ من عل ـ كما يُرى شيء انتهى للتوّ دون أن يفهم لماذا.

لم أشعر بالحزن.. , ولا بالخوف.

فقــط دهشـــة هادئـــة، كـــأنني أكتشــف أن الحيـــاة لـــم تكـــن ســـوى طريقـــة طويلـــة جـــدًا في التنفس... ؛ وأنها الآن، أخيرًا، توقفت.

لقاء العيون في زمنٍ متشظٍّ (٢٣)

فـــي مدينـــةٍ لا تكــفّ عـــن التبــدّل، كأنهـــا فكـــرةٌ لـــم تكتمـــل فـــي ذهـــن إلـــهٍ متعـــب، كان الزمنُ نفسه يجرّ أذيالَه كشيخٍ نسيَ معنى الاتجاه.

الشـــوارعُ مزدحمــــةٌ بأجســـادٍ تمشـــي دون أن تصـــل، والوجـــوهُ معلّقـــة بـــين يقينين: أن تكون موجودًا، أو أن تكون مرئيًا فقط دون أثر.

فـــي ذلـــك اليـــوم، حـــين كـــان الهجيـــر يضـــغط علـــى الأرصـــفة ككـــفٍّ عملاقـــةٍ تخنـــق الهـــواء، دخلـــتُ الســـوق كمـــن يـــدخل تجربـــةً لا يعـــرف نهايتهـــا... ؛ لـــم أكن أبحث عن شيء، بل عن شيءٍ يبحث عني.

هنـــاك، بـــين صـــراخ الباعـــة وتكسّـــر الأصـــوات فـــوق بعضـــها كزجـــاجٍ قـــديم، حدث الانفجار الصامت.

لم يكن صوتًا، بل نظرة.

تلاقت عيني بعينيه.

وتوقّف كل شيء.

لـــم يتجمّـــد الـــزمن كمـــا فـــي الحكايـــات، بـــل انكســـر... ؛ كـــأن الســـاعة الرمليـــة لـــم تتوقـــف، بـــل انشـــطرت إلـــى رمـــالٍ تطيـــر عكـــس اتجـــاه الســـقوط... ؛ النـــاس حولنا صاروا ضبابًا وظيفيًا، خلفيةً باهتة لمشهدٍ لا يرى نفسه إلا بنا.

كـان هـو واقفًـا كأنــه خـرج لتـوّه مـن فكـرةٍ لـم تكتمـل: ملامـح هادئــة، لكـن فـي عينيــه اضــطراب بحجــم محــيطٍ لا يعــرف اليابســة... ؛ نظــرةٌ لا تُحــدّق فقــط، بــل تُعيــد ترتيــب الــداخل... ؛ شــعرتُ أننــي لســتُ أنــا، بــل نســخةٌ قديمــة منــي تُعاد كتابتها أمامه.

وفي عينيه... كان هناك شيء يشبه الاعتراف، دون أن يُقال أي شيء.

كأننا التقينا قبل أن نُولد، أو بعد أن انتهينا من الحياة ولم ننتبه.

اقتربنا.

خطــوتي الأولــى كانــت كمــن يســقط فــي هــواءٍ كثيــف، وخطوتــه نحــوي كانــت كقــانون جــذبٍ لا يحتــاج إلــى تفســير... ؛ لــم يكــن المشــي قــرارًا، بــل استســلامًا لشيءٍ أقدم من الإرادة.

وحين صار بيننا مترٌ واحد، لم نعد غرباء.

بل صرنا احتمالين لذات الروح.

قال بصوتٍ منخفض، كأنه يخاف أن يوقظ العالم:

— "أنتِ... كنتِ هنا قبل السوق؟"

ابتسمتُ دون أن أفهم السؤال، ثم أجبتُ كمن يقرأ نفسه لأول مرة:

— "بل السوق هو الذي تأخر عنّا."

ضحك... ؛ لم تكن ضحكة، بل ارتخاء جدارٍ داخلي ظلّ صامدًا طويلًا.

ثم حدث السلام.

لــم يكــن "الســلام علــيكم" جملــة، بــل طقسًــا يتجــاوز اللغــة... ؛ كــأن الكلمــات خرجت من فمٍ آخر غير أفواهنا، محمّلةً بشيء يشبه الضوء.

“السلام عليكم والنفحات القدسية والأنوار الجمالية...”

توقّف الباعة لحظةً دون أن يعرفوا لماذا... ؛ حتى الهواء بدا كأنه يستمع.

كان السلام هنا فعلَ اعترافٍ بوجود الآخر كحقيقةٍ مقدّسة، لا كمصادفة.

ثم تصافحنا.

لكن اليدين لم تتصافحا فقط.

كان ذلك التصافح بوابة.

حين لامست يده يدي، لم أشعر بالجلد، بل بتاريخٍ كاملٍ يُعاد ترتيبه... ؛ حرارةٌ ليست بشرية تمامًا، كأنها قادمة من مكانٍ لا يخضع لفيزياء الجسد... ؛ ارتجف داخلي كوترٍ شُدّ لأول مرة بعد صمتٍ طويل.

قال بصوتٍ أقرب إلى همس داخلي:

— “غريب... أشعر أنني أعرفك من فقدٍ قديم.”

أجبته:

— “وأنا أشعر أنني أبحث عنك منذ خطأٍ لم أعرف اسمه.”

اقترب أكثر.

لم تكن هناك قبلة واحدة، بل سلسلة من الانقطاعات الصغيرة في الواقع.

لمس شفتيه لجبيني لم يكن فعل حب فقط، بل محاولة إصلاحٍ لزمنٍ مكسور... ؛ كل لمسة كانت تُعيد ترتيب الذاكرة، وتفتح أبوابًا لم نكن نعلم أنها موجودة.

رائحةٌ غريبة انبعثت بيننا، ليست عطرًا ولا جسدًا، بل مزيج من بساتين بعيدة وخرابٍ جميل، كأننا نستدعي تاريخًا لم يُكتب.

قالت عيناه:

"لا تضيعني."

وقلتُ بعيني:

"لن أعود كما كنت."

لم نكن نتحدث، لكننا كنا في أعلى درجات الحوار... ؛ الكلمات كانت زائدة، مثل ضجيجٍ لا حاجة له حين تتكلم الأرواح.

حولنا، السوق استمر... ؛ لكننا كنا قد خرجنا منه دون أن نغادره.

ثم حدث ما يشبه الاتفاق غير المرئي.

أمسك يدي.

وفي اللحظة نفسها، لم نعد نمشي.

بل بدأنا "ننتقل".

كانت خطواتنا تتحول إلى عبورٍ بين طبقات الزمن: من السوق إلى ذاكرة السوق، من المكان إلى فكرة المكان، من الجسد إلى احتماله الآخر.

قال فجأة:

— "هل لديكِ محطة؟"

سألته:

— "محطة ماذا؟"

أجاب:

— "محطة المغادرة... أو محطة البقاء... لا فرق."

ضحكتُ للمرة الأولى دون مقاومة:

ـــ "أنا في الطريق إليها منذ عمري كله."

فقال:

ـــ "إذاً وصلنا."

لكننا لم نكن في مكانٍ محدد.

كانت "المحطة" فكرةً تتجسد كلما آمنا بها: لا أرض، لا سقف، فقط لحظة معلّقة بين ما نتركه وما لن نعود إليه.

هناك، فهمتُ أن الحب ليس لقاءً، بل انقطاعًا عن النسخة السابقة من الذات.

وأننا حين نحب، لا نكسب أحدًا...

بل نخسر العالم.

حين بدأنا الابتعاد عن السوق، لم يكن الوداع حدثًا، بل انطفاءً بطيئًا للواقع من حولنا... ؛ الناس عادوا إلى ضجيجهم، لكننا كنا قد خرجنا من خريطة الضجيج.

قال لي وهو يمشي بجانبي:

ـــ "لو اختفينا الآن، هل سيلاحظ أحد؟"

أجبته:

ـــ "ربما سيشعرون فقط أن شيئًا ما أصبح ناقصًا دون أن يعرفوا ما هو."

ابتسم.

ثم صمت.

وفي ذلك الصمت، كان هناك اعترافٌ كامل بأن ما يحدث ليس قصة حب عادية، بل خللٌ جميل في نظام العالم.

عند حافة المدينة، حيث يبدأ الغياب تدريجيًا، شعرتُ أن الجاذبية تخفّ، كأن الأرض تراجع حقها فينا.

لم نعد نمشي على الأرض، بل على احتمالٍ هشّ.

قال:

— "أخاف أن نصبح حلمًا لشخصٍ متعب."

أجبته:

— "وما الفرق؟ نحن بالفعل لا نعيش إلا في لحظة استيقاظ."

ثم…

انفصلنا.

ليس فجأة، بل كما ينفصل الضوء عن مصدره دون أن يترك أثرًا مرئيًا.

كان يبتعد، وأنا أبتعد، لكن الاتجاه كان واحدًا بطريقة غير مفهومة: كنا نعود إلى مكانٍ لم نصل إليه بعد.

التفتُّ إليه للمرة الأخيرة.

كانت عينيه تقول كل شيء، دون أن تقول شيئًا:

"سنلتقي في نسخة أخرى من الزمن."

ثم اختفى.

أو ربما أنا الذي اختفيت.

لا فرق.

في تلك اللحظة فقط، فهمت أن اللقاء لم يكن بداية حب...

بل بداية فقدٍ أكثر اتساعًا من القدرة على النسيان.

وأننا، في هذا الزمن المتشظّي، لا نلتقي لنمتلك...

بل لنفهم أن كل ما نملكه، مؤقتٌ إلى حدّ الفجيعة و الألم.

لواعج الغائب , نيران في القلب تأبى الانطفاء (٢٤)

في صباحٍ بدا عاديًّا أكثر مما ينبغي، استيقظ متأخرًا على رائحة القهوة الباردة وصوت عصفورٍ يضرب زجاج النافذة بعناد... ؛ نهض مترنحًا كمن خرج لتوّه من حلمٍ ثقيل، ثم جلس أمام الحديقة الصغيرة التي طالما أحبّها لأنها كانت تُشبهه: أزهارٌ جميلة، لكنها تنمو في عزلة.

رفع فنجانه بيدٍ مرتجفة، وحين وقع بصره على الورد المبلل بندى الفجر، لمح وجهه هناك...؛ ذلك الوجه الذي دخل حياته كنيزكٍ مضيء، فشقّ عتمته دفعةً واحدة، ثم استقر في قلبه كقدرٍ لا يُقاوَم.

منذ لقائه الأول به، شعر أن شيئًا قديمًا عاد إليه... ؛ كأن روحه التي ظلت سنواتٍ تائهة في المنافي الداخلية، وجدت أخيرًا مرساتها.

لم يكن حبًا يشبه الحكايات العابرة، بل أشبه بانكشافٍ ميتافيزيقي؛ كأنهما كانا يعرفان بعضهما قبل الولادة، ثم افترقا في خطأٍ كونيّ، وجاء الزمن ليصلح ارتباكه أخيرًا.

كان الغريب الوحيد الذي استطاع أن يهزم الجميع داخله.

تسلّل بهدوء إلى قلبه، ثم استولى على الأمكنة كلها: على أصدقائه، على عاداته، على وحدته التي كان يقدّسها.

صار حضوره يُسكره أكثر من الخمر، وصوته يوقظ في جسده ينابيعَ من دفءٍ نسيها منذ أعوام... ؛ ومعه، أصبحت الأيام خفيفة إلى درجة مخيفة، تمرّ كطيورٍ مذعورة لا تترك خلفها سوى رفرفةٍ في الذاكرة.

لكن ذلك الصباح... كان مختلفًا.

اتصل به كعادته.

الهاتف مغلق.

ابتسم أول الأمر... ؛ قال لنفسه إن النوم ربما سرقه، أو أن البطارية خانته كعادتها... ؛ أعاد الاتصال مرة، ثم عشرًا، ثم صار يضغط على الأرقام بعصبية من يحاول أن يمنع العالم من الانهيار.

الهاتف مغلق.

شيءٌ بارد تسلل إلى قلبه.

ارتدى معطفه على عجل، وخرج إلى الشوارع التي كانت ما تزال تتثاءب تحت ضوء الصباح... ؛ قصد شركة الاتصالات، سأل عن الرقم، عن الاسم، عن أي أثرٍ يدل عليه... ؛ لكن الموظف حدّق طويلًا في الشاشة ثم قال ببرود:

"الخط غير مسجل بوثائق رسمية."

شعر حينها أن الأرض فقدت صلابتها.

الانسان الذي كان يعرف تفاصيل أنفاسه، الذي قبّل خوفه قبل شفتيه، الذي أعاد الحياة إلى جسده اليابس... ؛ لم يكن يملك وجودًا حقيقيًا في الأوراق... ؛ كأنه خرج من فراغٍ ما، وأحبّه، ثم عاد إلى العدم فجأة.

راح يبحث عنه بجنون.

في المقاهي التي ضحكا فيها طويلًا.

في الأرصفة التي مشيا فوقها متشابكي الأصابع.

في الحديقة التي أخبره فيها ذات مساء أن الحب ليس إلا محاولة يائسة لكي نهزم الموت.

لكنه لم يجده.

كان الغياب يزداد كثافة كل يوم، حتى صار كائنًا حيًّا ينام قربه ويأكل معه ويحدّق إليه من المرآة.

وفي الليل، بدأت الأحلام تتكاثر كالفخاخ.

يراه جالسًا عند حافة سريره، يبتسم بصمته الغامض، ثم يقترب منه ببطء، حتى تختلط الأنفاس وتضيع الحدود بين الجسد والروح... ؛ كان يستيقظ كل مرة مذعورًا، يمد يده نحو الفراغ، فلا يجد سوى برودة الوسادة.

مرّت الشهور، لكنه لم يتعافَ.

بعض الأشخاص لا يرحلون من حياتنا، بل يهاجرون إلى داخلنا.

صار يشعر أن ذلك الغائب يسكنه أكثر مما كان يفعل حين كان حاضرًا... ؛ يراه في المارة، في زجاج الحافلات، في الموسيقى البعيدة، وحتى في النجوم التي تتدلى فوق المدينة مثل مصابيح حزينة.

كان أشبه بنسمةٍ عابرة دخلت حديقة روحه، فأيقظت الأزهار اليابسة، ثم اختفت تاركةً خلفها فوضى من العطر والحنين.

وحـــين حـــاول أن يتـــذكر ملامحـــه بدقـــة، كانـــت الصـــورة تتفتـــت كضـــباب... , لـــم يبـــقَ منـــه ســـوى أثـــر قـــبلاتٍ بريئـــة خافقـــة علـــى الجســـد، وارتجـــافٍ قـــديم فـــي القلـــب، وشـــعورٍ مريـــر بـــأن أجمـــل الأشـــياء لا تبقـــى طـــويلًا لأنهـــا خُلقـــت أصـــلًا لتُفلت من أيدينا.

وفي إحدى الليالي، خرج إلى البحر.

كانـــت الســـماء مزدحمـــة بـــالنجوم، والمـــوج يتكســـر بـــبطءٍ كـــأن المحـــيط نفســـه متعـــب مـــن الحنـــين... , رفـــع رأســـه طـــويلًا نحـــو المجـــرّة، وشـــعر فجـــأة أن الكـــون كلـــه لـــيس إلا مســـاحة شاســـعة مـــن الغيـــاب؛ وأن البشـــر لا يفعلـــون شـــيئًا سوى البحث عن أشخاصٍ خطفهم القدر منهم مبكرًا.

همس باسمه بصوتٍ مبحوح.

ثم ابتسم لأول مرة منذ زمن.

فربمـــا لـــم يكـــن الحـــب امتلاكًـــا، بـــل ذلـــك الجـــرح المضـــيء الـــذي يتركـــه شـــخصٌ ما في أرواحنا، كي نتذكر أننا عشنا يومًا... حقًا.

ومنذ تلك الليلة، صار كلما رأى نجمةً تسقط، يعتقد أنها رسالة منه.

وكلما هبّ نسيمٌ بارد، أغمض عينيه كمن يستعد لعناقٍ مؤجل.

أمـــا هـــو... فمـــا يـــزال هنـــاك، عنـــد حافـــة المجـــرة، ينتظـــر اللقـــاء الـــذي تـــأخر كثيرًا.

عطر الجلنار (٢٥)

تـــربط عائلـــة الحـــاج مـــزاحم بعائلـــة العـــم خضـــير علاقـــة جـــوار قديمـــة تمتـــد إلـــى أزقـــة محـــلات البصـــرة القديمـــة... ؛ كـــان أجـــداد العـــم خضـــير يســـكنون فـــي

الدار الملاصقة لدار أجداد الحاج مزاحم، وحفرت المياه والطين والملح قصتهما قبل أن يحفرها التاريخ ...

بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧، هاجرت العائلتان إلى بغداد واستقرتا في حي الشعب... ؛ وفي سبعينيات القرن المنصرم، تمايز المساران: انخرط مزاحم في صفوف الحزب الشيوعي، بينما ذاب خضير في جماعات الدعوة الإسلامية السرية ...

كان الحاج مزاحم أصغر من العم خضير بثلاثة سنوات، لكن الزمن الجميل جعلهما معاً في مقاعد الدراسة الابتدائية... ؛ تعلق مزاحم بخضير تعلق النخلة بجذورها، فكان يرى فيه الأخ الأكبر الذي لم تنجبه أمه ...

وفي إحدى ليالي عام ١٩٧٨، وتحت جنح الظلام، ألقى العم خضير محاضرة في منزل الحاج سلمان عن العدالة الاجتماعية في الإسلام... ؛ وكان مزاحم من بين الحاضرين الذين لا يتجاوزون سبعة رجال، خائفين مرتعدين من عيون الأمن التي كانت ترصد كل تحرك... ؛ تلك الليلة سمع مزاحم خضير يقول : العدل ليس شعاراً نرفعه، بل سكيناً نشهره في وجه الظالم... ؛ والله لا يُغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم... ؛ فالعدل أن تعطي الفقير حقه قبل أن يسأل، والحرية أن تقول كلمة الحق ولو بوجه الحاكم ... ؛ وأي مجتمع لا يقوم على العدل فهو أشبه بجثة تُلف بالحرير، تفوح منها رائحة الموت الكريهة وإن تزينت بالحرير ...

بعد المحاضرة، طوق مزاحم خضيراً واحتضنه بحرارة، وهمس في أذنه: «أنت أخي وأبي وأستاذي»... ؛ ابتسم خضير بوجهه الأسمر ومسح على رأس مزاحم كأنه طفل صغير .

ثم جاءت محنة عقد الثمانينيات الدموي الاسود ... ؛ حيث اعتقلت السلطة الصدامية العم خضير بتهمة التدين والنشاط الديني ، وسُجن في سجن الامن العامة أربع سنوات كاملة... ؛ كان مزاحم يزور أم خضير

كل جمعة، ويبكي معها بكاء الأطفال... ؛ وقد كتب قصيدة طويلة عنوانها «روحي تريدك » حفظها أبناء الحي جيلاً بعد جيل ...

خرج خضير من السجن منهك الجسد، محطم الأسنان، لكن عينيه بقيتا تضيئان كالقناديل... ؛ و زاره مزاحم في بيته الصغير، ونظر إليه طويلاً ثم انفجر باكياً: «لولا الله ثم أنت لكنت فقدت عقلي»... ؛ ضحك خضير بمرارة: الظنون يا مزاحم أشد من اليقين ... هون عليك ؛ هل صرت مؤمنا موحدا بسبب اعتقالي يا مزاحم ؟!

وفي عام ١٩٩١، حين انتفض العراقيون، كان خضير في الصفوف الأولى في ساحة أم الكروم ، بينما كان مزاحم يوزع المنشورات في ساحة سعد ؛ اذ ذهبا معا الى البصرة ... ؛ سقط خضير شهيداً برصاص عناصر الحرس الجمهوري والقصف المدفعي ... ؛ ولم يعثر على جثمانه إلا بعد ثلاثة أيام تحت الأنقاض ... .

دفنه مزاحم بيديه، وكتب على قبره: هنا يرقد الإنسان الكامل .... .

وبعد سقوط النظام الاجرامي عام ٢٠٠٣ ، عاد مزاحم إلى البصرة ، فوجد البيت القديم للعم خضير خالياً... ؛ وقف أمام بابه الخشبي ، وأخرج من جيبه قنينه عطر جلنار كان قد اشتراها من سوق الكويت ... ؛ نثر العطر على عتبة الباب، وجلس يبكي حتى جفت دموعه ...

بعد سنوات، حين زاره ابن أخيه من بغداد سالم ، أخرجه مزاحم من البيت ومشى به الى النجف الاشرف ؛ إلى قبر العم خضير... ؛ جلسا ساعة صامتة، ثم قال مزاحم :

تعلم يا بني ... ؛ الرجال لا يموتون عندما تغادر أرواحهم الأجساد، بل عندما ننساهم... ؛ الشهيد العم خضير لم يمت، لأنه زرع في قلبي شجرة لن تذبل ...

ونظر إلى السماء، وأكمل : ذات مرة سألت خضيراً: كيف تحب الله دون أن تراه؟ فضحك وقال لي: هل رأيت الريح؟!

قلت: لا...

فقال: فكيف تعرف أنها موجودة؟!

قلت: من حركة الأشجار...

قال: هكذا الله... انظر إلى قلبك كيف يتحرك حين تذكره ، تلك هي الريح الإلهية ...

سكت مزاحم، ثم تنهد وقال : خضير كان الريح التي حركت غصون روحي... ؛ ومنذ رحيله، لم تعد الأشجار تتحرك ... .

كانت قنينه عطر الجلنار لا تزال معه، رغم مرور السنين... ؛ فتحها وشم رائحتها، ثم أعطاها لابن أخيه : خذها... هذه رائحة البصرة القديمة، رائحة خضير، رائحة زمن كنا فيه إخوة قبل أن تكون الأديان والمذاهب سكاكين في ظهورنا ...

سأله ابن أخيه: هل تظن أنك ستلقاه في الجنة؟

ابتسم مزاحم ابتسامة حزينة وقال :الجنة؟ يا بني...؛ الجنة أن تجلس مع من تحب ولو على قارعة طريق... ؛ خضير لم يذهب إلى الجنة، بل الجنة هي التي ذهبت معه .

عشرون وجهاً في مرآة واحدة (٢٦)

في البدء كان الكائن نقياً، لم تلوثه المعرفة بعد ... ؛ لم يكن في قلب إسماعيل غير بياضٍ يشبه قميص المدرسة في صباحه الأول ...

فقد نشأ اسماعيل في بيتٍ تحرسه السيرة قبل الجدران، وتظلّله وصايا الآباء كما تظلّل النخلةُ تمورها في تموز ...

كـان يـؤمن أن العـالم مسـتقيمٌ مـا دامـت القـيم مسـتقيمة، وأن الشـرف شـجرةٌ إن سُقيت بماء الحياء أثمرت يقيناً لا يسقط ...

لكن المدينة لم تكن كما تخيّلها في دفاتره ...

كانـت بغـداد، بليلهـا المثقـل ورطوبـة أنهارهـا، تشـبه مـرآةً مشـروخة؛ كـلُّ مـن ينظر فيها يرى نفسه مقطّعةً إلى شظايا ...

هكـذا فكـر إسـماعيل فيمـا مضـى، قبـل أن يكتشـف أن النقـاء نفسـه هـو أصـل اللعنـة... ؛ كـان طفـلاً حـين ورث عـن آبائـه الهاشـميين شـريعة غيـر مكتوبـة: الرجـال كرامـات تمشـي علـى الأرض، والنسـاء أسـرار يجـب أن تـدفن فـي البيـوت، والعـرض مـرآة لا يبصـق عليهـا أحـد... ؛ نشـأ فـي عـالم مقفـل علـى نفسـه، كجـوزة صـلبة لا تعـرف أن هنـاك عـوالم أخـرى تتفـتح خـارج قشـرتها ...

علـى الـرغم مـن أنـه نشـأ منـذ طفولتـه نشـأة سـليمة، خاليـة مـن المشـاكل والعقـد النفسـية والاجتماعيـة، إلا أنـه صُـدم بـالمجتمع فيمـا بعـد ... ؛ فقـد رأى فيـه مجتمعـاً مريضـاً مأزومـاً، لا ينسـجم مـع قيمـه ومبادئـه التـي اكتسـبها مـن تربيته ومن جذوره الهاشمية الأصيلة ...

كـان السـيد إسـماعيل شـريفاً نزيهـاً شـجاعاً، رغـم صـغر سـنه. ومـا إن دخـل مرحلـة المراهقـة حتـى بـدت تلـك السـمات واضـحة فـي شخصـيته المتقـدة ...؛ نعـم , دخـل اسـماعيل المراهقـة، تلـك المنطقـة الحدوديـة حيـث يلتقـي الـداخل بالخارج، حيث تبدأ الأسئلة بالتسلل كالنمل إلى العقل النائم ...

وفـي أحـد أحيـاء بغـداد القديمـة، فـي بيـتٍ تلاصـقت فيـه الغـرف كمـا تتلاصـق الأسـرار، بـدأت الحكايـة ...؛ حـيّ يتـنفّس صـخباً لا يشـبه سـكون بيـتهم ... ؛ شـاءت الأقـدار أن يتـزوج الأخ الأكبـر للسـيد إسـماعيل، وهـو السـيد فاضـل، شـابة مـن حـي الفضـل كانـت زميلتـه فـي الكليـة... ؛ وقـد أنجـب منهـا ثلاثـة أطفـال فيمـا بعـد ؛ إلا أن ناديـة كانـت تختلـف اختلافـاً جـذرياً عـن عائلـة السـيد عبد العظيم؛ فهي من وادٍ وهم من وادٍ آخر

كانت تمشي كما لو أنّ الهواء يعرفها، وتضحك كما لو أنّ الجدران صديقاتها ...

ترى في الوقوف عند باب الدار فعلاً عادياً، ويراه إسماعيل شقّاً في جدار السمعة ...

لم تكن المشكلة في الباب ... ؛كان الباب مجرد خشب ... ؛لكن إسماعيل كان يرى في الباب ثغرةً يدخل منها العالم كلّه ... ؛كبر داخله شعورٌ غامض بأن شيئاً ينفلت من بين أصابعه ... .

كانت تخرج إلى باب الدار بين الحين والآخر، وتنظر إلى المارة من الرجال والشباب، بحجة فتح الباب عندما يطرق، أو بذريعة مناداة الأطفال لتكليفهم بعمل ما... ؛ بينما كان السادة معروفين بعدم خروج امرأة منهم قط ... ؛ وكذلك أغلب بيوت المنطقة لا تسمح للبنات والنساء بالوقوف أمام باب الدار، ولا بإخراج رؤوسهن من الباب الخارجي للنظر إلى الناس من دون حياء أو إطراق الرأس ...

كان السادة، بما فيهم السيد إسماعيل، يرون أن خروج المرأة من باب الدار ونظرها إلى الرجال عار يمس بسمعة المرأة وأهلها... ؛ بينما كانت نادية ترى في ذلك سلوكاً طبيعياً لا علاقة له بالشرف والمكانة الاجتماعية... ؛ فنساء وبنات حي الفضل في بغداد كنّ يخرجن إلى الشوارع العامة، فصلاً عن الجلوس أمام بيوتهن، بل في بعض الأحيان كن يتلفظن بألفاظ خادشة للحياء وكلمات فاحشة عندما ينشب شجار بينهن بسبب الأطفال أو لأسباب أخرى... ؛ وأغلبهن كنّ سافرات، لا يرتدين الحجاب ولا النقاب الإسلامي ولا الشيلة الجنوبية ولا الفراتية ... .

تشاجر إسماعيل مع نادية، فاشتكت لزوجها ...

قالت: يا فاضل، إن أخاك الأصغر يتجاوز عليَّ، وهذا تجاوز عليك... ؛ فإن لم تردعه، سأترك البيت وأذهب إلى أهلي ...

رد فاضل: سوف أؤدبه وأجعله لا يعود لمثلها أبدا

وجاء فاضل كثور هائج إلى أخيه إسماعيل، ولطمه على وجهه قائلاً: ألا تستحي من نفسك حين تتشاجر مع امرأة أخيك؟!

فرد إسماعيل بغضب وانفعال: الأولى أن تستحي هي من الخروج والوقوف بباب الدار... ؛ فقد أصبحنا حكاية تلوكها الألسن بسبب جمال زوجتك التي أضحت هدفاً للمارة... ؛ فبعض الشباب صار يتقصد المرور من بيتنا، لعله يشاهد زوجتك الفاتنة...!!

ولى فاضل غاضباً ورجع إلى نادية ...

قال لها: احتشمي قليلا ...

ردت: ما بك يا فاضل؟ لا تكن متخلفاً... ؛ لا يملأ عيني سواك، فلا تغار علي كما يفعل الهمج مع نساءهم ...

سكت فاضل واقتنع بكلامها...

في حي الفضل، حيث ولدت نادية، كانت النساء يمشين في الشوارع بحرية، ويتحدثن مع الرجال بلا خوف، ويتبادلن النكات الجريئة، ويتشاجرن بألفاظ لا تليق بـ "بنات الناس" حسب تعبير العلوية أم إسماعيل... ؛ كانت نادية ابنة ذلك الحي، ابنة الشارع المفتوح، ابنة الأرصفة التي تعرف أقدام النساء كما تعرف أقدام الرجال ...

وذات يوم، رأى نادية ... ؛ لم يرها كامرأة أخيه، بل رآها كثقب في جدار بيته، نافذة غريبة تطل على عالم آخر لا يعرفه... ؛ كانت تقف على باب الدار، تنظر إلى المارة، والناس ينظرون إليها، والعالم يدور من حولها وهي واقفة كتمثال لا يخص أحداً... ؛ في تلك اللحظة، شعر إسماعيل بشيء غريب: بيته لم يعد حصناً منيعاً، بل صفيحاً مثقوباً تدخل منه الريح العاتية ... ؛لم يكن يعرف بعد أن الريح ستصبح إعصارا مدمرا... .

المرأة التي لا تحتجب هي فكرة مكشوفة ... ؛هكذا تعلم إسماعيل من آبائه، لكنه الآن يرى نادية مكشوفة أمام عينيه، أمام جيرانهم، أمام

الشـباب الـذين صـاروا يتقصـدون المـرور ببيـتهم كأنـه محطـة قطـار... ؛ كانـت تبتسـم لهـم أحيانـاً، وتحـدثهم أحيانـاً بحجـة السـلام علـى الجيـران ، وتمـنحهم مـن وقتهـا مـا لا تمنحـه لبيتهـا بذريعـة المجاملـة العامـة ... ؛ وفـي المسـاء، كـان فاضـل يعـود مـن عملـه فيجـد امرأتـه سـعيدة، ويجـد أخـاه الصـغير يحـدق بـه كمـن يـرى شـيئاً لا يـراه هـو ... ؛ كـان فاضـل أعمـى بطيبتـه ... ؛ كـان فاضـل -كمعظـم الرجـال السـذج – يصـدق أن الحـب يكفـي ،و أن امرأتـه لا تـرى غيـره، وأن الإيمـان بالشـريك يحصـن العلاقـة مـن كـل شـر... ؛ كـان مسـكيناً ككـل مـن يظـن أن النوايـا الطيبـة تحمـي مـن الوحـل ... ؛أما إسماعيل، فكان يرى ؛ والرؤية لعنة ...!!

عنـدما تزوجـت فاضـل، ظنـت أنهـا انتقلـت إلـى عـالم آخـر، عـالم مغلـق كـالقبر. كـان بيـت السـادة هادئـاً كـالمقبرة، لا صـوت فيـه لامـرأة، لا حركـة فـي أبوابـه، لا حيـاة ... ؛ربمـا لهـذا كانـت تخـرج إلـى بـاب الـدار ... ؛ربمـا كانـت تحـاول التنفس .

وفـي إحـدى المـرات، وبينمـا كـان السـيد إسـماعيل عائـداً مـن الثانويـة، إذ بـه يـرى جـاره الشـاب محمـد وهـو يؤشـر بيديـه إلـى زوجـة أخيـه ناديـة، التـي كانـت كعادتهـا واقفـة ببـاب الـدار بحجـة منـاداة الأطفـال، وكانـت تنظـر إلـى جهـة محمـد وتبتسـم لـه ابتسـامة خفيـة لا يعرفهـا إلا مـن خبـر هـذه القصـص... ؛ وعنـدما رأى محمـد إسـماعيل، أدار وجهـه عنهـا مكرهـاً وكـأن شـيئاً لـم يكن... ؛ ودخلت نادية إلى الدار فوراً .

ربمـا كانـت تحـاول أن تتـذكر أنهـا لا تـزال امـرأة، لا تـزال حيـة، لا تـزال موجـودة ... وهكـذا، حـين رأت محمـد يشـير إليهـا مـن بعيـد، رأت فيـه الحيـاة التـي تركتهـا خلفهـا، رأت فيـه حـي الفضـل الـذي هجرتـه , وتـذكرت عشـيق الصـبا جارهـا نـذير الوسـيم ، رأت فيـه نفسـها قبـل أن تصـبح زوجـة سـيد محتـرم ... ؛كـان محمـد نافـذتها الأخيـرة علـى عـالم كانـت تظـن أنهـا فقدتـه إلى الأبد...

نصــفٌ يريــد أن ينســى ،ونصــفٌ يريــد أن يعاقــب. : ومــن تلــك اللحظــة، انقســم قلبه نصفين

فــي الليــل، حــين نامــت البيــوت، كــان إســماعيل يســهر مــع ظلالــه ... ؛وأضــمر إســماعيل مــا رأى فــي نفســه، وجعــل مــن محمــد هــدفاً وثــأراً يجــب الأخــذ بــه... ؛ ومن هنا بدأت سلسلة العداوات للسيد إسماعيل ...

كــان يتخيّــل الشــرف طــائراً أبــيض يحــوم فــوق الســطح، وكــلّ ابتســامةٍ ســهمٌ أسود يصيبه

وذات ليلــةٍ بــاردة، قــرّر أن ينــتقم مــن الطــائر لا مــن الســهم ... ؛وبعــد التخطــيط، قــرر إســماعيل القفــز إلــى بيــت جــارهم محمــد وتســميم طيــوره ...؛ إذ كــان محمــد مطيرجيــاً ويمتلــك طيــوراً غاليــة الــثمن... ؛ وقــف إســماعيل تحــت ســماء شــتوية ملبــدة بــالغيوم، ينثــر حبــات القمــح المســمومة كمــن يــزرع المــوت... ؛ كــان الحمــام نائمــاً فــي برجــه، غــافلاً عــن أن الطعــام الــذي ســيأكله عنــد الفجــر ســيكون آخــر وجبــة فــي حياتــه... ؛لــم يكــن إســماعيل يكــره الحمــام ... ؛ بــل كــان يكرمــه بطريقــة غريبــة: الحمــام طيــور ناديــة أيضــاً، طيــور ترفــرف فــي الســماء ولا تحتجــب، طيــور تنظــر إلــى كــل الجهــات ولا تخــاف الفضيحة... ؛ كان يقتل الحمام لأنه لا يستطيع قتل من يملكها ...!!

وبعــد أن نثــر إســماعيل الحنطــة المســمومة فــي بــرج الطيــور عنــد منتصــف الليــل، رجــع إلــى بيتــه... ؛ ومــا إن أصــبح الصــباح حتــى ارتفــع صــراخ محمــد فــي الأرجــاء، يهــدد ويتوعــد مــن قــام بهــذا العمــل، ويــتلفظ بــأفحش الألفــاظ، فقــد نفقــت جميــع طيــوره البالغــة ســتة وخمســين طيــراً...؛ نعــم ,ســتةٌ وخمســون طــائراً ســقطت دفعــةً واحــدة ؛أمــا إســماعيل، فســقط أول مــرةٍ مــن داخلــه ,لكنــه لم يعترف .

جــن جنــون محمــد، إلا أنــه لــم يشــك فــي الســيد إســماعيل، فقــد كــان متــديناً مســالماً وبعيــداً كــل البعــد عــن عــالم الطيــور... ؛ فقــد ســاوره الشــك بمجموعــة مــن المطيرجيــة مــن أبنــاء المنطقــة ... ؛ وقــف إســماعيل بــين المتفــرجين يتفــرس فــي وجــه الجــاني المحتمــل، وهــو يعــرف أنــه الجــاني، ويعــرف أن لا

أحد سيعرف ... ؛ كانت أول مرة يذوق فيها طعم القتل بالوكالة ؛ لذة لا توصف .

وفي أحد الأيام، وبينما كان محمد على السطح كعادته أمام برج الحمام، رأى نادية على السطح تنشر الغسيل، فسلم عليها، فردت السلام مع تبادل الابتسامات، ثم نزلت مسرعة ... ؛ وهكذا استمر الحال... ؛ وفي أحد الأيام، وبينما كان الاثنان على السطح، قدم محمد هدية إلى نادية، وهي محبس من ذهب غالي الثمن، فقبلت الهدية... ؛ وتوطدت العلاقة بينهما... ؛ و كانت نادية تنتظر خروج زوجها فاضل إلى العمل، وخروج بقية أخوته بما فيهم السيد إسماعيل إلى المدارس، وذهاب عمتها إلى السوق... ؛ عندها، وعندما يخلو البيت، تصعد إلى السطح الساعة العاشرة صباحاً بحجة نشر الغسيل... ؛ وفي أحد الأيام حدث ما لا يمكن إصلاحه، اذ قفز محمد إلى سطح السادة وراود نادية عن نفسها، ثم قبلها قبلاً حارة... ؛ بعدها، أحضرت نادية فراشاً إلى السطح، ومارسا الجنس معاً في وضح النهار... ؛ ولم يكتف محمد بمرة ولا مرتين، فقد نكحها أربع مرات متتالية... ؛ وبعد الانتهاء، هرولت نادية إلى داخل البيت ودخلت الحمام لتخفي آثار الجريمة ...؛ ثم اعتاد محمد القفز كالقطط بين السطوح بين الحين والاخر ، ونادية تنتظره بفراش مطوي تحت ذراعها كالعادة ... ؛وبعد كل مرة، كانت نادية تنزل مسرعة إلى الحمام، تغسل جسدها من آثار الخطيئة، ثم ترتدي ثياب الطهارة وتستقبل زوجها عند المساء كأن شيئاً لم يكن ... ؛كانت تمارس الانفصام كفن ... .

ما حدث هناك لم يكن جنساً فقط، بل كان احتفالاً بالتحرر من كل شيء: من البيت، من العائلة، من الشريعة، من إسماعيل نفسه الذي كان في المدرسة يتعلم قواعد اللغة العربية ولا يدري أن امرأة أخيه تتعلم لغة أخرى على سطح بيته ...

الشك نار تأكل العقل من الداخل ...

بدأ إسماعيل يشم رائحة غريبة في البيت، رائحة لا تشبه رائحة العائلة... ؛ ثم لاحظ تغير حركات الأطفال، وطريقة أكلهم، و ضحكاتهم المفاجئة... ؛ ثم لاحظ غضب نادية السريع، وهدوئها الغريب، وابتساماتها التي لم تكن موجهة لأحد في البيت ...

كان يراقبها كمن يقرأ رواية بوليسية، كل صفحة تكشف جريمة جديدة، وكل جريمة تؤكد أن البطل الذي يبحث عن الحقيقة هو نفسه الضحية ... ؛ولم يكن يعرف بعد أن الرواية ستنتهي به قاتلاً ...!!

وصار محمد يعطي النقود لأطفال نادية... ؛ وفي إحدى المرات، رأى السيد إسماعيل محمداً وهو يعطي النقود للأطفال، فذهب إليه غاضباً: "من قال لك أن تعطي أطفالنا نقوداً؟ فلسنا محتاجين لأحد! وماذا تقصد من وراء ذلك؟"

رد محمد: سيدنا، حق الجار على الجار، وأطفالكم أعاملهم معاملة أطفالنا، فنحن أهل وجيران ...

رد إسماعيل: "لا تكرر هذا الأمر مرة أخرى، وإلا سوف تندم، وقد أعذر من أنذر...

تشاجرت نادية مع زوجها فاضل وذهبت زعلانة إلى بيت أهلها في منطقة الفضل... ؛ وهناك كان بانتظارها عشيق الصبا نذير، راودها عن نفسها فأطاعته ،ذهبت معه إلى شقة باب المعظم، تلك الشقة التي كانت مختبراً للخطيئة: فيها يشرب الرجال الخمر، ويلعبون القمار، ويمارسون الدعارة كأنها مهنة كباقي المهن... ؛ وفي تلك الغرفة، على سرير يعرف مئات الأجساد، عادت نادية إلى نذير، إلى الماضي، إلى نفسها القديمة ... ؛ حيث مارس نذير الجنس معها مرتين ... ؛ وقد عرف بعض شباب المنطقة بالأمر وشاعت القصة بين اصدقاء نذير ... ؛كان نذير ذاكرة الجسد، أول من فتح لها باب الملذات، أول من جعلها تعرف أن الجنس ليس واجباً زوجياً بل لذة يمكن أن تطلب وتنتظر وتتذكر مرابع الصبا ... ؛ عندما هربت إلى بيت أهلها بعد مشاجرة مع فاضل، كان نذير في

انتظارهـا كالقـدر المحتـوم ؛وصـدق مـن انشـد قـائلا : مـا الحـب إلا للحبيـب الأول ... .

وكـان للسـيد إسـماعيل صـديق وفـي فـي حـي الكفـاح بـالقرب مـن الفضـل، فطلـب منـه أن يسـأل عـن امـرأة اسـمها نادية بنـت فضـولي، ولـم يخبـره بأنهـا زوجـة أخيـه... ؛ وبعـد ثلاثـة أيـام، التقـى السـيد إسـماعيل بصـديقه فـراس الكردي ... .

قـال فـراس :هـذه المـرأة لهـا علاقـة بالشـاب نـذير بـن منيـرة الحفافـة، وهـو يمـارس الجـنس معهـا منـذ كانـت صـبية، وقبـل أن تتـزوج رجـلاً سـيداً مـن منطقة العبيدي...

هنا صُعق إسماعيل وكأنه رُمي من علٍ في واد سحيق ...

وقال لفراس:أنت متأكد مما تقول؟

فـرد فراس:هـل تريـد أن أثبـت لـك ذلـك؟ تعـالَ وسـأخبرك متـى يأخـذها نـذير إلى شقته الكائنة في باب المعظم ...

فرد إسماعيل:لا داعي لذلك

فرد فراس:لماذا تسأل عن نادية؟ ما علاقتك بها ؟

رد إسماعيل:مجرد إعجاب بها .

قهقه فراس:نعم، إنها جميلة تستحق التعب .

صـار السـيد إسـماعيل يـذهب إلـى حـي الفضـل ويراقـب مـن بعيـد وهـو متنكـر، يرتـدي قبعـة ونظـارات لـئلا يتعـرف عليـه أحـد... ؛ وقـد شـاهد نـذير وناديـة فـي أحـد الأيـام، وتابعهمـا فـإذا بهمـا يـذهبان إلـى شـقة فـي بـاب المعظـم، فـي إحـدى العمـارات التـي توجـد فيهـا شـقق لشـرب الخمـر ولعـب القمـار وممارسة الدعارة ...

وبعد أن تأكد ورأى بعينيه خيانة نادية، قرر أن يكون نذير الهدف الثاني في سلسلة الأعداء الذين يجب أخذ الثأر منهم... ؛ فراقب نذيراً مراقبة شديدة، وكذلك راقب العمارة والشقة... ؛ وفي إحدى الليالي المظلمة، وبينما كان الشارع يخلو من المارة عند منتصف الليل، خرج نذير وهو سكران حد الثمالة، يترنح في مشيته لا يميز شيئاً... ؛ و في هذه الأثناء، انقض عليه إسماعيل انقضاض الذئب على الفريسة، فضربه بالسكين ثلاث ضربات في خاصرته، فسقط نذير أرضاً وهو ينزف، وولى إسماعيل هارباً ...

عندما علم إسماعيل بخيانة نادية مع نذير، لم يعد يغضب كإنسان، بل كفكرة... ؛الفكرة المجردة التي تكتشف أن الواقع يخونها ... ؛ كان قد بنى حياته كلها على مبدأ: المرأة إما طاهرة أو عاهرة. لم يكن في قاموسه مساحات رمادية، لا تدرجات، لا حالات وسطى... ؛ وعندما اكتشف أن نادية ليست طاهرة، انتقلت في عقله مباشرة إلى خانة العاهرات، ومن هناك إلى خانة (يجب أن تموت) لكن الموت لم يكن حلا سهلاً ...

كانت نادية تأكل مع الجميع، لا تنفرد بطعام، لا تشرب وحدها. حاول تسميمها ففشل... ؛ حاول دفعها إلى الانتحار معنوياً فلم تبالِ. حاول أن يجعل أخاه يطلقها فلم يستطع ... ؛ كانت نادية أقوى منه بطريقتها ... ؛كانت تفلت منه كل مرة، كالماء بين الأصابع ...!!

بعد ثلاثة اشهر ، رجعت نادية إلى بيت السادة... ؛ لم يذهب بعدها إسماعيل إلى تلك المنطقة، ولم يسأل عن مصير نذير كي لا يثير الشكوك حوله، فهو يعلم علم اليقين أن الناس تعرف المجرم بسهولة من خلال أسئلته ودورانه حول مكان الجريمة... ؛ لذا قرر الاختفاء وعدم تتبع الأمر، وكأنه اكتفى بهذه الطعنات الثلاث ...

صار السيد إسماعيل ينظر إلى نادية شزراً وكأنه يريد شرب دمها... ؛ إلا أن مراعاته لمشاعر أخيه وحسابه لحال أبناء أخيه كانا يجعله يتراجع

عـن الإقـدام علـى أي فعـل طـائش قـد لا تحمـد عواقبـه... ؛ فهـو يضـع نصـب عينيه سمعته وسمعة أهله...

وتـذكر نصـيحة أحـد الشـيوخ الـذي نصـح شـاباً أراد قتـل أختـه التـي رآهـا تمـارس الجـنس مـع شـخص غريـب، ثـم تـردد فـذهب إلـى أحـد شـيوخ الـدين يسـأله عـن ذلـك... ؛ فـرد الشـيخ عليـه قـائلاً: "الكثيـر منـا يمـارس الزنـا، نسـاءً ورجـالاً، لكـن المفضـوحين منـا بهـذا العمـل قليـل جـداً، والـذين قتلـوا بسـبب هـذه الفعلـة أقـل بكثيـر... ؛ إلا أن الـذين قتلـوا بسـبب فعـل الزنـا صـاروا عـاراً تعيـر بـه الأجيـال، وحكايـة علـى كـل لسـان، وكـأن الآخـرين لـم يمارسـوا الزنـا طـوال حيـاتهم سـوى هـذه المسـكينة المقتولـة أو ذلـك الشـاب المقتـول... ؛ وعليـه، لا تفضـح نفسـك بيـدك، فلـو قتلتهـا ستصـبح أسـطورة للأولـين والآخـرين، وتعيـر بهـا أنـت وابنـك وحفيـدك... ؛ بينمـا لـو سـترتها، قـد لا يعلـم بـالأمر سـواك وهـي والغريـب فقـط... ؛ فـلا تتهـور فتصـبح حكايـة علـى الألسـن، وعنـدها حتـى الزانـي والزانيـة بـل والمشـهورة بالزنـا يعيّرونـك بأختك؟!

كـل هـذه الأفكـار كانـت تجـوب عقـل إسـماعيل وتعـتلج فـي صـدره، حتـى قـرر محاولـة سـترها، إلا أنـه حـاول مـراراً وتكـراراً أن يـدبر أمـراً سـريا ، لكنـه فشل في ذلك ... .

دخـل إسـماعيل فـي إحـدى المـرات إلـى بيـتهم، فقـد رجـع مـن الـدوام مبكـراً علـى غيـر عادتـه... ؛ وبينمـا دخـل، إذا بـه يـرى زوج أختـه قحطـان عنـدهم، يجلـس بـالقرب مـن ناديـة بوضـع مريـب... ؛ فمـا إن رآه حتـى ارتبـك قحطان، وهي كذلك، انتابهما القلق والاضطراب ...

فقال له إسماعيل: أين أختي خديجة؟ لماذا جئت وحدك ؟!

فقال:جئت لأطمئن على عمتي أمك، فقد قيل لي إنها مريضة

صـــار إســـماعيل يشـــك بـــالجميع بســـبب ناديـــة ... ؛وشـــاءت الأقـــدار أن تمـــوت أم الســـيد إســـماعيل وتلتحـــق بـــالملا الأعلـــى، فهـــي امـــرأة كبيـــرة بالســـن ومريضـــة... ؛ وبعـــد انتهـــاء مراســـيم العـــزاء ومـــرور أربعـــين يومـــاً علـــى وفاتهـــا، قـــرر فاضـــل أن تقـــوم زوجتـــه ناديـــة بالتســـوق مـــن الســـوق بـــدلاً عـــن أمـــه المرحومة ...

ثم جاء القصاب حسوني :

بـــدأت ناديـــة بالـــذهاب إلـــى الســـوق، وصـــارت تتـــأخر هنـــاك بحجـــة التســـوق... ؛ وفـــي أحـــد الأيـــام، وبينمـــا إســـماعيل فـــي الســـوق، جـــاءت زوجـــة أخيـــه وذهبـــت إلـــى القصـــاب الشـــاب المـــدعو حســـوني، وتبـــادلا التحايـــا وكأنهمـــا يعرفـــان بعضـــهما منـــذ زمـــن طويـــل ... ؛ فســـأل إســـماعيل أحـــدهم عـــن علاقـــة القصـــاب حســـوني بتلـــك المـــرأة، فـــرد عليـــه وبـــلا اكتـــراث: إنـــه ينكحهـــا مقابـــل أن يعطيهـــا كيلو لحم مجاناً... !!

حســـوني كـــان مختلفـــاً عـــن محمـــد ونـــذير... ؛ لـــم يكـــن عاشـــقاً، ولا حبيـــب صـــبا، ولا جـــاراً وســـيماً... ؛ كـــان شـــابا قويـــاً رياضـــيا ، قصـــاباً فـــي الســـوق، يبـــادل اللحـــم بـــالجنس كـــأي ســـلعة تجاريـــة... ؛ معـــه، وصـــلت ناديـــة إلـــى أخفـــض نقطـــة فـــي هبوطهـــا، أو ربمـــا إلـــى أعلـــى نقطـــة فـــي تحررهـــا، حســـب الزاويـــة التـــي تنظر منها ... ؛كيلو لحم مجاناً مقابل جسدها ...!!

انتظـــر إســـماعيل، فـــرأى ناديـــة تـــذهب لتتبضـــع مـــن دكـــاكين الســـوق، ثـــم رجعـــت أخيـــراً إلـــى القصـــاب حســـوني، فأشـــار إليهـــا وتبعتـــه اتبـــاع الفصـــيل أثـــر أمـــه، ودخلـــت معـــه إلـــى إحـــدى المحـــلات... ؛ وبعـــد أن دخـــلا، أغلـــق حســـوني بـــاب المحـــل... ؛ وبعـــد عشـــرين دقيقـــة، خرجـــت ناديـــة وقـــد احمـــرت وجنتاهـــا ... ؛ تطـــرق ببصـــرها إلـــى الأرض وتمشـــي بخطـــوات متثاقلـــة ... ؛ بينمـــا خـــرج وراءهـــا حســـوني وهـــو منـــتشٍ ويمشـــي بزهـــو كالطـــاووس، وذهـــب كـــل منهمـــا إلى حاله ...!!

هنـــا دخـــل حســـوني إلـــى قائمـــة التصـــفيات والثـــأر... ؛ فقـــد جمـــع إســـماعيل معلومـــات كاملـــة عنـــه... ؛ وفـــي إحـــدى الليـــالي، وبينمـــا كـــان حـــارس الســـوق

نائمـــاً، قـــام إســـماعيل بجلـــب قنـــاتي بنـــزين وســـكبها علـــى محـــلات حســـوني، وأشـــعل النـــار فيهـــا حتـــى غـــدت كالعصـــف المـــأكول، وأضـــحت أثـــراً بعـــد عـــين ...

أحـــرق محـــل حســـوني فـــي تلـــك الليلـــة، ورآه يحتـــرق كجســـد ناديـــة الـــذي تخيلـــه يحترق في نار جهنم ...

وهكـــذا اســـتمرت العمليـــة، حتـــى أحصـــى الســـيد إســـماعيل عـــدد الزنـــاة بعشـــرين شخصاً... .

لم يكن يرى في الرجال الذين اقتربوا من نادية سوى ذئاب ...

لم يسأل نفسه: من فتح الباب أولاً؟

الذئب... أم الرغبة؟

عنـــدها تعـــب مـــن المطـــاردة وأخـــذ الثـــأر؛ تعـــب مـــن المتابعـــة ، مـــن الســـكاكين، مـــن رائحـــة البنـــزين، مـــن العيـــون التـــي يشـــكّ فيهـــا حتـــى وإن كانـــت بريئـــة، وعلـــم أن الخلـــل فيـــه لا فـــي الزنـــاة، وأن الغلـــط محصـــور بزوجـــة أخيـــه ناديـــة، ولا علاقـــة للشـــباب بـــالأمر، إذ لـــم يغتصـــب أحـــدهم ناديـــة ولـــم يجبرهـــا علـــى الســـفاح أبـــداً ... ؛واكتشـــف متـــأخراً أن معركتـــه لـــم تكـــن مـــع الرجـــال... بـــل مـــع صـــورةٍ صـــنعها فـــي رأســـه عـــن الشـــرف، ثـــم وضـــعها فـــوق أعنـــاق النـــاس كحـــدّ الســـيف ... ؛ وعنـــدما نظـــر إلـــى صـــور ضـــحاياه، وجـــدهم أنبـــل مـــن العـــاهرة نادية بكثير ...!!

كـــانوا شـــباباً عـــاديين، بعضـــهم وســـيم، بعضـــهم قبـــيح، بعضـــهم غنـــي، بعضـــهم فقيـــر... ؛ كـــانوا بشـــراً يخطئـــون ويـــذنبون ويطلبـــون المتعـــة حيـــث يجـــدونها... ؛ كانوا أنذالاً بموازينه، لكنهم لم يكونوا مغتصبين ...

الآن، بعضـــهم مـــات، وبعضـــهم شـــرد، وبعضـــهم فقـــد تجارتـــه وبيتـــه وســـمعته , وبعضـــهم تـــأذى ماديـــا ... ؛وكـــل ذلـــك لأن امـــرأة واحـــدة قـــررت أن تفـــتح ساقيها لمن تشاء .... .

فجـأة، ســأل نفســه الســؤال الــذي لــم يســأله مــن قبــل ... ؛لمــاذا هــي المذنبــة وحدها؟!

كــانوا مجــرد رجــال اســتجابوا لنــداء امــرأة، امــرأة واحــدة، امــرأة كانــت تبحــث عــن نفســها فــي أجســادهم، امــرأة كانــت تحــاول أن تثبــت لنفســها أنهــا لا تــزال حيــة، امــرأة كانــت ضــحية مــثلهم تمامــاً، ضــحية جســدها، ضــحية رغبتهــا، ضحية مجتمع علمها أن الجسد إما شرف أو عار، لا شيء بينهما...

كــان إســماعيل وإياهــا وجهــين لعملــة واحــدة: كلاهمــا ضــحية شــريعة لا تعتــرف بالرماديــات، شــريعة تقســم النســاء إلــى طــاهرات وعــاهرات، والرجــال إلــى شــرفاء وخونــة، ولا تتــرك مســاحة للبشــر لأن يكونــوا مجــرد بشر...

فــي تلــك الليلــة، رأى حلمــاً غريبــاً... ؛كــان يحمــل مــرآةً كبيــرة ويكســر بهــا وجوه المدينة... ؛ لكن كلّ شظيةٍ كانت تعكس وجهه هو ...

اســتيقظ مــذعورا ... ؛فهــم أخيــراً أن الشــرف لا يُحمــى بالــدم،ولا تُغســل السمعة بالنار،ولا يُرمّم البيت بهدم بيوت الآخرين ...

عنــد الفجــر، وقــف إســماعيل علــى ســطح البيــت ... ؛ نفــس الســطح الــذي رأى عليــه ناديــة تنشــر الغســيل، نفــس الســطح الــذي كــان محمــد يقفــز عليــه ... ؛ الســطح الــذي شــهد أول خطيئــة فــي بيتــه ... ؛الآن،الســطح خــالٍ :لا حمــام، لا غســيل، لا ناديــة، لا محمــد ... ؛فقــط هــو، والشــمس تشــرق مــن وراء دجلــة، والمدينــة تســتيقظ علــى صــرخات الباعــة ونــداءات المــؤذنين واصــوات محركات السيارات والمولدات الكهربائية الاهلية ...

نظــر إلــى الأفــق البعيــد، إلــى حيــث يلتقــي النهــر بالســماء، وتــذكر كلمــات الشــيخ الأخيرة: لا تفضح نفسك بيدك ... .

نـــزل مـــن الســـطح بخطـــى ثقيلـــة ... ؛ دخـــل غرفتـــه، وجمـــع صـــور ضـــحاياه، وأحرقها كلها في منقل صغير كان يستعمله للتدفئة ...

نظـــر إلـــى الرمـــاد، وتـــذكر أن رمـــاد ناديـــة ســـيكون هكـــذا يومـــاً مـــا، رمـــاداً لا يفـــرق بـــين طـــاهرة وعـــاهرة، رمـــاداً لا يعتـــرف بالشـــرف ولا بالعـــار، رمـــاداً يساوي بين الجميع ...

أخـــرج مـــن الـــدرج مسدســـا ... ؛ وضـــع الفوهـــة فـــي فمـــه , ثـــم ضـــغط علـــى الزنـــاد ... ؛ وتنـــاثر رأســـه ... نعـــى الاثيـــر رحيـــل اســـماعيل , ونهضـــت ناديـــة مـــن الفـــراش وهـــي تـــركض نحـــو غرفتـــه ... ؛ صـــرخت وبكـــت دمـــا بـــدل الدموع ... ؛ وكانها تنعى الطهر الذي تننشده في عالم اخر ...

لـــم يكـــن ميتـــا ,كـــان شـــيئاً آخـــر... ؛كـــان قـــد عبـــر إلـــى الضـــفة الأخـــرى، حيـــث لا شـــرف ولا عـــار، حيـــث لا طـــاهرة ولا عـــاهرة، حيـــث لا قاتـــل ولا قتيـــل ... ؛حيث الإنسان مجرد إنسان .

وكانـــت شـــمس بغـــداد تشـــرق كعادتهـــا، لا تبـــالي بمـــن يمـــوت فيهـــا ولا بمـــن يولـــد، لا تبـــالي بالطـــاهرات ولا بالعـــاهرات، لا تبـــالي بالشـــرفاء ولا بالقتلـــة ... ؛بغداد تشرق فقط...!!

تشرق كأن لا شيء حدث ... ؛وكأن كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد .

عرسٌ مؤجَّلٌ إلى الأبد (٢٧)

لـــم يكـــن محمـــد وشـــيماء مجـــرد اســـمين يُـــذكران فـــي مجـــالس العائلـــة كاحتمـــالٍ مؤجـــل، بـــل كانـــا مشـــروع حيـــاةٍ مكتوبًـــا بخـــطّ الأهـــل قبـــل أن يعرفـــا كيـــف يكتبـــان اسميهما.

نشـــآ كأنهمـــا شـــقّان لـــنفس الجـــدار: متقـــابلان، متجـــاوران، وبينهمـــا مســـافة صغيرة تكفي لتمرّر فيها النظرات ما لا تقوله الألسن.

في الطفولة، لم يكن الحبّ حبًّا بعد؛ كان عادةً ناعمة: أن يختار أحدهما الجهة نفسها التي يختارها الآخر، أن يضحكا على السبب نفسه، أن يصمتا في اللحظة ذاتها... ؛ ومع الوقت صار الصمت بينهما لغة كاملة، أكثر صدقًا من أي وعد.

العائلة، بثقةٍ اجتماعيةٍ قديمة، كانت تقول:

"هذان لبعضهما... عندما يكبران فقط."

لكن "عندما" كانت كلمةً خادعة، تبدو بريئة لكنها تحمل في داخلها فخّ الزمن.

كبر الاثنان، لا كخط مستقيم، بل كشيءٍ يلتفّ على نفسه، كحلزونٍ يجرّ ذاكرته خلفه.

محمد صار أكثر هدوءًا مما ينبغي لشاب، وشيماء أكثر يقظةً مما تحتمل فتاة... ؛ كانا يعرفان أن ما بينهما ليس صداقة، لكنه أيضًا لم يصل إلى اسمه الأخير بعد.

كان يكفي أن يلتقيا في غرفة واحدة حتى يتغيّر الهواء.. , لا حديث طويل، فقط جمل قصيرة تتعثر قبل أن تكتمل:

قال محمد ذات مساء:

"لو أن الأشياء تُترك لحالها... لكانت اكتملت منذ زمن."

فأجابت شيماء وهي تنظر إلى الأرض:

"لكنها لا تُترك."

لم يسألا: من الذي لا يتركها؟ كان الجواب واضحًا أكثر من اللازم.

جاء الموت أولًا كضربةٍ جانبية لا تبدو موجهة إليهما، لكنه كان يعرف طريقهما جيدًا.

مات عمّ محمد، والد شيماء... ؛ وهكذا سقط الحلم الأول، ليس كفكرة، بل كجنازة تمرّ بينهما... ؛ ففي ذلك اليوم، لم يبكيا فقط على الرجل، بل بكيا على شيء لم يولد بعد.

قال الناس: "هذه ظروف... التأجيل حكمة."

لكن محمد فهمها بطريقة أخرى:

"هناك شيء لا يريد لنا أن نصل."

ومرّ وقتٌ آخر، ثم جاء فقدٌ ثانٍ، كأنه يؤكد القاعدة.. , هذه المرة كان أقرب، أكثر فظاعة في تفاصيله: والد محمد، عمّ شيماء.. , صار الموت كأنه يختبرهما: كلما اقتربا خطوة، أخذ شيئًا من الطريق.

بدأت شيماء تشعر أن الفرح ليس غياب الحزن، بل شكله المؤجل.. , وأن كل فكرة جميلة تمرّ في رأسها تترك خلفها أثر حدادٍ خفيف، لا يُرى لكنه يُحس.

محمد، من جهته، صار أكثر صمتًا.. , لم يعد يتحدث عن "البيت القادم وعش الزوجية "، بل عن "ما يمكن أن يحدث قبل أن يصل".

ثم جاء حسين.

طفل صغير، ابن أختها، لم يتجاوز سنواته الأولى، لكنه احتل قلبها بطريقة لا تفسّرها اللغة... ؛ كانت تحمله كأنها تعتذر منه عن العالم.. , كان يضحك بلا سبب، وهي تراقبه كأنها تراقب الحياة وهي تُمنح مجانًا قبل أن تُسحب.

وفجأة، سُحب.

موته لم يكن حدثًا فقط، بل كسرًا داخليًا صامتًا.. , شيماء لم تصرخ، لم تنهَر أمام أحد، لكنها في الداخل شعرت كأن شيئًا لم يعد يصلح للإصلاح.

ففي كل مرة يتأجل موعد الزفاف بكارثة .

قالت لمحمد في تلك الليلة:

"كل شيء يقترب منا... ثم يموت."

فأجابها:

"ربما نحن المكان الخطأ للأشياء الجميلة."

لم يكن كلامه فلسفة، كان اعترافًا بالخوف.

حين قررا الزواج أخيرًا، لم يكن القرار فرحًا بقدر ما كان تحديًا... ؛ كأنهما يقولان للحياة: سنفعلها رغمك، لا لأننا مطمئنون، بل لأننا تعبنا من الاحتمال والترقب .

لم يكن عرسًا بالمعنى المعروف.. , كان شيئًا أقرب إلى إعلان سرّي عن نجاة مؤقتة.

فندق متواضع في الكاظمية.. , جدران تعرف الصمت أكثر مما تعرف الموسيقى... ؛ جاء القليل من الأقارب، أولئك الذين يشبه حضورهم اعترافًا بأن الفرح ممكن، حتى لو كان هشًا.

قال أحدهم:

"الله يتمم بخير..."

لكن الجملة كانت تبدو كأنها تُقال على استحياء، وكأن الدعاء لم يعد واثقًا من نفسه.

دخل محمد الفندق كمن يدخل اختبارًا لا يعرف قواعده... ؛ كل شيء بدا عاديًا: الممر، الأبواب، الإضاءة الخافتة... , لكن داخله كان هناك صوت غير مسموع يقول: لا تكمل.

عند باب الغرفة، توقف.. , وضع يده على المقبض.

وفي تلك اللحظة، حدث شيء لم يره أحد من الخارج.

كأن جسده قرر أن يتخلى عنه.

سقط.

لم يكن سقوطًا دراميًا، بل هادئًا بشكل يثير الذهول... ؛ و كأن الموت لم يحتج إلى ضجيج هذه المرة، فقط دخل وجلس مكانه.

لم تصرخ شيماء.

الصوت لم يجد طريقه.

وقفت، تنظر إليه، كأنها تحاول أن تفهم إن كان هذا جزءًا من الحفل أم نهايته.

الفستان الأبيض الذي كان يفترض أن يكون وعدًا، صار فجأة وثيقة غياب. الموسيقى التي لم تُعزف كانت أعلى من أي صوت.

اقترب أحدهم، ابتعد آخر، لكن أحدًا لم يقترب من الحقيقة.

في تلك اللحظة، لم يمت محمد فقط.

بل مات احتمال الحياة الذي كان يمكن أن يحدث بينهما.

صار العرس فكرة بلا زمن، والحب كائنًا عالقًا بين البداية التي لم تكتمل والنهاية التي جاءت مبكرًا جدًا.

أما شيماء، فبقيت واقفة في منتصف المعنى:

لا هي عروس،

ولا هي أرملة كاملة التعريف،

بل شيء ثالث لا اسم له.

لاحقًا، حين يحاول الناس رواية القصة، يقولون:

"كان هناك عرس لم يكتمل."

لكن الحقيقة أعمق وأقسى:

لم يكن عرسًا لم يكتمل...

بل كان حياةً كاملةً أُجّلت حتى اختفت.

نعم , لم تصرخ شيماء... ؛ كان الصمت أكبر من الصوت...!!

صار الفستان شاهدًا، والمفتاح رمزًا، والغرفة فراغًا لا يُسكن... ؛ هكذا تأجّل الزواج إلى الأبد، لا بوصفه حدثًا لم يكتمل، بل بوصفه قصةً تعلّم الناس أن بعض الأحلام لا تُكسَر، بل تُحفَظ معلّقةً بين السماء والأرض، وأن الحبّ، حين يُطارد بالفقد، يتحوّل من وعدٍ بالحياة إلى مرآةٍ للمجتمع، تفضح هشاشتنا أمام قدرٍ لا يوقّع على عقوده أحد...

عتبةً بين بابين (٢٨)

في غبشٍ أصيلٍ لم أعد أميّز إن كان خارجًا من رحم المدينة أم من تجاويف روحي، كنت أمشي كمن يُجرّ على خيطٍ خفيّ لا يُرى.

المدينة لم تكن مدينةً بالمعنى المعتاد؛ كانت كائنًا نصف حيّ، يتنفس من شقوق الأرصفة، ويغمض عينيه حين أمرّ كأنه يتظاهر بالنسيان.

الأرصفةُ تتهامس، والنوافذُ المغلقةُ تحدّق فيّ كأنها عيونٌ فقدت أصحابها وبقي فيها الوعي فقط.. , كل شيءٍ هنا يبدو كأنه انتهى للتوّ، أو أنه على وشك أن يبدأ بطريقة خاطئة.

كنت غريبًا حتى عن ظلي.

عند منعطف شارعٍ يلتف كفكرةٍ مترددة، ظهر الرجل أولًا.

سمسارٌ، أو هكذا بدا.. , أنيقٌ أكثر من اللازم، كأن الأناقة قناعٌ يخفي تحته شيئًا غير قابل للتصريح.. , ابتسامته لم تكن ابتسامة؛ كانت حركة محسوبة، أشبه بجرحٍ يعرف أين يقع لكنه لا ينزف بعد.

وبجانبه كانت هي.

امرأة لا يمكن اختصارها بوصف.

ليست جميلة فقط... , بل مُربِكة، كأن الجمال فيها ليس صفة بل حادثة تقع للواقع نفسه.. , كانت تنظر إليّ كمن يعرفني دون أن يلتقيني، أو كمن عاشني في احتمالٍ آخر من الحياة ولم يُكتب له أن يحدث.

قال الرجل بصوت دافئ بشكلٍ مريب:

— أنت تبدو متعبًا من الطريق... لماذا لا ترتاح قليلًا؟

وأضافت هي، دون أن تحرّك شفتيها كثيرًا، كأن الكلام يتسرّب من جلدها:

— لدينا شقة... , لا تُشبه أي مكان مررت به.. , هناك، لا تحتاج أن تكون أحدًا.

تبادلنا التحية.

كانت تحيتهما مثل ماءٍ مالح: يبرد اللحظة لكنه يترك في الفم عطشًا أعمق.

كنت أعرف أن هناك موعدًا ينتظرني.

موعـدًا لا أعـرف ملامحــه، لكننــي أعـرف أنــه لـيس عاديًــا.. , كــان أقــرب إلــى عهــدٍ قــديمٍ قطعتــه علــى نفســي فــي لحظــة ضــعف أو صــفاء لا أســتطيع تذكرها.. , شيء يشبه الوفاء لفكرةٍ عن نفسي لم تُهزم بعد.

لكن العرض كان يغري بطريقة لا تُشبه الإغراء.

كان يشبه الراحة حين تأتي متأخرة، أو النجاة حين تفقد معناها.

قالت المرأة:

ـــ لن نسألك عن ماضيك... ولا عن وجهتك.

ثم ابتسمت:

ـــ نحن فقط نمنحك أن تتوقف عن كونك مُطارَدًا.

دفعتُ حقيبة سفري نحوها دون أن أفكر.

كأن اليد لم تكن يدي.

كأنني أختبر نفسي من الخارج.

التقطتها بخفّة غير بشرية تقريبًا، وقالت:

ـــ سأسبقك إلى هناك.. , الشقة جاهزة.

وأشارت إلى بناية شاهقة، ترتفع كإصبعٍ يوبّخ السماء أو يستفزها.

مضيتُ نحو موعدي.

لكن الطريق لم يكن طريقًا؛ كان جدالًا داخليًا يمشي على قدمين.

كل خطوة نحو الهدف كانت تعود بي نصف خطوة إلى الشقة.

كنت أقول لنفسي: "الوفاء."

ثـــم يـــردّ شـــيء فـــي داخلـــي: "ولمـــن؟ لصـــوتٍ لا تعرفـــه؟ أم لصـــورةٍ صـــنعتها كي تتعذب بها؟"

أنهيت اللقاء على عجل، كمن يهرب من محكمةٍ داخلية، ثم عدت.

المدينة الآن مختلفة.

كأنها تعلم أنني قررتُ شيئًا، فبدأت تختبر ضعفي.

ركضت.

لم أكن أركض نحو الشقة فقط... بل كنت أركض من نفسي أيضًا.

عند البناية، كان الدرج أشبه بفمٍ مفتوح.

كل درجة تصعد بي نحو احتمال، لا نحو مكان.

وقفت أمام الباب.

قبل أن أطرق، انفتح.

لم يكن انفتاح باب... بل انكسار حدٍّ بين قرارين.

ظهرت هي.

قريبة أكثر مما ينبغي، كأن المسافة بيننا اختُزلت عمدًا لتُفقدني توازني.

قالت بصوتٍ ناعم، ليس جميلًا فقط بل مُخدِّرًا:

— تعال... سأريك حياة لا تحتاج فيها أن تسأل عن معناها.

لم تقل "حبًا".

لكن الكلمة كانت واقفة خلف جملتها، تنتظر أن تُقال ثم خافت.

خطوت.

وفي تلك اللحظة، رأيته.

رجلٌ كهلٌ يجلس عند عتبة الدرج المؤدي إلى الداخل.

لم يكن وجوده طبيعيًا ولا مفاجئًا... بل كان كأنه كان هناك منذ البداية، منذ أول فكرة خطرت لي عن هذه الشقة.

وجهه مزيج من وقارٍ موجع وطمأنينةٍ تُشبه الحكم النهائي.

عيناه ليستا عيني مراقب، بل عيني من يعرف النهاية لكنه لا يتدخل فيها إلا حين يُطلب منه أن يكون مرآة.

نظر إليّ.

لم يقل شيئًا.

لكن صمته كان أثقل من كل عروض العالم.

في نظرته شيء يشبه الأسف... وشيء يشبه العتب... وشيء يشبه المعرفة المؤلمة بأنني لست أول من يقف هنا.

تجمدت.

المرأة لم تعد تقنعني، ولا الرجل الكهل يردعني، ولا أنا أستطيع الرجوع.

قلت بصوت داخلي لا يُسمع:

"من أنت؟"

فأجابني دون كلام:

"أنا أنت... حين لا تختار أن تكذب على نفسك."

فهمت فجأة.

لم تكن الشقة مكانًا.

لم يكن العرض حياةً أخرى.

لم تكن المرأة جسدًا فقط، بل تجسيدًا لكل ما كنت أؤجله من رغبات، من تعب، من حاجة لأن أُحَب دون تفسير.

وكان الرجل الكهل هو النسخة التي لا تتنازل، التي تتذكر دائمًا، التي تُفسد المتعة لأنها تعرف ثمنها.

والمدينة... كانت مجرد جهاز اختبار.

المرأة اقتربت، همست:

— لماذا تتردد؟ كل ما أردته هنا.

لكن صوتها الآن لم يعد إغواءً فقط، بل اعترافًا بأن الإغواء نفسه وحيد.

والكهل لم يتحرك، لكنه قال داخليًا:

"اختر... لكن اعرف أنك ستدفع ثمن اختيارك بنفسك."

لم أكن بين بابين فقط.

كنت البابين معًا.

عتبةً تمشي على وعيها، وتتعثر بكل احتمال فيها.

وفي لحظة صمتٍ طويلة، أدركت أن الحب ليس في الشقة، ولا في الهروب، ولا في الموعد الذي تركته خلفي... ؛ بل في ذلك الألم الدقيق الذي يجعلني غير قادر على الخيانة بسهولة، ولا قادر على النجاة بلا خسارة.

وقفت.

لا صاعدًا... ولا نازلًا.

فقط أنا، كما لم أكن من قبل:

كائنٌ معلّق بين رغبةٍ تريد أن تعيش، وضميرٍ يصرّ أن الحياة ليست نجاةً فقط، بل معنى أيضًا.

وما زلت هناك...

على العتبة.

عازفُ المنافي و سيمفونية الرماد (٢٩)

كان مهند يعتقد، منذ طفولته الأولى، أن المدن تموت مثل البشر؛ ببطءٍ، ومن الداخل.

وكانت مدينته، الواقعة في خاصرة العراق الجنوبية، مثالًا حيًّا على ذلك الموت الطويل.

مدينةٌ مغطاة بطبقةٍ رقيقة من الغبار الحربي، كأنّها أُخرجت لتوّها من تحت أنقاض حربٍ قديمة ولم يُكمل أحد دفنها بعد.

الشوارع فيها تشبه شرايين متيبّسة، والناس يمشون بوجوهٍ مطفأة، كأنهم يحملون نعوشهم داخل صدورهم.

في الليل، كانت صور الطاغية تتدلّى فوق الجدران مثل آلهةٍ جائعة، تراقب أنفاس السكان.

وفي النهار، كانت المدارس والثكنات والمساجد والملاعب تتشابه؛ كلها مؤسسات لتدريب الخوف.

نشأ مهند في بيتٍ صغير قرب نهرٍ متعب، مع أبٍ صامتٍ كجنديٍّ نجا من معركة ولم ينجُ من ذكرياتها، وأمٍّ تخبّئ قلقها داخل الدعاء.

كانت الأم تضع الطعام على المائدة كما لو أنها تضع قربانًا للحياة، بينما الأب يحدّق طويلًا في الفراغ، كأنه ينتظر شخصًا لن يعود.

ومنذ طفولته، شعر مهند بأن هناك خطأً هائلًا في العالم.

لم يكن يعرف اسمه، لكنه كان يشعر به في ارتجاف أصابع أبيه عندما يُذكر اسم الرئيس، وفي الهمسات التي تنطفئ فجأة حين يقترب أحد الغرباء، وفي ذلك الخوف الغامض الذي يجعل الناس يبتسمون وهم يكرهون.

كبر وهو يتقن مهارة النجاة الوحيدة في البلاد:

أن تقول شيئًا، وتفكّر في نقيضه.

حين بلغ السابعة عشرة، دخل المكتبة العامة الوحيدة في المدينة.

كان يظنّ أنّ المكتبات تشبه الأبواب السرية، وأن الكتب يمكن أن تنقذ الإنسان من الاختناق.

لكن المكان بدا كمقبرةٍ للرؤوس المقطوعة.

رفوفٌ مائلة، كتبٌ متآكلة، رائحة رطوبةٍ تشبه رائحة ثياب الموتى.

حتى الضوء هناك كان أصفر ومريضًا.

اقترب من أمين المكتبة وسأله بخجل:

ـــ هل توجد كتب عن الفلسفة الحديثة... أو الماركسية؟

رفع الرجل رأسه ببطء.

كان أصلع، ذا وجهٍ شاحب وعينين حادّتين كمسامير صدئة.

حدّق فيه طويلًا، ثم قال بصوتٍ بارد:

ـــ نحن لا نضع السموم في مكتباتنا.

شعر مهند بأن الجملة لم تكن جوابًا، بل تهديدًا.

التفت حوله.

كان بعض الرجال يجلسون بصمتٍ قرب الجرائد الرسمية، يراقبون الداخلين بعيون ميتة .

أدرك فجأة أن المكتبة ليست مكانًا للمعرفة، بل فرعًا خفيفًا للمخابرات والامن .

خرج منها وهو يشعر بأن الكتب نفسها معتقلة.

في الطريق، لمح أمًّا ترتدي السواد وهي تحمل صورة ابنها الذي قُتل في الحرب العراقية الإيرانية.

كانت تمشي كأنها تحمل العراق كلّه فوق ظهرها.

عندها فهم مهند أن البلاد لا تستهلك أبناءها فقط، بل تلتهم حتى أحلامهم الصغيرة.

بعد أسابيع، حاول أن يجرّب حياةً أخرى.

ذهب إلى نادٍ رياضيٍّ شعبيّ، يحمل حذاءه القديم وكرةً من الأمل المرتبك.

كان يريد فقط أن يركض.

أن يشعر بأن جسده ليس جزءًا من آلة الخوف.

استقبله مسؤول النادي، رجلٌ ضخم برائحة تبغٍ نفّاذة، وسأله قبل أي شيء:

ـــ أنت بعثي؟

تجمّد مهند.

تعثّرت الكلمات في حلقه.

ـــ لا... لكن...

اقترب الرجل منه أكثر، حتى شعر بحرارة أنفاسه:

ـــ ينبغي أن تكون بعثيًا... لكي تلعب.

في تلك اللحظة، شعر مهند أن العالم كله يتحوّل إلى استمارة حزبية.

حتى الركض يحتاج موافقةً أمنية.

تمتم مرتبكًا:

ـــ إن شاء الله...

ثم غادر بسرعة، كمن يهرب من كمين.

ومنذ ذلك اليوم، صار يكره الملاعب؛ لأنها ذكّرته بأن السلطة لا تكتفي بالتحكم في السياسة، بل تريد أن تستعمر حتى عضلات البشر.

حين ضاقت به الحياة، لجأ إلى الدين.

دخل المسجد ذات مساءٍ شتوي، وكان المطر يسقط خارجًا مثل بكاءٍ كثيف.

صلّى للمرة الأولى بخشوع المرتبكين، أولئك الذين يبحثون عن الله لا عن الجنة.

لكن البلاد التي كانت تخاف من الكتب، كانت تخاف من الصلاة أيضًا.

بعد أسابيع، داهمت قوات الأمن البيت.

دخلوا كالعاصفة، قلبوا الأثاث، وجرّوه أمام أمّه التي أخذت تصرخ باسمه كما تصرخ الأمهات على أبنائهن الغرقى.

في الزنزانة، تعرّف مهند إلى الوجه الحقيقي للدولة.

الرطوبة.

الأسلاك الكهربائية.

رائحة البول والدم.

الرجال الذين يتحوّلون تحت التعذيب إلى حيواناتٍ جريحة أو قدّيسين.

كان يسمع في الليل صرخات المعتقلين تتصاعد عبر الجدران، فتبدو السجون كلها كأنها آلة موسيقية ضخمة تعزف سيمفونية الألم العراقي.

سأله الضابط ذات مرة:

ـــ إلى أي حزبٍ تنتمي؟

أجاب بصوتٍ مبحوح:

ـــ لا أنتمي لأحد.

ضحك الضابط طويلًا، ثم قال:

ـــ هذه أكبر جريمة.

خمسة أشهر قضاها هناك، قبل أن يخرج بوساطة رشوةٍ دفعها أبوه، الذي باع قطعة الأرض الوحيدة التي يملكها.

لكن شيئًا ما كان قد انكسر داخله إلى الأبد.

خرج من السجن بعينين أكبر عمرًا من وجهه.

صار يمضي أيامه في السينمات القديمة، يشاهد أفلامًا أوروبية لا يفهم نصف حواراتها، لكنه يفهم حزنها كاملًا.

كان يشعر أن الشخصيات المنفية على الشاشة تشبهه أكثر من أبناء مدينته.

ثم، ذات مساء، رأى رجلًا يعزف الغيتار في فيلمٍ إسباني.

كانت الموسيقى حزينة، لكنها حرّة.

وفي اليوم التالي، اشترى غيتارًا رخيصًا من سوقٍ شعبيّ.

حين حمله لأول مرة، شعر كأنه يمسك قلبًا خشبيًا نابضًا.

صار يعزف ليلًا في غرفته الضيقة، فيما الكهرباء تنقطع، والحروب تتكاثر، والمدينة تغرق أكثر في الجنون.

وكان يتخيّل نفسه في أماكن لم يرها قط:

باريس، أوسلو، مدريد، أمستردام...

كان المنفى بالنسبة له فكرةً رومانسية أولًا؛ نافذةً مضاءة في آخر النفق.

لكن المنفى الحقيقي لم يكن قد بدأ بعد.

عام ٢٠٠٣، انهار كل شيء دفعةً واحدة.

سقط النظام، لكن البلاد لم تتحرّر؛ فقط تغيّر شكل الخراب.

النهب، الفوضى، الميليشيات والحركات والفصائل والجماعات ، الجثث، الطائفية، الوجوه الجديدة التي تحمل الكراهية القديمة نفسها.

أدرك مهند أن العراق صار غرفةً تحترق من جميع الجهات.

وفي ليلةٍ بلا قمر، اتفق مع مهرّب كردي على الهروب.

حمل غيتاره، وحقيبةً صغيرة فيها بعض الملابس وصورةً قديمة لأمه.

عبر الحدود مشيًا بين الجبال.

كان البرد قاسيًا إلى درجة أن أنفاسهم بدت كأرواحٍ تخرج من أفواههم.

في الطريق، مات شابٌ سوريّ من التعب.

دفنه المهرّب بسرعة تحت الثلج، ثم قال ببرود:

— أوروبا بعيدة... ومن يتأخر يموت.

حينها فهم مهند أن المنفى ليس رحلةً نحو الحياة فقط، بل ممرّ طويل عبر الموت.

وصل إلى أوروبا أخيرًا.

في البداية، شعر بصدمة الحرية.

الناس هنا لا يهمسون.

لا صور لقائدٍ يراقبهم.

لا أحد يسأله عن مذهبه أو حزبه أو صلاته.

لكنه اكتشف شيئًا آخر:

الحرية لا تمحو الوحدة.

استأجر غرفةً صغيرة في ضاحية باردة.

كان الثلج يتراكم خلف النافذة، بينما هو يعزف وحيدًا في الليل، كأنّه يكلّم وطنًا لا يسمعه.

صار يعزف في محطات المترو والساحات العامة.

وكان المارّة يلقون النقود في علبته المعدنية ثم يرحلون، دون أن يعرفوا أن الرجل النحيل الذي يعزف أمامهم يحمل داخله بلدًا كاملًا من المقابر.

ذات مساء، توقفت أمامه فتاةٌ فرنسية تُدعى "إيلين".

كانت تدرس الأدب المقارن، ولها عينان بلون الشتاء.

قالت له بعد أن انتهى من العزف:

— موسيقاك حزينة... لكنها جميلة بطريقة تجعل القلب يتذكّر شيئًا لا يعرفه.

ابتسم لأول مرة منذ سنوات.

أحبّها ببطء، كما يحب المنفيّون: بحذرٍ وخوفٍ وحنين.

كانت تحاول أن تنتشله من ذاكرته، لكنه كان يشعر دائمًا أن داخله مدينةً مهدّمة لا تستطيع امرأة واحدة ترميمها.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت نائمة قربه، جلس قرب النافذة يعزف مقطوعة حزينة.

سألته:

— ماذا تسمّي هذه الموسيقى؟

أجاب وهو يحدّق في المطر:

— سيمفونية الرماد.

ثم أضاف بعد صمتٍ طويل:

ـــ هناك أوطان لا تغادرنا حتى بعد أن نغادرها.

مرّت السنوات.

صار مهند يعزف في المسارح الصغيرة والمقاهي الثقافية.

تعلّم اللغة، تعلّم كيف يعيش، كيف يبتسم، كيف يخفي جرحه بأناقة الأوروبيين الباردة.

لكن العراق ظلّ يسكنه كمرضٍ مزمن.

كان كلما رأى طفلًا يضحك في الشارع، يتذكّر أطفال مدينته وهم يكبرون وسط الحروب.

وكلما سمع صفارات الإسعاف، يعود فجأة إلى الزنزانات ورائحة الدم والرطوبة.

أدرك متأخرًا أن المنفى لا يحرّر الإنسان من ماضيه، بل يمنحه مسافةً كافية ليراه بوضوحٍ قاتل.

وفي إحدى أمسيات الشتاء، وقف على جسرٍ فوق نهر السين ، يحمل غيتاره ويعزف للغرباء.

كانت باريس مضاءة كحلمٍ بعيد، لكن داخله كان معتمًا كمدينته الأولى.

عزف طويلًا.

وحين انتهى، شعر أن الموسيقى لم تكن محاولةً للنجاة فقط، بل طريقةً لكي لا يختفي تمامًا.

لأن الإنسان، حين يفقد وطنه، لا يبقى له سوى صوته...

أو الصدى الذي يتركه خلفه.

ظلالٌ تتبدّل حين يطول الغياب (٣٠)

ما عادت الظّنون وحدها تقف بين رائد وابن عمّته رشيد، صار الزمن نفسه هو الجدار، لا يُرى لكنّه صلب، لا يُلمس لكنّه يمنع الاقتراب، يقف بين قلبين كانا ذات يوم ينبضان بإيقاع واحد ...!!

لم يكُن رائد يغادر بيت عمّته أمّ وليد إلّا نادرًا، ذلك البيت الذي ترمّل قبل عشرين عامًا حين خطفت الحربُ زوجَها الملة ابو وليد في حرب الشمال العراقي ، وترك لها أربعة صبيةٍ كأربعة جروح لا تلتئم... ؛ أكبرهم وليد، ذاك الذي ابتلعته جبهات القتال العراقية الإيرانية، فلم يُعثر له على جثّة، ولم يُسمع له صوت، ولم يبقَ منه إلّا اسمٌ تردّده أمّه كلّما أثقلها المساء .

كاد بصر أمّ وليد يذهب حزنًا عليه، وكانت كلما اشتد بها الشوق، ملأت أرجاء الدار بنحيبها، ثم تختمه بعبارتها التي صارت كأنها نشيد دائم :

"يا وليد... يا يمّه... عميت عيني عليك يا وليد يمّه..."

ومع الوقت، اعتاد الجميع هذا الحزن، حتى صار جزءًا من إيقاع الحياة اليومية، لا يُدهش أحدًا، ولا يوقظ أحدًا من سباته ...!!

ولأنّ الزمن قاسٍ حتّى في عاداته، صار الإخوة الثلاثة ومعهم رائد يسمعون هذا النشيد اليوميّ كأنّهم يسمعون أذان الفجر، يألفونه حتّى لم يعودوا يلتفتون إليه، كأنّ الحزن حين يتكرّر يفقد قُدسيّته، ويصير جزءًا من أثاث الدار...!!

كانـــت علاقـــة رائـــد بمجيـــد وحميـــد علاقـــةً يشـــدّها النســـب أكثـــر ممّـــا يشـــدّها القُـــرب، يفصـــل بينهمـــا فـــارق عمـــر بســـيط لكـــنّ المســـافة بـــين أرواحهـــم كانـــت شاســـعة... ؛ أمّـــا رشـــيد، الـــذي يكبـــر رائـــد بعشـــر ســـنين، فقـــد كـــان الكـــون كلّـــه... ؛ كـــان النافـــذة التـــي يطـــلّ منهـــا رائـــد علـــى مـــا وراء الجـــدران الإســـمنتية للحصار، على ما وراء المقاييس الصارمة للعائلة ... .

وكثيـــرًا مـــا كانـــت العمّـــة تحـــذّر رائـــد : إيّـــاك أن تمشـــي خلـــف رشـــيد، هـــذا الولـــد عـــار علـــى ســـمعة (أبـــوه) ... ؛ المرحـــوم كـــان مِلّـــة وديـــن، وهـــذا... يشـــرب الخمر يا بنيّ... ؛ يفضحنا بين الناس ...!!

لكـــنّ التحـــذير كـــان كالمـــاء علـــى صـــخرة ملســـاء، ينزلـــق دون أن يتـــرك أثـــرًا... ؛ كـــان رشـــيد فـــي عينـــيّ رائـــد بطـــلًا مـــن نـــوع آخـــر، بطـــلًا لا يُحـــارب علـــى الجبهـــات، بـــل يُحـــارب الملـــل والفقـــر والحصـــار بطريقتـــه الخاصّـــة، بطريقـــةٍ لـــم يفهمها رائد تمامًا، لكنّه أحبّها لأنّها كانت تُشعره أنّه حيّ .

١- بابٌ يُغلق على عالَمٍ آخر

فـــي ظهيـــرة قائظـــة مـــن ظهـــائر الحصـــار، حـــين كانـــت الكهربـــاء مقطوعـــة كعادتهـــا والبيـــت غـــارق فـــي صـــمت ثقيـــل، نـــادى رشـــيد علـــى رائـــد بصـــوت خفيض :

تعال... ؛ أغلق باب الدار الرئيسي بالمزلاج، وتأكّد إنّ البيت فارغ .

لماذا؟

سأل رائد ببراءة لم تكن كاملة ...

صـــديقي ســـيأتي ومعـــه جهـــاز فيـــديو ,ثـــمّ صـــمت برهـــة وأضـــاف مبتســـمًا: لنشاهد فيلما خليعا (سكسيا)

لم يفهم رائد معنى الكلمة تمامًا، لكنّ احمرار وجهه كشف أنّه يفهم بما فيه الكفاية... ؛ أغلق الباب بالمزلاج الحديدي الثقيل، وتأكّد من غياب العمّة التي ذهبت إلى سوق الشورجة، ومن ذهاب مجيد وحميد إلى المدرسة... ؛ ثم دخل صديق رشيد ومعه جهاز الفيديو كأنّه يحمل صندوق أسرار .

وحين دار الشريط، انفتح بابٌ آخر في روح رائد، باب لم يكن يعرف أنّه موجود... ؛ انغمسوا في المشاهد كأنّهم هم الفاعلون لا المتفرّجون، وكانت أيديهم تمتدّ إلى أجسادهم في الظلمة، فيمارسون ما لم يجرؤوا على تسميته... ؛ ولمّا قارب الفيلم على نهايته، دوّى طرق عنيف على باب الدار .

انتفضوا كملسوعين... ؛ أطفأ رشيد الجهاز، جمعوا المناديل المبعثرة، أخفوا آثار جريمتهم الصغيرة، وركض رائد نحو الباب .

أين كنتم؟! ألا تسمعون الطرق؟!" صرخت العمّة وهي تدخل محمّلة بأكياس البصل والباذنجان والخضار والطماطم الذابلة من شدة الحر .

رائد : كنت في الحمام يا عمة .

لم تصدّقه، لكنّها لم تكذّبه... ؛ ثم أعدّت الغداء، فأكلوا بنهم غريب، كأنّ ما فعلوه قبل قليل قد استنزف منهم طاقةً لا تُعوّض إلّا بالخبز والمرق .

٢-النار تُشرب على مهل

وفي يوم تموزيّ لاهب، حيث كانت بغداد تغلي تحت جلد ساكنيها وتغيب الكهرباء عشرين ساعة في اليوم، دخل رائد غرفة رشيد فوجده يحتسي الويسكي...؛ كان يشربه حارًّا، بلا ثلج ولا ماء، كأنّه يتحدّى جهنّم الداخل بجهنّم الخارج... ؛ وكان كلّما ابتلع جرعة نفخ من جوفه كما ينفخ الحدّاد في كور النار.

تجرب .. ؟سأل رشيد وهو يمسح فمه بكمّ قميصه ...

أومـأ رائـد برأسـه... ؛ وأخـذ رشـفةً صـغيرة، فشـعر كـأنّ سـائلًا مـن لهيـب يسـري فـي أمعائـه، انـتفض جسـده، وركـض إلـى المرحـاض يتقيّـأ حتّـى أحـسّ أنّ أحشاءه ستخرج مع القيء .... .

ضحك رشيد ضحكةً مكتومة: لا زلت صغيرا يا رائد , تكبر وتتعلم .... .

وسـرعان مـا تعلـم رائـد شـرب الخمـر , فبعـد ايـام ؛ أمسـك رشـيد بيـد رائـد وقـاده إلـى مشـوار آخـر... ؛ إلـى امـرأة فـي الأربعـين مـن عمرهـا، فـي زقـاق بعيـد فـي حـي اور ... ؛ وقـد دفـع رشـيد النقـود، وعلّـم رائـد كيـف يبـدأ، وكيـف يستمرّ، وكيف ينتهي.....

و كـان رشـيد يراقـب مـن زاويـة الغرفـة كأنّـه مـدرّب يتـابع أداء تلميـذه، يوجّهـه بصـوت هـامس، يبتسـم حـين يخطـئ، ويـومئ برأسـه حـين يصـيب ... .

خـرج رائـد مـن هنـاك وهـو يشـعر أنّـه عبـر نهـرًا، وأنّ الضـفّة الأخـرى لا تُشـبه الأولـى... ؛ وفـي حديقـة عامّـة قريبـة، احتسـيا خمـرًا رخيصًـا معًـا، وانفجر رائد يضحك من دون سبب واضح، إلّا أنّه شعر للحظة أنّه حيّ .

٣-ثلاثون عامًا... والصمت يأكل الأسماء

ثـمّ حـدث مـا يحـدث دائمًـا: تغيّـرت بغـداد، جـاءت موجـة التـدين، واجتاحـت النفـوس كمـا تجتـاح العواصـف المـدن الهشّـة... ؛ تـأثر رائـد بهـا، وانخـرط فـي صـفوف المتـدينين، مبتعـدًا عـن رشـيد، الـذي صـار ينتمـي إلـى مـاضٍ لـم يعـد يشـبهه ... ؛افترقـا، لا بخصـام، بـل بتباعـدٍ صـامت، كـأن الحيـاة نفسـها قـررت أن تكتـب لكـلٍّ منهمـا طريقًـا مختلفًـا ... ؛ثـم انتقلـت عائلـة رائـد الـى مدينة بعيدة في جانب الكرخ ؛ وانقطعت أخبار رشيد .

ثلاثـون عامًـا مـرّت كغيمـة ثقيلـة، تحمـل مطـرًا لا يسـقط... ؛ وفـي ليلـة مـن ليـالي الخريـف، شـعر بـألم حـاد فـي مثانتـه , ثـم اجـرى الفحوصـات والتحاليـل الطبيـة ؛ وجـاءت الكلمـة التـي كـان وقعهـا كالصـاعقة : ورم خبيـث ... سرطان المثانة .

واتصل والد رائد بابن اخته رشيد , وطلب منه تقديم المساعدة لابنه رائد ؛ وذلك بحكم عمل رشيد في مدينة الطب بصفة معاون طبيب ...وعد رشيد خيرًا؛وخلف السّماعة، لم يقل شيئًا آخر.

وجاء إلى مدينة الطبّ يحمل مرضه في جسده، ويحمل في قلبه أسماء من ماضٍ بعيد...

٤-لقاء الغرباء تحت مصابيح المستشفى

وقف رائد في بهو المشفى، يتذكّر تلك الأيّام الخوالي كأنّها شريط سينمائيّ يعرض بسرعة مجنونة: غرفة رشيد، جهاز الفيديو، زجاجة الويسكي الحارّة، وجه المرأة الأربعينيّة، ضحكته هو في الحديقة العامّة بلا سبب ... ؛ ثم أقبل رشيد ...

لم يره رائد قادمًا بقدر ما أحسّ به... ؛ كان يمشي بخطًى ثابتة، يرتدي معطفًا أبيض، وفي يده مسبحة حسينيّة تدور حبّاتها بين أصابعه بانتظام آليّ... ؛كانت لحيته طويلة مهذّبة، وعيناه تنظران إلى الأمام لا إلى الوجوه .

"السلام عليكم"

صوت رشيد كان محايدًا، نظيفًا من أيّ عاطفة، كأنّه صوت مذيع يقرأ نشرة أخبار قديمة ...!!

وعليكم السلام... رشيد... كيف حالك ؟

مدّ رائد يده، فصافحه رشيد مصافحةً خفيفة، سريعة، كأنّه يلمس مقبض باب سيمرّ منه سريعًا ...

الحمد لله , وكيف حالك انت ... دعنا نرى ملفك الطبي ...

طوال فترة وجود رائد في المستشفى ، كان رشيد يؤدّي عمله اليومي الروتيني ... ؛ يوقّع أوراقًا، يتحدّث مع الممرّضين، يمرّ على غرفته

أحيانًا ليطمئنّ... ؛ لكنّ عينيه لم تلتقيا بعينيّ رائد أبدًا... ؛ لم يسأله عن أهله، عن الماضي، عن ليلة الحديقة العامّة، عن ضحكته التي بلا سبب... ؛ لم يسأله عن شيء إلّا عن درجة حرارته وموعد فحصه التالي .

كان رشيد يعامله كما يعامل المريض في السرير رقم سبعة، لا كما يعامل ابن خاله الذي كان يحبّه حبًّا جمًّا، والذي شاركه ذات يوم سرًّا لا يعرفه أحد ...!!

٥-تساؤلات في قرارة الروح

جلس رائد على سريره الأبيض، ينظر من النافذة إلى سماء بغداد المغبّرة... ؛ كان الألم في خاصرته يخفت أحيانًا ويثور أحيانًا، لكنّ الألم الحقيقيّ كان في صدره، في ذلك المكان الذي كنّا نسمّيه القلب قبل أن نكتشف أنّه مجرّد عضلة تضخّ الدم ...

تساءل في سرّه :هل صار رشيد هكذا لأنّه رأى كثيرًا من المرضى مثلي حتّى صرنا بالنسبه له مجرّد ملفّات وأرقام وأسرّة؟!

هل تبلّد إحساسه من كثرة الموت الذي يراه كلّ يوم ؟!

ثمّ سكت قليلًا، وشعر بغصّة تشبه غصّة العمّة المرحومة أمّ وليد يوم كانت تنادي وليدها الغائب.

!أم أنّ النسخة القديمة من رشيد قد مُحيت تمامًا؟

كأنّ الزمن مرّ عليها بممحاة ثقيلة، وكتب مكانها إنسانًا آخر لا أعرفه، لا يعرفني، لا يريد أن يعرفني؟!

لم يجد جوابًا... ؛ لكنّه أدرك شيئًا واحدًا، أدركه وهو يرى وجه رشيد الخالي من أيّ ذكرى، الخالي من أيّ بريق، الخالي من أيّ ظلّ للماضي .

أنّ الإنسان ليس حجرًا ... ؛ كان يظنّ، كما يظنّ الكثيرون، أنّ الناس ثابتون كالصخور، وأنّ السنوات تمرّ ولا تغيّر إلّا الوجوه والتجاعيد... ؛ لكنّه الآن، وهو يرى رشيد الجديد، أدرك أنّ الزمن نحّات ماهر، ينحتنا على مهل، يغيّر ملامحنا وقلوبنا، يمحو منّا ما يشاء ويكتب علينا ما يشاء، حتّى إذا التقينا بعد غياب طويل، لم نعرف بعضنا ...!!

خرج رائد من المشفى في ذلك المساء، والريح تلفح وجهه، ومدينة الطبّ تبتعد خلفه شيئًا فشيئًا... ؛ كان يحمل مرضه في جسده، ويحمل غربته الجديدة في روحه .

وقال في نفسه، بصوت لم يسمعه أحد :لقد أخطأ من ظنّ أنّ الأيّام حين تنصرم، والسنين حين تمضي، يبقى الإنسان كما هو، صخرةً صمّاء لا تتزحزح... ؛ كلا ... ؛نحن غبار، والريح تعيد تشكيلنا في كلّ لحظة، حتّى نغدو غرباء عن أنفسنا قبل أن نغدو غرباء عن الآخرين .

ومشى في شوارع بغداد، لا يدري إن كان يبحث عن رشيد الذي فقده، أم عن رائد الذي كانه ذات يوم، أم عن ظلّ وليد الغائب الذي ما زالت أمّه تناديه كلّ مساء، في بيت بعيد، في مدينة أنهكتها الحروب، في زمن يأكل كلّ شيء حتّى الذاكرة .

ظلالُ الصوتِ الحر (٣١)

في مساءٍ بدا كأنه يهبط على المدينة لا على السماء، كانت الأزقة خارج البيت تبتلع أصوات المارة مبكرًا، فيما جلس حميد في غرفةٍ ضيقة تتناثر فيها الكتب والأوراق وأعقاب السجائر الباردة.

المروحة القديمة تدور بكسل، والنافذة نصف المفتوحة تُدخل ضوءًا شاحبًا ورائحة غبارٍ قادم من الشارع.

كــان أبــو فــرات يجلــس قبالتــه بصــمته المعتــاد، يراقــب حميــد وهــو يقلــب أوراق مخطوطــه بعصــبيةٍ واضــحة؛ مــرةً يرتّبهــا، ومــرةً يعيــد بعثــرة الصــفحات كأنّــه يعاقبها.

قال حميد أخيرًا، وهو يزفر ببطء:

ـــ انتهيت تقريبًا... بقي فصلٌ واحد فقط.

رفع أبو فرات رأسه دون أن يتكلم.

تابع حميد، وعيناه معلّقتان بالأوراق:

ـــ هذه المرّة سأكتب كل شيء... دون مواربة.

ســأكتب عــن الخــوف الــذي يلبســونه باســم الأخــلاق، وعــن الجهــل حــين يتحــوّل إلــى مقــدّس، وعــن النــاس الــذين يبنــون ســجونهم بأيــديهم ثــم يغضــبون ممّــن يحاول فتح النافذة.

مدّ أبو فرات يده نحو قدح الشاي البارد، ثم قال بهدوء:

ـــ وهل تظن أن الحقيقة تكفي وحدها؟

ابتسم حميد ابتسامة متعبة:

ـــ لا... لكن الشجاعة تكفي أحيانًا.

هزّ أبو فرات رأسه قليلًا، كأنه يستعيد ذكرى بعيدة:

ـــ الشــجاعة لا تنقــذ دائمًــا يــا حميــد... أحيانًــا تجعــل صــاحبها يقــف وحــده فــي مواجهة مدينة كاملة.

ساد صمت قصير.

في الخارج مرّت سيارة مسرعة، ثم عاد كل شيء ساكنًا.

اقترب حميد من النافذة، وأشعل سيجارة بيدٍ مرتجفة قليلًا.

ظلّ يحدّق في الدخان المتصاعد قبل أن يقول:

ــــ أتذكر الشيخ حسين البغدادي؟

تبدّل وجه أبي فرات للحظة، وانخفض بصره نحو الأرض.

ــــ كيف أنساه...

سكت قليلًا ثم أضاف:

ــــ كان أنقى من عرفت.

ابتسم حميد بأسى:

ــــ قبل موته بعامين ذهبتُ إليه.

كان جالسًا في مكتبته الصغيرة، محاطًا بالمخطوطات.. , حتى الغبار هناك كان يبدو مثقفًا.

ضحك أبو فرات بخفوت، ثم عاد الصمت.

قال حميد:

ــــ سألته يومها: لماذا لا تكتب ما تعرفه؟

كنتَ تقول دائمًا إن الحقيقة أمانة... فلماذا تُخفيها الآن؟

التفت أبو فرات نحوه ببطء، كأنه يعرف بقية الحديث مسبقًا.

أخذ حميد نفسًا عميقًا:

ــــ ظلّ الشيخ صامتًا طويلًا... ثم قال كلمة واحدة:

"أخاف."

ارتعشت ابتسامة باهتة على فم أبي فرات:

ــــ حتى هو خاف...

ــــ لم يكن خوفًا عاديًا، قال حميد بسرعة.

قلت له: ممَّ تخاف وأنت في هذا العمر؟

فقال شيئًا لم أنسه حتى الآن...

توقف قليلًا، ثم أكمل بصوتٍ أخفت:

ــــ قال:

"أخاف منهم حتى بعد موتي... سيشوّهون اسمي، وسيجعلون أولادي يخجلون مني."

هبط الصمت على الغرفة مرةً أخرى، لكنّه هذه المرة بدا أثقل من الجدران نفسها.

أطفأ حميد سيجارته بعنف، ثم قال:

ــــ هل تتخيّل؟

رجل قضى عمره يدعو إلى الحقيقة... كان يخشى ذاكرة الناس أكثر من الموت نفسه.

رفع أبو فرات عينيه نحوه وقال:

ــــ لأن الناس لا يقتلون الجسد فقط... أحيانًا يقتلون الرواية أيضًا.

جلس حميد على الكرسي كمن فقد شيئًا داخله، ثم قال:

ــــ لكن ماذا يبقى إذا صمتنا؟

ماذا يبقى إذا عشنا نُجمّل الأكاذيب خوفًا من أفواه الآخرين؟

اقترب أبو فرات منه، ووضع يده على كتفه:

ـــ ليس كل صمتٍ جبنًا يا حميد... أحيانًا يكون حمايةً لما تبقّى من الإنسان.

ثم أشار إلى المخطوط الملقى على الطاولة:

ـــ الكلمات ليست رصاصًا فقط... إنها مسؤولية أيضًا.

بعض الحقائق تحتاج زمنًا يحتملها، وإلا تحوّلت إلى طعامٍ للشتائم والقطيع.

رفع حميد رأسه بعينين متعبتين:

ـــ إذن نؤجل الحقيقة حتى نموت؟

تنهد أبو فرات، وأدار نظره نحو النافذة المفتوحة:

ـــ لا... لكن اختر معاركك.

ليست البطولة أن تحترق بسرعة، البطولة أحيانًا أن تبقى حيًّا بما يكفي لتقول ما يجب قوله في الوقت المناسب.

ابتسم حميد بسخرية مريرة:

ـــ يبدو أن الكتابة ليست حرية كما كنت أظن.

أجابه أبو فرات:

ـــ الكتابة محكمة يا صديقي...

وأغلب القضاة فيها جهلاء.

ضحك حميد للحظة، لكن ضحكته انطفأت سريعًا.

مدّ يده نحو المخطوط، وقلب صفحاته ببطء.

توقّف عند صفحةٍ مليئة بالشطب، وفي زاويتها صورة صغيرة لابنته.

ظلّ ينظر إليها طويلًا.

انتبه أبو فرات للصورة، لكنه لم يقل شيئًا.

همس حميد أخيرًا:

ـــ أخاف عليها هي أيضًا...

لا عليّ وحدي.

لأول مرة، بدا أبو فرات عاجزًا عن الإجابة.

في الخارج، كان صوت الباعة يتلاشى تدريجيًا، فيما أضواء المدينة تشتعل واحدةً بعد أخرى، كأنها عيون تراقب الجميع بصمت.

طوى حميد أوراقه بهدوء، ووضعها داخل الدرج دون أن يمزقها.

لم يكن قد تراجع تمامًا...

ولم يكن شجاعًا بما يكفي ليكمل.

كان فقط يقف في تلك المنطقة الرمادية القاسية، حيث يتحول الخوف إلى شكلٍ آخر من أشكال الانتماء.

وخارج الغرفة، كانت المدينة تمضي كعادتها؛

تكافئ الصامتين، وتترك أصحاب الأصوات الحرة يمشون وحدهم في العتمة.

طيفٌ من نور في ليل الخراب (٣٢)

في تلك الليلة، لم تكن السماء فوق المدينة سماءً، بل سقفاً من الفحم المشتعل.

الريح كانت تعوي بين الأزقة ككلابٍ جائعة تنهش عظام الليل، والبرد يتسلل من شقوق الجدران كجنديٍ مدرّب على القتل البطيء.

أما الظلام، فلم يكن مجرد انقطاع للكهرباء، بل كائناً ضخماً يجلس فوق المدينة، يضغط على صدورها حتى تكاد تختنق.

في أقصى الحي المحطم، داخل بيتٍ فقد نصف جدرانه ونوافذه وسقف إحدى غرفه، جلست خديجة قرب موقد يحتضر.

كانت النار تتنفس بصعوبة، تلفظ دخاناً كثيفاً أكثر مما تمنح دفئاً، والحطب المبتل يئن كأن فيه روحاً معذبة.

احتضنت طفلها الرضيع تحت عباءتها السوداء.

لم يعد يبكي.

وهذا ما أخافها أكثر.

البكاء يعني أن في الجسد بقية مقاومة، أما هذا الصمت فكان يشبه استسلاماً مبكراً للموت.

راحت تحدق في وجهه الصغير؛ عينان غائرتان، شفاه جافة، وأنفاس متقطعة كأن صدره الصغير يصعد جبلاً لا يراه أحد.

في الخارج، دوى انفجار قريب، فارتجفت الجدران.

تساقط بعض التراب من السقف على كتفها.

همست، دون أن تشعر:

ـــ يا رب... ليس هو أيضاً.

لكن المدينة في تلك الأيام كانت صمّاء.

الصلوات ترتطم بالدخان وتعود مكسورة.

منذ أربعين يوماً لم تنم خديجة نوماً حقيقياً.

كانت تغفو دقائق، ثم تستيقظ على صوت قذيفة، أو صرخة، أو خوفٍ مجهول يركض داخل صدرها.

الحرب أخذت كل شيء بسرعة اللصوص المحترفين.

زوجها خرج ذات صباح يبحث عن رغيف خبز، ولم يعد.

قيل إن قذيفة مزقت السوق.

وقيل إن الجنود أخذوا الجثث.

وقيل كلام كثير، لكن أحداً لم يُعده إليها.

وابنها الأكبر، علي، اختفى في المجزرة التي ابتلعت الحي قبل شهرين.

وجدوا حذاءه فقط، عالقاً في ساق شجرة محترقة.

منذ ذلك اليوم، صار قلبها غرفةً مهجورة.

اقتربت من الموقد ونفخت فيه.

ارتفع لهيب صغير، ثم مات سريعاً.

قالت وهي تضم الطفل:

ـــ لا تمت... أرجوك لا تمت... لم يبقَ لي سواك.

لكن صوتها خرج كأنه صادر من بئر بعيدة.

وفجأة...

امتلأت الغرفة بضوء غريب.

ليس ضوء برق، ولا ومضة قذيفة، ولا شعلة نار.

بل نور هادئ، شفاف، كأن القمر ذاب في الهواء.

تراجع الظلام إلى الزوايا مذعوراً، وانكمشت الجدران المتآكلة تحت سطوعه.

رفعت خديجة رأسها ببطء.

وهناك... قرب الباب المحطم... كانت تقف امرأة.

لم تدخل من الباب.

كأنها تكوّنت فجأة من الضوء نفسه.

امرأة بثوب أبيض طويل لا يمسه غبار الحرب، وشعر فضي يتهادى حول كتفيها كخيوط نهرٍ مضاء.

في عينيها شيء لا يشبه عيون البشر؛ اتساع سماوي، وطمأنينة تجعل القلب يخجل من خوفه.

تراجعت خديجة مذعورة، وضمت الطفل بقوة.

ـــ من أنتِ؟!

ابتسمت المرأة.

وكانت ابتسامتها كافية لتخفّ حدة الريح خارج البيت.

قالت بصوت يشبه خرير الماء فوق صخور عطشى:

ـــ لا تخـــافي يـــا خديجـــة... أنـــا مجـــرد طيـــفٍ عبـــر المســـافة التـــي لا تصـــلها الحروب.

شـعرت خديجـة بـأن اسـمها حـين خـرج مـن فـم المـرأة لـم يكـن مجـرد اسـم، بـل حياة كاملة تُنادى.

همست:

ـــ هل أنا أحلم؟

اقتربت المرأة ببطء.

وكلمـــا اقتربـــت، انخفـــض البـــرد فـــي الغرفـــة، حتـــى شـــعرت خديجـــة أن أطرافهـــا تعود إليها بعد موت طويل.

قالت الزائرة:

ـــ الأحلام يا خديجة لا تترك هذا القدر من الطمأنينة.

ثم نظرت إلى الطفل.

ـــ هذا الصغير يحمل أكثر مما تتصورين.

انفجـــرت خديجـــة بالبكـــاء فجـــأة، كـــأن الكلمـــات فتحـــت جـــداراً داخليـــاً ظـــل محبوساً سنوات.

ـــ إنـــه يمـــوت... لا حليـــب عنـــدي... لا دواء... لا أحـــد بقـــي لـــي... لمـــاذا يفعل الله بنا كل هذا؟!

ساد الصمت لحظة.

حتى القصف بدا بعيداً.

ثم قالت المرأة النورانية:

ـــ لأن الأرض حين تمتلئ بالظلم، تمرض أرواح البشر.

لكن المرض لا يدوم.

كل ليل، مهما تمدد فوق العالم، يحمل موته في داخله.

أطرقت خديجة رأسها وهي تبكي:

ـــ لقد تعبت.

اقتربت المرأة أكثر، وجلست قربها، دون أن يصدر عن جلوسها أي صوت، كأنها لا تزن شيئاً.

ـــ أعرف.

ثم مدت يدها نحو الطفل.

كانت يدها باردة، لكن بردها لم يكن مؤلماً؛ بل يشبه ظل شجرة في صيفٍ محترق.

لمست جبين الرضيع.

وفي اللحظة نفسها، فتح الطفل عينيه.

لأول مرة منذ أيام.

حدق في المرأة، ثم... ابتسم.

ابتسامة صغيرة، لكنها اخترقت قلب خديجة كطلوع الفجر بعد قرون من الليل.

شهقت خديجة:

ـــ يا الله...

راح الطفل يتحرك بين ذراعيها بخفة، كأن روحاً جديدة دبت فيه.

قالت الزائرة وهي تنظر إليه:

ـــ سيعيش.

وسيكون شاهداً على زمنٍ آخر... زمنٍ يخرج من رماد هذا الخراب.

ـــ أي زمن؟!

ـــ زمن يعود فيه الأطفال إلى المدارس بدلاً من المقابر... وتعود النساء إلى خبز الصباح بدلاً من عدّ الجثث... زمن تسقط فيه الأصنام التي أخافت الناس طويلاً.

ارتجف قلب خديجة.

كانت تريد أن تصدق.

لكن الحرب علمتها أن الأمل نوعٌ آخر من الخسارة.

قالت بشكٍ موجوع:

ـــ وهل يمكن أن تتغير هذه البلاد؟

ابتسمت الزائرة بحزن عميق:

ـــ البلاد تشبه البشر يا خديجة... تُجرح، تنزف، تجنّ أحياناً... لكنها لا تموت بسهولة.

ثم أضافت:

ـــ لكنك ستنسينني.

رفعت خديجة رأسها بسرعة:

ـــ لا... مستحيل.

—— بل ستنسين التفاصيل.

هكذا خُلق البشر؛ ذاكرتهم أضعف من آلامهم.

لكن الأثر سيبقى... كرائحة مطرٍ قديم في الروح.

ساد صمت طويل.

وفي الخارج، كانت الثلوج تتساقط للمرة الأولى منذ سنوات، تغطي الخراب بهدوء جنائزي.

شعرت خديجة بأن الغرفة امتلأت بعطر غريب؛ مزيج من الياسمين والمطر والندى وشيء لا اسم له.

قالت بخوف طفولي:

—— لا تذهبي...

لكن الزائرة بدأت تتلاشى ببطء.

كأن الضوء يعيد ابتلاعها.

وقبل أن تختفي تماماً، قالت:

—— حين يشتد الظلام، تذكري أن النور لا يموت... بل يختبئ فقط.

ثم اختفت.

فجأة.

كأنها لم تكن.

بقي الضوء معلقاً لحظات في الهواء، ثم انطفأ تدريجياً.

عادت الغرفة فقيرة وباردة ومحطمة كما كانت.

لكن الطفل ظل يبتسم.

مع الفجر، بدأت ذاكرة خديجة تتآكل.

كانت تعرف أن شيئاً عظيماً حدث، لكنها كلما حاولت الإمساك بتفاصيله، تلاشت كالدخان.

مرت السنوات.

سقط الطاغية.

انتهت الحرب الأولى لتبدأ حروب أخرى، لكن المدينة تعبت أخيراً من الموت، وبدأت تتعلم المشي من جديد.

كبر الطفل وصار شاباً طويل القامة، بعينين فيهما لمعان غريب لا تعرف خديجة مصدره.

كان كلما ابتسم، شعرت أن تلك الليلة البعيدة تفتح بابها داخلها.

أما هي، فصارت عجوزاً تروي لأحفادها حكايات الحصار والجوع والبرد.

كانت تحكي بثباتٍ عن القصف والمجازر والمقابر الجماعية، لكن صوتها كان يرتبك دائماً عند تلك الليلة.

تقول لهم:

— حدث شيء... شيء جميل جداً... لكني لا أذكره جيداً.

فيضحك الأحفاد:

— جدتنا كانت تحلم.

فتبتسم هي بشرود وتجيب:

ـــ ربما... لكن الأحلام لا تترك عطراً في الذاكرة.

وفي إحدى ليالي الشتاء، بعد عقود طويلة، كانت خديجة تحتضر.

الثلج يتساقط خلف النافذة، والريح تعوي كما عوت في تلك الليلة القديمة.

جلس ابنها قربها، يمسك يدها المرتجفة.

وفجأة...

اتسعت عيناها.

حدقت في زاوية الغرفة.

ثم ابتسمت.

ابتسامة طفلة رأت أمها بعد خوف طويل.

همست بصوت متقطع:

ـــ لقد عادت...

أراها الآن...

كانت حقيقية...

ثم أسلمت روحها بهدوء، كشمعة أطفأها الفجر.

وفي اللحظة نفسها، انتشر في الغرفة عطر خفيف من الياسمين والمطر.

رفع ابنها رأسه بدهشة.

كان متأكداً أنه شمّه من قبل...

لكنّه، مثل أمه، لم يستطع أن يتذكر أين.

صومعة الماء (٣٣)

كلّما دخل مهند الحمّام، أطال المكث فيه أكثر ممّا ينبغي.

في البدء ظنّ أنّ الأمر عادةٌ عابرة؛ دقائقُ استراحةٍ يقتنصها من ضجيج البيت والعمل والوجوه المتشابهة، لكنّه اكتشف مع الوقت أنّ ثمّة شيئًا آخر يجذبه إلى ذلك المكان الضيّق، شيئًا لا علاقة له بالحاجة البيولوجية وحدها.

كان يجلس على المرحاض الغربي ساكنًا، بينما ينساب خرير الماء من الصنبور كأنّه زمنٌ سائل.

هناك فقط يشعر أنّ العالم يتراجع إلى الخارج، وأنّ الأفكار التي تعجز عن الاقتراب منه في الغرف الواسعة، تأتيه مطيعةً داخل تلك العزلة الصغيرة.

لم يكن الحمّام بالنسبة إليه موضعًا لقضاء الحاجة، بل غرفةً يخلع فيها صوته اليوميّ، ويصغي إلى نفسه كما لو أنّه يسمعها للمرّة الأولى.

في الخارج كان الناس يطالبونه دائمًا بشيء ما:

أن يشرح، أن يبتسم، أن يوافق، أن يتحمّل...

أمّا هنا، فلا أحد ينتظر منه شيئًا.

كان الماء يريحه على نحوٍ غامض.

كلّما غسل وجهه شعر أنّ التعب ينفصل عنه قليلًا، لا لأنّ الماء يمتلك معجزةً خفيّة، بل لأنّ الإنسان يتوهّم أحيانًا أنّ ما يثقل روحه يمكن أن يذوب ويذهب مع الأشياء الجارية.

ولهذا كان يفتح الصنبور طويلًا، ثم يحدّق في الماء المنسكب بشرود.

مـرّةً تـذكّر طفولتـه قـرب سـاقيةٍ صـغيرة فـي القريـة؛ يومهـا ظـلّ يراقـب المـاء سـاعاتٍ كاملـة، قبـل أن تصـرخ أمّـه غاضـبة لأنّـه أضـاع النهـار كلّـه فـي "التحديق بما لا ينفع".

ابتسم وهو يتذكّر ذلك.

ربّما لم يتغيّر كثيرًا منذ ذلك اليوم.

كان يسأل نفسه أحيانًا:

لماذا أشعر بالطمأنينة هنا، في مكانٍ يهرب الناس منه بأسرع ما يمكن؟

أهو لأنّ الحمّام يشبه صومعةً صغيرة؟

أم لأنّ الإنسان، حين ينغلق عليه بابٌ ضيّق، يسمع ذاته بوضوح أكبر؟

وكانت الفكرة التي تؤرّقه دائمًا هي مفارقة الأمكنة الضيقة:

كيف يمكن لمكانٍ صغير أن يكون ملاذًا لشخص، وعقوبةً لآخر؟

ما الفرق بين هذا الحمّام وزنزانةٍ انفرادية؟

ظلّ السؤال يطارده طويلًا، إلى أن خطر له جوابٌ بسيط:

الفرق ليس في الجدران... بل في الباب.

الإنسـان يختنـق حـين يُمنـع مـن الخـروج، حتـى لـو كـان فـي جنّـةٍ واسـعة، ويطمـئن حـين يعـرف أنّ البـاب يمكـن فتحـه متـى شـاء، حتـى لـو كـان فـي أضيق الأمكنة.

لكنّ الجسد لم يكن يتسامح مع تأملاته الطويلة.

فكثـرة جلوسـه أصـابته بالبواسـير، وأجبرتـه علـى ثـلاث عمليـات جراحيـة خلال سنوات قليلة.

وكان الطبيب يوصيه دائمًا:

"خفّف جلوسك هناك... الحمّام ليس مكانًا للتأمل."

وكان مهند يومئ برأسه موافقًا، ثم يعود بعد أيام إلى عادته القديمة، كأنّه مدمن عزلةٍ صغيرة لا يعرف كيف يتخلّى عنها.

في إحدى الليالي، جلس كعادته يراقب الماء المتدفق، ثم رفع رأسه نحو المرآة.

بدا وجهه شاحبًا ومتعبًا أكثر مما تخيّل.

أغلق الصنبور هذه المرّة بسرعة، فعمّ الصمت فجأة.

عندها فقط انتبه إلى أمرٍ بسيط لم يفكّر فيه من قبل:

أنّ الماء لا يحمل الإنسان بعيدًا عن نفسه... بل يؤخّر مواجهتها قليلًا.

نهض ببطء، فتح الباب، وخرج.

رجوع إلى الجُبّ (٣٤)

لم يكن راضي يغادر بيته إلا حين تُجبره الضرورة على خرق عزلته.

لم تكن عزلته قرارًا عابرًا، بل تشكّلت تدريجيًا كجلد ثانٍ فوق روحه.. , صار البيت امتدادًا لجسده، والغرفة قوقعته الوحيدة الممكنة في عالم لم يعد يثق بإيقاعه.

كان يقضي يومه في صمتٍ كثيف، لا يقطعه سوى أفكار تتحرك داخله كحشرات في ظلام مغلق.. , من خلف نافذته المغبّرة، كان يرى العالم كأنه فيلم قديم: وجوهٌ تمشي بلا ملامح، أصواتٌ بلا معنى، وضجيجٌ يشبه صفير آلة لا تتوقف.

لم يكن يكره الناس بقدر ما كان يشعر أنهم صاروا "نسخًا مكررة من فكرة واحدة فقدت معناها".

في مساء ثقيل، اهتز هاتفه.

"الحاج رؤوف".

تردد.. , هذا الاسم يعود من زمنٍ آخر، حين كانت الكلمة عقدًا، والوعد شرفًا، والرجال لا يحتاجون محاكم لإثبات ما قالوه.

ضغط زر الإجابة.

قال رؤوف بصوت متعب، أقرب إلى اعتراف منه إلى طلب:

– راضي... أحتاجك.

مسألة بسيطة ظاهريًا، لكنها متعفنة في العمق..., أبو أحمد البغدادي استدان مني عشرة آلاف دولار، واختفى خلف أعذار لا تنتهي.. , أريدك معي.. , أنا وأبو علي الناصري.. , نذهب إليه و"نحچي وياه".

لم يجب راضي فورًا.

كان يشعر أن الجملة الأخيرة ليست دعوة، بل سحب إلى فخ اجتماعي لا مهرب منه.

قال أخيرًا بصوت منخفض:

– تمام... أجي وياكم.

كأنه لم يقل "نعم"، بل "سأُساق".

في السيارة، جلس في الخلف.

المدينة تمرّ من خلف الزجاج ككتلة بشرية مضطربة: إيقاع سريع، عيون مرهقة، ووجوه تحمل قلقًا لا تفسير له.

كـــان رؤوف يقــود بصـــمت، وأبـــو علـــي يراقـــب الطريـــق كمـــن ينتظـــر حكمًـــا لا يعرف مصدره.

أما راضي، فكان يغرق في نفسه أكثر من الطريق.

في داخله، كانت الكرامة ليست قيمة... بل عقيدة.

كان يردد دائمًا دون أن يعلن:

"أفضّل الموت على أن أعيش ناقصًا."

لكن السؤال الذي بدأ يتسلل إليه الآن كان أكثر قسوة:

وماذا لو كان العالم لا يعترف بهذه المعادلة أصلًا؟

وصلوا إلى بيت أبو أحمد.

من الخارج، كان البيت يبدو كأنه ورشة لا تنام.

مولدات، أسلاك، زيت، وضجيج كهرباء لا يهدأ.

خرج شاب بملابس متسخة، قال إن والده "مشغول".

بعد دقائق، ظهر أبو أحمد.

رجـــل فـــي منتصـــف العمـــر، وجهـــه مُطفـــأ (كلمبـــة) محترقـــة، ويـــداه ســـوداوين كأنهمـــا لـــم تخرجـــا مـــن الزيـــت منـــذ ســـنوات.. , لكـــن أكثـــر مـــا أربـــك راضـــي لـــم يكن شكله، بل عينيه.

لم تكن عيون رجل متعب... بل عيون رجل لا يرى نفسه أصلًا.

كأن الداخل فيه قد انطفأ تمامًا.

جلسوا في غرفة فوضوية.

زيت على الأرض، أوراق مبعثرة، ورائحة مزيج من وقود وعرق وهزيمة يومية.

وفي الخارج، تقف سيارة لامعة، نظيفة بشكل مبالغ فيه، كأنها ليست جزءًا من هذا العالم أصلًا.

هنا حدث الانقسام الذي لاحظه راضي بحدّة مؤلمة:

الآلة مُعتنى بها... والإنسان مُهمَل.

ثم بدأ الكلام.

قال راضي مباشرة، دون مقدمات:

– ليش ما تسدد الدين؟

ابتسم أبو أحمد ابتسامة قصيرة لا تحمل طمأنينة:

– الوضع صعب... خسرت... العمال سرقوني... عليّ ديون وفوائد... ما أگدر.

لم يُقنع راضي.

قال ببرود مشحون:

– مو هذا موضوعنا.. , أنت أعطيت كلمة.. , والكلمة دين.

تدخل رؤوف بصوت أقل حدّة:

– إحنا مو جايين نسمع شكواك، جايين نريد فلوسنه .

لكن أبو أحمد كان ينسحب إلى منطقه الخاص:

– هذا قضاء وقدر... الله كتب.

تغير وجه راضي.

هذه الجملة بالذات كانت تزعجه أكثر من الكذب نفسه.

لأنها لا تبرر الخطأ فقط...، بل ترفعه إلى مرتبة القداسة.

قال:

– القدر ما يسرق... ولا القدر ياخذ فلوس الناس ويقول "ما عندي".

سكت لحظة، ثم أضاف:

– ستة أشهر يا رجل... شنو بعد تنتظر؟ عشر سنين؟

رد أبو أحمد بهدوء غريب:

– إذا تحسنت الأمور، أسدد.

ضحك راضي بمرارة:

– وأنت أصلاً غارق بالديون ، شلون تتحسن؟

التوتر بدأ يتحول إلى شيء غير مرئي لكنه قابل للانفجار.

وفجأة، انكسر شيء في رؤوف.

صفعة واحدة.

لم تكن قوية فقط... كانت نهائية.

سقط أبو أحمد على الأرض.

ليس كضحية... بل كأن الأرض كانت تنتظره منذ البداية.

لحظة واحدة قلبت المشهد بالكامل.

ابنه اتصل بالشرطة.

الجيران تجمعوا.

والسرد انقلب فجأة:

المديون صار "مظلومًا".

وصاحب الحق صار "معتديًا".

في المستشفى، لعب أبو أحمد دورًا جديدًا بإتقان غريب.

أنين محسوب.

مبالغة مدروسة.

وتحول سريع من "مديون" إلى "ضحية نظام".

ثم جاء الشرط : التنازل الكامل عن الدين... مقابل إسقاط الدعوى.

هنا لم يعد الموضوع مالًا فقط.

بل صار ابتزازًا قانونيًا مغلفًا بالتمثيل.

في تلك الأيام، كان راضي يراقب كل شيء من الخارج كمن يشاهد انهيار منظومة لا تخص شخصًا واحدًا، بل طريقة كاملة في فهم العالم.

فهم شيئًا ثقيلًا: المجتمع لا يكافئ الصدق... بل يُعيد تشكيله ليصبح سذاجة.

ولا يعاقب الكذب... بل يمنحه محامٍ جيد.

خرج رؤوف من القضية مكسورًا.

ليس لأنه خسر المال فقط...

بل لأنه اكتشف أن "الكلمة" وحدها لم تعد عملة صالحة للتداول.

أما أبو أحمد، فعاد إلى مولداته.

إلى ضجيجه.

إلى عالمه الذي يفهمه جيدًا: عالم يلمّع الآلات ويترك البشر يتعفنون بصمت.

عاد راضي إلى بيته.

لكن شيئًا فيه لم يعد كما كان.

لم تعد العزلة هروبًا.

بل صارت إعادة تعريف للنجاة.

نظر إلى العالم من جديد، هذه المرة بلا أوهام أخلاقية كبيرة:

ناس تتحرك كآلات.

ومولدات تعمل كآلهة صغيرة.

وضجيج يغطي كل محاولة للفهم.

جلس في غرفته.

أطفأ الضوء.

لم يعد الظلام مخيفًا.

بل أصبح، لأول مرة، أكثر صدقًا من الخارج.

ثم خطر له السؤال الأخير:

هل الذي في الخارج "فاسد"... أم أنه مجرد نظام لا يحتاج إلى أخلاق كي يعمل؟

لم يجب.

فقط رأى نفسه واقفًا على حافة بئر.

وفي الأسفل، نسخة منه تنظر إليه.

واحد بقي فوق...

وواحد نزل إلى الجُبّ.

وكلاهما لم يعد متأكدًا:

من منهما كان الناجي... ومن منهما كان الموهوم.

في النهاية، لم يخرج راضي إلى العالم مرة أخرى.

ليس خوفًا... بل لأن العالم، في صورته الجديدة، لم يعد مكانًا للجدال.

بل مكانًا يعمل... مثل مولد ضخم لا يهمه من يحترق داخله، طالما أن الكهرباء لا تنقطع.

رحلتي في غياهب الإيجار (٣٥)

لم تكن طفولتي فقيرة فقط، بل كانت معلّقة على حافة البيت..., على حافة ما يمكن تسميته "الاستقرار".

كنتُ أظن أن البيوت تشبه الأمهات: ثابتة، دافئة، لا تُطرد ولا تُؤجَّر بالتهديد. لكنني اكتشفت مبكرًا أن البيت في مدينتنا ليس حقًا... ؛ بل صفقة قابلة للإلغاء في أي لحظة.

في ذلك الصباح، لم يكن الهواء مختلفًا، لكن "الرجل" كان مختلفًا.

صاحب الملك وقف في المدخل كأنه ليس إنسانًا بل بندٌ قانوني يمشي على قدمين.

قال لأبي دون مقدمات:

— "عليكم الإخلاء اليوم."

لم يسأله أبي "لماذا؟"

لأن السؤال في حضرة السلطة العقارية يبدو سذاجة، أو اعترافًا بالهزيمة.

أمي كانت أول من انهار.

لم تبكِ بصوت، بل بكاء داخلي يشبه ارتجاف الأشياء وهي تُفكك من أماكنها.

أما أبي، فظل واقفًا كمن يحاول أن يتذكر أين نسي عمره.

بدأنا ننقل الأثاث إلى الشارع.

ليس لأننا انتقلنا، بل لأننا طُردنا من فكرة المكان نفسها.

كنتُ صغيرًا بما يكفي لأُكلف بمهمة "إنقاذ الرضيع".

وضعتُ أخي على السلم.

السلم كان أول "بيت مؤقت" في حياتنا.

كان يبكي، فأطعمتُه "الممّاة"، الحليب بينما العالم كله يُطعمنا الطرد.

صاحب الملك كان يقف فوقنا، لا يتكلم كثيرًا.

كان حضوره وحده يكفي ليحوّلنا إلى "حركة نقل" لا إلى عائلة.

في لحظة ما، خطر لي أننا لسنا عائلة...

نحن ‘‘شحنة أثاث بشرية’’.

١. البيت كجبهة حرب

كبرتُ وأنا أرى الحياة كخريطة نزاع:

هناك من يملك الأرض...، وهناك من يُنقل منها باستمرار.

أبي لم يكن رجلًا ضعيفًا، لكنه كان يحمل لعنة واحدة:

أنه مستأجر دائم.

كان يقول لي أحيانًا وهو ينظر إلى الجدران:

— ‘‘البيت ليس خشبًا وجدرانًا... البيت هو الإذن بالبقاء.’’

لم أفهمها حينها.

لكنني فهمتها لاحقًا:

أن تعيش في إيجار يعني أن تعيش مؤقتًا حتى داخل أنفاسك.

٢. سلطة المؤجر

في مجتمعنا، لا يُنظر إلى المؤجر كمجرد حالة سكنية.

بل كهوية أخلاقية مشبوهة.

‘‘فلان مستأجر؟ إذًا هناك خطب ما.’’

كأن الفقر ليس ظرفًا بل جريمة مؤجلة.

حتى حين تُرتكب سرقة في الحي، يهمس أحدهم:

— "غالبًا المستأجرين..."

لم يكن أحد يسأل عن الحقيقة.

كان الاتهام جاهزًا مسبقًا...

كما لو أن "عدم امتلاك بيت" دليل على "عدم امتلاك ضمير".

أصبح المستأجر كائنًا معلقًا بين الإنسان والشك.

٣. الأب: سيرة تنقّل بلا وطن صغير

أبي لم يمت في بيت.

وهذا وحده يكفي ليشرح كل شيء.

حين جاء الشيخ ليقرأ عليه الشهادة الأخيرة (العديلة)، كان جسده هادئًا، لكن عينيه كانتا تقاتلان شيئًا غير مرئي.

قال له الشيخ:

— "قل لا إله إلا الله..."

لكن أبي، بصوت متعب كأنه خارج من عمر كامل، قال:

— "ادفعوا الإيجار..."

لم تكن مزحة.

كانت الخلاصة الأخيرة لفلسفة حياة كاملة:

أن الموت نفسه لا يعفيك من الديون السكنية.

٤. أنا: مواطن ناقص الصلاحية

كلما كبرت، صرتُ أشعر أنني نسخة غير مكتملة من الإنسان.

ليس لدي عنوان ثابت، ولا ذاكرة مكان يمكن الوثوق بها.

حتى أصدقائي كانوا يسألون:

— "أين تسكن الآن؟"

كنت أجيب بجملة تشبه الهروب:

— "حاليًا... في مرحلة انتقال."

لكن "الانتقال" لم يكن مرحلة.

كان هوية.

حين ماتت زوجتي، لم يعرف الناس أين يأتون للتعزية.

لم يكن لدي بيت يستقبل الحزن.

كنتُ أقف في الهواء، كأنني نقطة بلا إحداثيات.

أحدهم قال بارتباك:

— "أين نلتقيك؟"

سؤال بسيط... لكنه كان إعلانًا رسميًا بأنني فقدت حتى حقي في الحزن المنظم.

٥. المؤجر كمرآة مشوهة

لم أكره المؤجرين.

كنت أراهم ككائنات تحمل وجهين:

وجه القوة... ووجه الخوف من فقدان القوة.

بعضهم لم يكن شريرًا.

كان فقط جزءًا من نظام يجعل السكن سلطة، لا حقًّا.

لكن النظام نفسه كان قاسيًا:

يجعل من البيت امتيازًا، ومن الإقامة اختبارًا أخلاقيًا دائمًا.

٦. الخاتمة: الإنسان المؤجَّل

في النهاية، لم أعد أرى نفسي كإنسان يعيش "في مكان".

بل كإنسان يعيش "بين أماكن".

كأن الحياة نفسها عقد إيجار طويل...

لا تعرف متى يُجدد، ولا متى يُلغى، ولا من يملك حق التوقيع الأخير.

وأحيانًا، حين أرى طيور المساء تعود إلى أعشاشها،

أفكر بمرارة هادئة:

حتى الطيور... لديها حق في العودة.

أما نحن...

فنحن لا نعود.

نحن فقط يعاد توزيعنا.

زخات المطر وقاع المدينة (٣٦)

كان الظلامُ ينسجُ خيوطَهُ الفضية على جبين بغداد، وفي غرفةٍ يلفّها وهجُ الشاشة الوحيد، كان عليٌّ يغوص في بحرٍ سائلٍ من الوجوه والأسماء عبر مواقع التواصل الاجتماعي والعالم الافتراضي ... ؛ هناك، بين الأطياف الرقمية، برز له اسمٌ كوشمٍ من نور: أريان التركماني... ؛ من ديالى، تلك الأرض التي تتنفس أساطير الرافدين، بينما كان هو هنا، في بغداد، تتنازعه أنفاسُ التاريخ وآهاتُ الحاضر.

كانت العلاقة بينهما نبتةً غريبةً نَمَت في تربة الفضاء الافتراضي، تسقى بكلماتٍ تارةً تكون ندىً، وتارةً تكون ناراً... ؛ توطّدت عبر الأشهر، حتى صار اللقاء الحقيقي فكرةً تلحُّ كحلمٍ لا يُطاق... ؛ لم يكن عليٌّ يجهل هوى صديقه؛ كان أريان عطشاً مُتجسِّداً... ؛ كأساً لا قاعَ لها يبحث عن خمرة الجسد وملذات الحواس... ؛ "المهم هو الإشباع" – كانت هذه كلمته المفتاح.

لم يكن التعارف حدثاً، بل انزلاقاً تدريجياً من الكلام إلى ما يشبه الاعتراف.. , رسائل قصيرة في البداية، ثم امتدّت كخيوط ماء بين جرفين.. , كان كل منهما يختبر الآخر دون أن يقول ذلك صراحة: ماذا يعني أن يقترب رجل من رجل آخر في مدينة تُجيد مراقبة أنفاسها؟

أريان كان أكثر وضوحاً في هشاشته، أكثر جرأة في الاعتراف برغبته في الحياة كما هي، بلا تبرير. أما عليّ فكان يمارس صمته كنوع من النجاة، كمن يخشى أن يتحول الشعور إلى اسمٍ يمكن الإمساك به.

نعم ؛ تبادلا الكلمات أولًا،

ثم الأحلام،

ثم الشكوى من ثِقَل الأيام.

ومع مرور الشهور، صار الصوت نصيرًا، وصارت الرسائل جسورًا، حتى بدا اللقاء ضرورةً لا مفرّ منها، كأن الروحين اتفقتا قبل الجسدين...

حين أخبره أريان بنيّته المجيء إلى بغداد، شعر عليّ بأن المدينة كلّها وُضعت فجأة على كتفيه.

حين قرر أريان القدوم إلى بغداد، لم يكن الأمر زيارة، بل اختباراً لحدود شيء غير مُسمّى بينهما.. ؛ شعر عليّ أن المدينة كلها تُسلَّم له فجأة، كأن عليه أن يبرر وجود هذا القرب الذي لم يُعلن بعد.

كيف يستضيف صديقًا يحمل معه نزق المدن الصغيرة، وشهوة الاكتشاف، وتوق الحرية؟

كان عليّ يعرف طباع أريان، ويعرف كذلك قسوة بغداد حين تُحاصَر بالرقابة والخوف.

راح يبحث عن مأوى، لا للسرير وحده، بل للخصوصية، للسكينة المؤقتة التي يحتاجها الغريب.

نعم , أراد عليٌّ أن يكون مضيفاً كريماً، فانطلق في شوارع المدينة يتلمّس مكاناً يليق بلقاءٍ يخجل منه النهار... ؛ وقع اختياره، بعد تردد، على زيد، ذلك الرجل الذي حوّل حياته إلى سوقٍ للمتاجرة بكل شيء... ؛ كان لزيد بناتٌ أربع، زهراتٌ في عرينٍ من حديد... ؛ قدم له عليّ الهدايا والمال، واتفقا على صفقة: شقة في ليلة، وفتاةٌ تُدعى إيفان، لقاء مبلغٍ يزداد مع كل شرط... ؛ لكن عليّاً، وفي حركةٍ مفاجئة، طلب إخلاء الشقة من بناته

المراهقـــات الصـــغيرات ... ؛ كانـــت غيـــرةً غامضـــة، ورحمـــةً مفاجئـــةً تتعـــارض مـــع ســـياق الصـــفقة... ؛ هـــل كـــان يخـــاف علـــيهن مـــن شَـــهوة أريـــان الجامحـــة، أم كـــان يحـــاول إنقـــاذ بقايـــا طهـــرٍ مـــا فـــي داخلـــه هـــو؟ زيـــدٌ لـــم يعترض؛ ففي قاموسه، المال هو الكلمة الوحيدة التي لا تحتمل الهامش...

ثـــم، كعادتـــه، لـــم يضـــع ثقتـــه فـــي ســـلة واحـــدة، فاســـتنجد بصـــديقٍ آخـــر، ســـرمد، الـــذي اســـتقبل الطلـــب بشـــروط بـــاردة، تشـــبه قلـــب المدينـــة حـــين تُغلـــق أبوابهـــا فجأة...

نعـــم , ظـــلُّ الشـــكِّ يلاحـــق عليّـــاً... ؛ زيـــدٌ كالضـــباب، وعـــودُه كالســـراب... ؛ ففـــتش عـــن خطـــةٍ احتياطيـــة، فوقـــع علـــى ســـرمد، صـــديقٍ يُخبـــئ أنانيتـــه تحـــت قنـــاع المـــزاح... ؛ أعطـــاه مفتـــاح شـــقته، لكنـــه أرفقَـــه بشـــرطين: أن يشـــاركهما الشـــراب، وأن لا يـــدنس ســـريره المقـــدس بنومهمـــا... ؛ شـــعر علـــيّ بالإهانـــة، كأنه يستجدي فضلةَ ... ؛ وافق، وفي قلبه مرارة كالعلقم...!!

بـــين خيـــارين كلاهمـــا مُـــرّ، وجـــد علـــيّ نفســـه واقفًـــا فـــي منتصـــف الطريـــق، يتأمـــل هشاشـــة العلاقـــات حـــين تتحـــول الصـــداقة إلـــى عقـــدٍ مؤقـــت، والبيـــوت والشـــقق إلى سلع...

ولـــم يكتـــفِ، بـــل فكّـــر فـــي خيـــارٍ ثالـــث: فنـــدق... ؛ لكـــن القـــوانين هنـــا تلعـــب أدواراً غريبة؛ فابن بغداد ممنوعٌ من المبيت في فنادقها!

ضـــحك علـــيّ بصـــوتٍ مرتفـــعٍ فـــي ســـيارته الفارغـــة... ؛ لقـــد حوصـــر بـــين ثلاثـــة أوهام: قوّادٍ لا ضمير له، وصديقٍ لا وفاء فيه، وقانونٍ لا منطق له...!!

قبـــل ســـاعة مـــن الموعـــد، اختفـــى زيـــد... ؛ صـــمت هاتفـــه كـــالقبر... ؛ تـــذكر علـــيّ كـــل التحـــذيرات: "إنـــه رجـــل الـــوهم والخيانـــة"... ؛ ثـــم اتصـــل بســـرمد، فـــإذا بالشـــروط تتناســـل: ســـيبقى معهمـــا حتـــى الصـــباح، ســـيراقب، ســـيكون الحاضـــر الغائـــب فـــي كـــل زاويـــة... ؛ أدرك علـــيّ أن هـــذه ليســـت شـــروطاً، بـــل

إعــلانٌ عــن احــتلالٍ للــذات والفضــاء... ؛ أغلــق الهــاتف... ؛ لقــد ســقط الخياران...!!

فــي الكــراج، تحــت المطــر الهــابط كــدموع المدينــة... ؛ وصــل أريــان مســاءً، والمطــر كــان ينهمــر كأنــه يغســل أرصــفة العاصــمة مــن تعــب النهــار... ؛ كــان وصــوله كظــلّ طــال انتظــاره... ؛ انطلقــا فــي رحلــة البحــث عــن الخمــرة المحرّمــة... ؛ اذ كانــت الشــوارع خاويــةً إلا مــن الشــرطة وأشــباح الــراغبين مثلهما... ؛ حتى الخمرة صارت سراً يُتاجر به في الأزقة.

نعـم , بحثـا عـن شـيء يـدفئ غربتهمـا، عـن متجـرٍ مفتـوح، عـن فسـحةٍ خـارج قــوانين الخــوف، لكــن الشــرطة كانــت منتشــرة، والمدينــة متقشــفة حتــى فــي أفراحها الصغيرة...

كان الناس يمرون مسرعين، وكلٌّ يحمل قلقه في جيبه...

وأخيـرًا، عبـر مسـاعدة عـابرة ، حصـلا علـى مـا يكفـي ليصـنعا لأنفسـهما وهـمَ الاسترخاء... ؛ فقد حصلا على الزجاجة الموعودة.

فــي الســيارة، علــى أطــراف المدينــة، حيــث ينــام الضــوء وينتشــر الظــل، احتسـيَا الخمـرة... ؛ كـانوا سُـكارى مـن غيـر سُـكر الشـراب: سُـكرة الهـرب مــن واقــعٍ خــانق، مــن قيــودٍ مرئيــةٍ وغيــر مرئيــة... ؛ الكلمــات تــدفقت مــع الشراب، كشفاء مؤقتة عن جراحٍ لا تندمل.

نعــم , قــاد علــيّ الســيارة نحــو أطــراف المدينــة، حيــث الشــوارع أهــدأ، والأضــواء أقــل، وهنــاك جلســا يتبــادلان الكــؤوس والكلمــات، يضــحكان أحيانًا، ويصمتان طويلًا...

كانــت بغــداد تمتــد حولهمــا ككــائنٍ متعــب ... ؛ تحتضــن أبناءهــا ثــم تختبــر صبرهم.

فـــي المطعـــم، تحـــت الأضـــواء الوهّاجـــة، كانـــا يـــأكلان كبابـــاً علـــى صـــوت أم كلثـــوم... ؛ كـــان المشـــهد ســـوريالياً: لقـــاءُ نفســـين ضـــائعتين فـــي مدينـــةٍ تتجاهلهما، تناولا طعاماً شهياً بينما الجوع الحقيقي يكمن في الأعماق...

وأخيـراً، فنـدق "الأحـلام"... ؛ اسـمٌ سـاخرٌ... ؛ تغاضـى المـدير عـن الهويـة وعنـوان السـكن ؛ بفعـل المبلـغ المغـري ... ؛ الغرفـة ٣٠٣ كانـت حجـرةً بـلا نافـذة علـى الحقيقـة... ؛ فـي الغرفـة، تمـدد الإرهـاق علـى الأجسـاد، وتسـللت الخمـرة إلـى الـرؤوس، فصـار الكـلام أثقـل، والحركـة أبطـأ... ؛ ثـم تغيـر الامـر جـذريا ... ؛ هنـاك، بـين الجـدران البـاردة، تحـوّل القلـق إلـى احتكـاك أجسـاد... ؛ المسـاج كـان بوابـة، والخمـرة كانـت الذريعـة... ؛ انسـابت الأيـدي كأنهـا تبحـث عـن دفءٍ مفقـود، عـن إثبـات وجـود فـي عـالم يجعـل الإنسان شبحاً...

اسـتيقظا عنـد الظهيـرة كمـن يخـرج مـن حلـمٍ ضـبابي ... ؛ الضـوء القاسـي يكشـف فوضـى الغرفـة: ملابـس متنـاثرة، زجاجـة فارغـة، وبقـعٌ غامضـة علـى المـلاءات... ؛ نظـرة صـامتة تتبادلهـا العينـان... ؛ لا خجـل، لا نـدم، لا متعـة حقيقيـة... ؛ فقـط فـراغٌ هائـل، كالصـحراء بعـد عاصـفة... ؛ اغتسـلا بالمـاء السـاخن، محـاولين غسـل أثـر اللّيلـة، لكـن بعـض الأوسـاخ لا تزول...!!

اغتسـلا بصـمت، وارتـديا وجهيهمـا اليـوميين، كـأن الليـل لـم يكـن سـوى فاصلةٍ عابرة في سطرٍ طويل من الحياة...

خـرج كـلٌّ منهمـا إلـى طريقـه... ؛ اذ عـاد أريـان إلـى ديـالى، وعـاد علـيّ إلـى غرفتـه ... ؛ نعـم , عـاد كـلٌّ إلـى وحدتـه التـي صـارت، بعـد ذلـك اللقـاء، أكثـر اتسـاعاً وعمقـاً... ؛ لقـد التقيـا جسـديّاً ليكتشـفا أن المسـافة بـين نفسـيهما أكبـر مـن كـل المسـافات الجغرافيـة... ؛ كـان اللقـاء محاولـة لمـلء فـراغ، فـإذا بـه يحفر فراغاً جديداً، أشدّ ظلمةً وصمتاً...

وبقيت بغداد خلفهما،

تحفظ القصة في جدرانها،

وتبتسم ابتسامة المدن القديمة،

التي رأت الكثير...

وتعلم أن البشر، مهما هربوا، يعودون دائمًا إلى وحدتهم الأولى.

سائقٌ بالصدفة... ورفيقُ الغبن (٣٧)

لم يكن يعرف عن القيادة أكثر مما يعرفه عابرٌ عن البحر: شيءٌ من الخوف، وشيءٌ من الفضول، وكثيرٌ من الوهم.

لم يجلس يومًا خلف مقود سيارة أجرة، ولم يحفظ أسماء الشوارع ولا تعرجات الأزقة ولا طبقات المدن التي تتبدل كوجوهٍ متعبة.. , لكنه في تلك الليلة، بدا كمن يهرب من نفسه أكثر مما يقود سيارة.

كان الليل في بغداد يلمع كجرحٍ مفتوح.

وبعد بضع كؤوسٍ من نبيذٍ قديم، قرر أن يجرّ جسده إلى المقعد الأمامي لسيارة لا تخصه، ويترك للصدفة أن تفعل ما يشاء به المزاج: أن تقوده، أو تتيه به، أو تمحوه قليلًا من الداخل.

أدار المحرك.

لم يكن يعرف إلى أين، لكن المدينة كما لو أنها تعرفه بدأت تبتلعه بهدوء.

تــدحرجت الســيارة فــي الأزقــة مثــل فكــرةٍ لــم تكتمــل.. , أضــواءٌ صــفراء، بيــوتٌ نائمــة، وكلــبٌ يــركض كأنــه يطــارد ذاكرتــه.. , ثــم، فجــأة، ارتفعــت يــدٌ من العتمة.

شاب.

أوقف السيارة.

ـ إلى أين؟

سأل بصوتٍ لم يكن متأكدًا من أنه صوت "سائق".

ـ الزعفرانية.

فتح الباب وصعد الشاب.

كــان فــي الثامنــة عشــرة تقريبًــا، وجهــه جميــل علــى نحــوٍ موجــع، كــأن الحيــاة لــم تبــدأ معــه بعــد، لكنهــا بــدأت تضــربه مســبقًا.. , عيــونٌ متعبــة، وملابــس تحمــل غبار يومٍ طويل لا ينتهي.

تحركت السيارة.

صمتٌ قصير، ثم قال السائق:

ـ يبدو أنك خرجت من معركة.

ابتسم الشاب ابتسامة لا تشبه الفرح.

ـ معركة؟ لا... هذا يوم عمل فقط.

سكت لحظة، ثم أضاف كأنه يفتح ملفًا لا يريد فتحه:

ـــ منــذ الفجــر وأنــا أعمــل فــي البنــاء.. , حملــت إســمنتًا وحديــدًا وأحلامًــا لا تخصــني.. , وبعــد الظهــر ذهبــت لهــدم مرحــاض قــديم فــي بيــت خــالتي فــي

مدينـــة الصـــدر.. , عمـــلٌ "تطـــوعي"... ؛ نحـــن الفقـــراء نُجيـــد اختـــراع الكلمات لتبدو الحياة أقل قسوة.

التفت السائق نحوه قليلًا.

ـ ولماذا كل هذا؟ ألم تجد عملًا أرحم؟

ضحك الشاب بخفةٍ مرة.

ـ جرّبت كثيرًا.

ثم بدأ يسرد كأنه لا يتكلم مع أحد، بل يراجع حياته بصوتٍ عالٍ:

ـــ كنـت حمـالًا فـي الشـورجة. السـوق مـات، وبقينـا نحـن الأحيـاء نتنـافس علـى الموت البطيء.

ثـم عملـت فـي فنـدق... راتـب جيـد، غرفـة نظيفـة، لكـن صـاحب الفنـدق أراد أن يحوّل كل شيء إلى ثمنٍ للجسد.. ؛ هربت.

صمت.

السيارة مرت بجسرٍ شبه مظلم.

أكمل الشاب:

ـــ عملـت فـي كـوفي شـوب.. , قـالوا لـي "مجـرد خدمـة".. , لكـن صـاحب المكان كان يضع أشياء في المعسل... ؛ يضحك ويقول إنها "نكهة".

ثـم اكتشـفت لاحقًـا أنهـا بدايـة سلاسـل.. , مـن يـدخنها مـرة، يعـود طالبًـا المزيد... حتى يصبح بلا قرار.. , رأيت شبابًا يتحولون إلى ظلال.

شدّ السائق على المقود.

لم يقل شيئًا.

تابع الشاب، وصوته صار أثقل:

ــــ وآخـــر مـــرة... صـــاحب محـــل طلـــب منـــي أن أحلـــق شـــعر جســـدي كلـــه.. , وعندما سألته، قال: أريدك أن تكون لي... أتكفل بك.

توقف لحظة، ثم قال بحدة مكبوتة:

ـ كأني شيءٌ معروض للبيع.

نظر إلى السائق:

ـ أنا رجل. لست صفقة.

سكت.

ثم أضاف بصوتٍ أخفض:

ــــ تركـــت كـــل شـــيء.. , والآن أعمـــل أي شـــيء بيـــدي فقـــط...؛ التعـــب أفضـــل من الانكسار.

دخلـــت الســـيارة الأزقـــة الأخيـــرة للزعفرانيـــة.. , كانـــت الإضـــاءة أقـــل، والمدينة أكثر هدوءًا، كأنها تستعد لابتلاع كل ما قيل.

توقفت السيارة.

نزل الشاب.

ثم التفت:

ـ كم الأجرة؟

لـــم يجبـــه الســـائق مباشـــرة.. , كـــان ينظـــر إليـــه كمـــن يـــرى نســـخةً أصـــغر مـــن خيبته القديمة.

ـ اقترب.

تردد الشاب، ثم اقترب من النافذة.

مدّ السائق ورقة نقدية.

خمسون ألفًا.

تجمد الشاب.

ـ لا... هذه أكثر من اللازم.

لكن السائق لم يسمع.. , أو لم يشأ أن يسمع.

التقت عيونُهما.

وفي تلك اللحظة، لم يعد هناك سائق ولا راكب.

كان هناك شخصان فقط، كلٌّ منهما يعرف أن الحياة لم تترك له خيارًا نظيفًا، وأن النجاة ليست بطولة، بل شكلٌ آخر من الخسارة.

انكسرت نظرة الشاب أولًا.

أخذ المال بصمت، كأنه يحمل شيئًا أثقل من الورقة نفسها.

ـ شكرًا... قالها بصوتٍ لا يشبه الشكر.

ثم ابتعد في عتمة الحي.

بقي السائق وحده.

أدار المحرك من جديد، لكن السيارة لم تكن تتحرك كما قبل.. كأنها فقدت مقصدها.

لم يعد يبحث عن زبائن.

كان يدور فقط.

يـــدور فـــي مدينـــةٍ لا تنـــام، ولكنـــه بـــدأ يفهـــم متـــأخرًا أن الصـــدفة ليســـت لعبـــة... بل طريقة أخرى لقول الحقيقة:

أن الجميع هنا سائقون بلا طريق، وركابٌ بلا نجاة.

سرير من رماد (٣٨)

كـــأن الـــزمن نفســـه أصـــيب بـــالحمّى، أو كـــأن ســـاعةً خفيّـــةً فـــي أعماقـــه قـــد توقفـــت فجـــأةً دون أن تســـتأذن أحـــدًا... ؛ كانـــت ســـاعته البيولوجيـــة — تلـــك التـــي تضـــبط إيقـــاع الحيـــاة فـــي جســـد الإنســـان — قـــد تعطلـــت، فأصـــبح الـــزمن عنـــده كتلةً ضبابيةً بلا بداية ولا نهاية .

كـــان الســـرير يطفـــو فـــي منتصـــف الغرفـــة كجزيـــرة منكســـرة، ورحمـــن يســـتلقي عليـــه كغريـــق لا يملـــك إلا أن يتشـــبث بقطعـــة خشـــب آيلـــة للغـــرق... ؛ لـــم يعـــد يعـــرف إن كـــان مـــا يـــراه مـــن النافـــذة نهـــاراً أم لـــيلاً، فـــالزمن فـــي جســـده المتهالـــك توقـــف عـــن الجريـــان، صـــار الوقـــت جرعـــات كيماويـــة تتســـاقط فـــي عروقـــه كالرصـــاص المـــذاب، وســـاعات مـــن التقلـــب علـــى فـــراش يـــابس كأنـــه مرصـــوف بالسيوف أو مطرز بالشوك وشظايا الزجاج المتكسر ...

كـــان رحمـــن قبـــل أن يـــزور جســـده ذلـــك الضـــيف الثقيـــل — الـــذي لا يطـــرق البـــاب بـــل يقتحمـــه كجـــيش مـــن النمـــل الأبـــيض يأكـــل العظـــام مـــن الـــداخل — إنســـاناً مختلفـــاً... ؛ لـــيس نشـــيطاً بـــالمعنى المتعـــارف عليـــه، بـــل كـــان نشـــاطه وميضـــاً خجـــولاً فـــي ليـــل طويـــل مـــن الإرهـــاق المـــزمن... ؛ لكنـــه الآن ينظـــر إلـــى تلـــك الأيـــام وكأنهـــا كانـــت فردوســـاً مفقـــوداً، أيـــام كـــان يســـتطيع أن يتمشـــى فـــي شـــوارع بيـــروت تحـــت شمســـها الذهبيـــة، متناســـياً جســـده منشـــغلاً بروحـــه وفكره .

يتـــذكر جيـــداً تلـــك الرحلـــة إلـــى بيـــروت، قبـــل أن تنقلـــب الحيـــاة رأســـاً علـــى عقب...

ففـــي أحـــد الأيـــام، وبينمـــا كـــان رحمـــن مســـافرًا إلـــى بيـــروت للســـياحة والاســـتجمام ـــ كمـــا اعتـــاد فـــي بعـــض رحلاتـــه النـــادرة ـــ التقـــى بصـــديقه سليم...

كـــان ســـليم مختلفًـــا عنـــه تمامًـــا؛ رجـــلًا يعتنـــي بجســـده عنايـــةً دقيقـــة، يراقـــب صـــحته كمـــا يراقـــب التـــاجر صـــندوق نقـــوده، لكنـــه فـــي المقابـــل كـــان مهمِـــلًا لروحه وفكره ...

أمـــا رحمـــن فكـــان علـــى العكـــس منـــه تمامًـــا... ؛ كـــان يقـــرأ كثيـــرًا، يفكـــر كثيـــرًا، يطيـــل التأمـــل فـــي معنـــى الأشـــياء، لكنـــه يهمـــل جســـده كمـــا يهمـــل شـــاعرٌ جســـده حين يغرق في القصيدة ...

قال سليم ذات صباح وهو يرتدي معطفه :

ســـأذهب إلـــى المستشـــفى الأمريكـــي لإجـــراء بعـــض الفحوصـــات العامـــة... ؛ أحب أن أطمئن على صحتي بين حينٍ وآخر ...

نظر إليه رحمن مبتسمًا، ثم قال بنبرةٍ عفوية :

... خذني معك... ؛ ربما يجدر بي أنا أيضًا أن أجري بعض الفحوصات

هزّ سليم رأسه موافقًا :لا بأس... لنذهب معًا .

وصلا إلى المستشفى ...

المكـــان كـــان نظيفًـــا إلـــى حـــدٍّ يجعـــل المـــرء يشـــعر أن المـــرض نفســـه يخجـــل مـــن الظهـــور فيـــه... ؛ أروقـــة بيضـــاء، وأطبـــاء بوجـــوهٍ هادئـــة، وأجهـــزة تـــومض بأضواء باردة ...

أجريا الفحوصات ...

جــاءت نتــائج ســليم عاديــة... ؛ لــم يكــن يعــاني ســوى مــن التهابــات بســيطة فــي الكليتين وبعض الرمل فيهما... , أمرٌ عابرٌ لا يستحق القلق .

لكــن الطبيــب طلــب ســليم علــى انفــراد ... ؛نظــر إليــه الطبيــب طــويلًا قبــل أن يقول بصوتٍ خفيض : رحمن صديقك؟

قال سليم : نعم .

تنهد الطبيب قليلًا، ثم قال :

صـــديقك مصـــاب بســـرطان المثانـــة... ؛ فـــي المرحلـــة الثانيـــة... ؛ إن لـــم يتدارك الأمر سريعًا فقد تكون حياته في خطر .

فــي تلــك اللحظــة، شــعر ســليم أن الأرض قــد انســحبت مــن تحــت قدميــه ... ؛تجمّعت الدموع في عينيه دون أن يستأذنها ...

خرج من الغرفة وهو يحمل السر كمن يحمل قنبلةً موقوتة في صدره ...

سأل رحمن الطبيب لاحقًا ببراءة :

فــي نتيجــة الفحوصــات كتبــوا أن لــدي مشــكلة فــي المثانــة... ؛ مــاذا يعنــي ذلك؟

أجابــه الطبيــب بتــردد :مــن الأفضــل أن تراجــع طبيــب اختصــاص فــي المســالك البولية.

لكن سليم أسرع بالكلام قبل أن يتفاقم القلق في قلب صديقه :

... لا شــيء مهــم... ؛ مجــرد أمــلاح أو رمــل فــي المثانــة... ؛ ربمــا التهــاب بسيط

ابتسم رحمن مطمئنًا ... ؛ واقتنع بالكذبة الجميلة .

عــادا إلــى بغــداد، وهنــاك انفجــرت الحقيقــة فــي وجــه العائلــة كقنبلــة موقوتــة... ؛ اذ صــار البيــت ندبــة كبيــرة تــئن، والأصــوات تتصــاعد كــالبخور الأســود:

صـــراخ، عويـــل، بكـــاء، ثـــم صـــمت ثقيـــل كالرصـــاص... ؛ ومنـــذ تلـــك اللحظـــة، بـــدأت رحلـــة رحمـــن فـــي متاهـــة لا مخـــرج منهـــا: عيـــادات تـــزدحم بـــالوجوه الشـــاحبة، مختبـــرات تفـــوح منهـــا رائحـــة الكحـــول والمـــوت، مستشـــفيات حكوميـــة ممراتهـــا تشـــبه أنفـــاق القبـــور، وصـــيدليات يـــدفع فيهـــا المـــال مقابـــل علب صغيرة تَعِد بالحياة وتُهدي الموت بطيئاً...

كـــان يســـافر إلـــى نيـــودلهي بـــين الحـــين والآخـــر، هنـــاك حيـــث المـــدن تغـــص بالبشـــر والآلهـــة تتســـول فـــي الشـــوارع... ؛ كـــان يـــدخل غـــرف العـــلاج الكيمـــاوي فيُعلِّقـــون فـــي ذراعـــه قنينـــة مـــن نـــور معـــتم، تشـــع فـــي جســـده إشـــعاعات نوويـــة تقتـــل الخلايـــا المتمـــردة وتقتـــل معهـــا الخلايـــا المســـالمة ايضـــا ... ؛ كـــان يشـــعر وكـــأن جســـده ســـاحة حـــرب تـــدمر بالكامـــل حتـــى لا يبقـــى فيهـــا حجـــر علـــى حجر ...

أمـــا فـــي البيـــت، فقـــد صـــار الســـرير ســـجنه الوحيـــد... ؛ كـــان لا يغـــادر غرفتـــه إلا نـــادراً، حـــين تضـــطره حاجـــة الحمـــام أن يجـــر جســـده كجـــريح يزحـــف مـــن معركة خاسرة...

كـــان يتقلـــب علـــى الفـــراش كخبـــز علـــى مقـــلاة ملتهبـــة: ينـــام علـــى جنبـــه الأيمـــن فيصـــرخ الأيمـــن، فيتحـــول إلـــى الأيســـر فيصـــرخ الأيســـر، ثـــم ينـــام علـــى بطنـــه فيتـــذكر أنـــه لا يحتمـــل وزنـــاً علـــى صـــدره، وأخيـــراً يســـتلقي علـــى ظهـــره فيشـــعر أن عمـــوده الفقـــري يتحـــول إلـــى قطـــع زجـــاج مكســـور ... ؛و كـــأن فراشـــه مصنوعٌ من شوكٍ لا يُرى ...

كـــان يـــنهض بصـــعوبة يعصـــرها الألـــم، يتوكـــأ علـــى يديـــه تـــارة وعلـــى عصـــاه تـــارة اخـــرى ... ؛ و هـــو الـــذي كـــان يـــركض كـــالغزال فـــي شـــوارع بيـــروت... ؛ عندها ينشد قائلا :

كأني وقد جاوَزْتُ تسعين حِجَّةً ***خلَعْتُ بها يوماً عِذَارَ لِجامِي

عَلى الراحَتَينِ مَرَّةً وَعَلى العَصا ***أَنوءُ ثَلاثاً بَعدَهُنَّ قِيامي

كـــان يأكــل الطعـــام وكأنـــه يمضـــغ الزجـــاج، يـــدفع اللقمـــة فـــي فمـــه كمـــن يـــدفن ميتاً...

كـــان يريـــد النـــوم لكـــن النـــوم صـــار حلمـــاً بعيـــداً و ضـــيفًا نـــادرًا ، وإذا غفـــا غفـــوة خفيفـــة هاجمتـــه الكـــوابيس كـــذئاب جائعـــة، فـــراش المـــوت يهـــزّه بعنـــف، وجـــوه غريبـــة تطـــل مـــن الظـــلام وتهمـــس: لقـــد حـــان وقـــت الرحيـــل ... ؛ لقـــد حـــان وقـــت الرحيل ...

نعـــم , كـــان يـــرى نفســـه يســـقط فـــي هاويـــة بـــلا قـــاع ... ؛أو يـــرى ظـــلالًا ســـوداء تلاحقـــه كأنهـــا رســـل المـــوت ... ؛يســـتيقظ مـــذعورًا ... ؛ينظـــر إلـــى الســـقف طويلًا ... ؛كأن السقف مرآةٌ يرى فيها النهاية القادمة .

فـــي لحظـــات نـــادرة مـــن الصـــفاء والعزلـــة التامـــة ، كـــان يســـمع الموســـيقى الحزينـــة، الأغـــاني التـــي تبكـــي فـــراق الأحبـــة، وكـــان يطـــرب لصـــوت النســـاء الثكـــالى وهـــن ينـــدبن موتـــاهن، كأنـــه يســـتعد لـــدوره القـــادم فـــي هـــذه المرثيـــة الكونيـــة..., كـــان يشـــعر أن تلـــك المراثـــي موجهـــة إليـــه ؛ وصـــار ينعـــي نفســـه كـــل يـــوم قبـــل أن يمـــوت، يبكـــي علـــى جســـده الـــذي يتفتـــت كتمثـــال مـــن رمـــال، على روحه التي تتسرب من بين أصابعه كالماء ...

صـــار رحمـــن الميـــت الحـــي، الشـــاهد علـــى موتـــه البطـــيء... ؛ كـــان يزحـــف علـــى يديـــه وركبتيـــه حـــين لا تـــراه العيـــون، مـــن شـــدة الألـــم فـــي عظامـــه التـــي صـــارت هشـــة كالزجـــاج بعـــد أن أكلهـــا العـــلاج الكيمـــاوي...؛ مـــن كثـــرة التشـــنجات التـــي كانـــت تلويـــه كـــأفعى عملاقـــة، مـــن وهـــن العمـــود الفقـــري الـــذي لم يعد يحتمل وزنه ...

وروحٌ تقـــف كـــل ليلـــةٍ علـــى حافـــة الوجـــود ... ؛تنظـــر إلـــى العـــدم ؛وتتســـاءل بصمت :

هل الحياة حلمٌ قصير،أم أن الموت هو اليقظة الحقيقية؟

كان رحمن قد اكتشف فجأةً الحقيقة التي يتأخر البشر في فهمها ... ؛أن الإنسان لا يموت حين يتوقف قلبه ... ؛بل يموت حين يبدأ في رؤية حياته من الخارج ... ؛كأنه غريبٌ عنها...

وفي إحدى الليالي، بينما كان يتألم في صمت، سمع صوتاً من الداخل، صوتاً يشبه صوته لكنه كان أكثر نقاءً: ألستَ أنت من كان يهمل جسده في سبيل الروح؟!

انظر، ها هو جسدك ينتقم منك الآن، يريد منك أن تعترف به، أن تحبه، أن تحس به... ؛ عندها أدرك رحمن أن السرطان لم يكن مجرد مرض، بل كان صرخة جسده المهمل الأخيرة ... ؛ محاولة يائسة ليقول: أنا هنا أيضاً، أنا لست وعاءً هامشياً، أنا أنت ...

ومع هذا الإدراك، بدأ رحمن يتصالح مع جسده المتألم، يربت على يده المنتفخة من المحاليل، يداعب قدميه المتورمتين، يهمس له: سامحني يا صديقي، لقد أهملتك طويلاً، والآن نحن هنا معاً ننتظر النهاية...

ومنذ تلك اللحظة، صار الألم أقل قسوة، صار كطفل يبكي ليلفت الانتباه، وحين حصل على الاهتمام، هدأ قليلاً ...

لكن النهاية كانت قادمة لا محالة، كقطار يأتي في موعده مهما تأخر... ؛ وفي صباح أحد الأيام، بينما كانت الشمس تخترق الستائر بخجل، توقف صدر رحمن عن الحركة، وارتمى جسده في سريره كجندي عائد من حرب طويلة، منهك لكنه أخيراً في سلام ...

غادر رحمن الحياة بهدوء، تاركاً خلفه سريراً من رماد، وغرفة تنتظر ناكباً جديداً... وفي زاوية من زوايا الغرفة، كان هناك ظل خفيف يهمس: "ربما في المرة القادمة، سأعتني بجسدي كما أعتني بروحي، فأنا لست روحاً محمولة على جسد، بل أنا الكل، أنا الواحد الذي لا يتجزأ...

سلسلة من نار (٣٩)

نشأ أحمد في بيتٍ لم يكن ينقصه المال، بل كان ينقصه شيءٌ واحد: الهواء الهادئ.

كان والده، الحاج صادق، رجلًا يؤمن أن التربية لا تُبنى إلا على الصوت العالي.. , لا يمرّ يومٌ في البيت دون صراخٍ، ولا خطأ دون عقوبة، ولا نقاش دون أن يتحوّل إلى مواجهة.

كان يقول دائمًا:

«الابن إذا لم يَخف أباه... ضاع.»

لكن أحمد لم يكن يرى في الخوف تربية، بل كان يراه شكلًا يوميًا من الاختناق.

في إحدى الليالي، بعد صفعةٍ تلقاها بلا سبب واضح سوى "سوء المزاج"، جلس أحمد على سطح البيت، يضغط كفّه على وجهه ويهمس لنفسه:

«إذا كبرتُ... لن أكون هذا الرجل.»

لم تكن جملة ثورية، بل كانت وعدًا خافتًا لطفلٍ يريد أن ينجو.

مات الحاج صادق بعد سنوات، وترك مالًا لا بأس به، لكنّه ترك وراءه شيئًا أثقل: فراغًا من الطمأنينة.

كبر أحمد، وتزوّج لاحقًا، وكأنّه يدخل حياة جديدة ليُصلح ما انكسر فيه.. , كان هادئًا، لينًا، شديد الحرص على ألا يرفع صوته في بيته.

كان يقول لزوجته أحيانًا:

«لن أكرر أبي... يكفي ما رأيته.»

ورزق ثلاثة أولاد وبنتًا.

كان أقرب إلى صديقٍ لأبنائه منه إلى أبٍ تقليدي.. , يضحك معهم، يتنازل، يتفادى الصدام، ويغلق عينيه عن كثير من الأخطاء الصغيرة.

كان يعتقد أنه بذلك قد "كسر السلسلة".

لكن السلاسل، كما سيكتشف لاحقًا، لا تُكسر بالنوايا.

كبر التوأمان: زيد وعلي.

وفي مرحلة المراهقة، بدأ البيت يتغيّر من جديد.

زيد، الابن الأكبر، صار يميل إلى التدين الصارم، لكنه تدينٌ يختلط فيه الإيمان بالحدّة.. , كان يراقب والده أكثر مما يستمع له، ويقول له أحيانًا بنبرة لا تخلو من اتهام:

«هذا ليس صحيحًا شرعًا... أنت تتساهل كثيرًا.»

كان أحمد يرد بهدوء:

«الدين ليس سيفًا يا زيد... الدين فهم ورحمة.»

لكن الحوار بينهما كان يتحوّل سريعًا إلى جدار بارد.

أما علي، فكان الاتجاه الآخر تمامًا.

غرق في هاتفه، في العالم الافتراضي، في صداقات سريعة ووهمٍ أكبر من عمره.. , بدأ يكذب، يتأخر، ثم اختفت من حسابات أبيه مبالغ صغيرة...؛ قبل أن تتحول إلى مبلغ كبير.

وفي ليلةٍ واحدة، لم يعد علي إلى البيت.

مرّ شهرٌ كامل.

كان البيت فيه صمتٌ غير طبيعي، صمتٌ أثقل من الصراخ القديم.

أحمد لم يكن ينام.. , كان يخرج كل ليلة، يتصل، يبحث، يسأل، يزور الأصدقاء والأقارب.

كان يقول بصوت متعب:

«أريده حيًا... فقط حيًا.»

حتى وُجد علي أخيرًا في أربيل، وأُعيد إلى البيت.

لكن العودة لم تكن نهاية القصة.

في ليلة العودة، انفجر البيت.

صوت التوبيخ، صراخ العائلة، الغضب المتراكم.

وفي لحظة فقدان السيطرة، قرر أحمد أن "يوقف الفوضى".

تم احتجاز علي في الغرفة الخلفية.

لم يكن الأمر مخططًا بالكامل، لكنه حدث تحت ضغط الخوف والغضب والعار العائلي.

سلاسل حديدية... باب مغلق... وطعام يُمرّر بصمت ثقيل.

كان علي يجلس هناك، يحدّق في الجدار، كأنه لا يرى أباه بل يرى شيئًا آخر أعمق: انهيار الصورة.

ففي أحد الأيام السابقة ، قال أحمد بصوت منخفض لنفسه:

«سأعيده... لكن بالقوة هذه المرة.»

ولم يدرك أنه يعيد إنتاج شيءٍ ظنّ أنه انتهى داخله منذ زمن.

زيد رأى المشهد.

لم يرَ "تأديبًا".

رأى إذلالًا.

وقــف عنــد البــاب للحظــات، لا يــتكلم.. , كــان وجهــه مشــدودًا، وصــوته الداخلي يتصارع:

«هذا ليس أبي... هذا ليس الرجل الذي وعد نفسه أن يكون مختلفًا.»

ثم خرج صامتًا.

صعد إلى غرفة والده.

لم يكن في عينيه بكاء، بل فراغ مشحون.

فتح درجًا جانبيًا.

أخرج السلاح الذي كان محفوظًا منذ سنوات كجزء من "حماية البيت".

لم يكن يفكر بالموت كما يفكر الناس به.

كان يفكر فقط بإيقاف الصوت الداخلي الذي صار أعلى من كل شيء.

قال بصوت شبه مكسور:

«كفى...»

وضغط الزناد.

ســقط الصــمت فجــأة، لكــن لــيس الصــمت الــذي يُشــفي... , بــل الصــمت الــذي يُنهي كل شيء.

في الأسفل، كانت الأم تركض.

فتحت باب الغرفة الخلفية، قيود علي في يده، عينه لا تصدّق ما يسمعه من صراخ.

قالت وهي ترتجف:

«زيد... زيد لا...»

لكن الجملة لم تكتمل.

علي فهم كل شيء دون شرح.

سقط على الأرض، كأن السلسلة التي في يده تحوّلت إلى داخل صدره.

صرخ:

«هذا أنا يا زيد ... انا السبب .. انتهى كل شيء!»

ثم اندفع خارجًا، لا يلتفت.

في تلك الليلة، بقي أحمد وحده.

جلس في غرفة صامتة، لا يشبه صمتها أي شيء عرفه سابقًا.

لم يعد يرى نفسه أبًا صارمًا أو أبًا متسامحًا.

رأى فقط سلسلة طويلة تمتد خلفه... لا يعرف أين تبدأ.

تذكر صوت أبيه:

«الابن إذا لم يخف أباه... ضاع.»

ثم سمع صوته هو، في الماضي:

«لن أكونه.»

وبكى بمرارة، كأنه فهم أخيرًا المفارقة القاسية:

أن الإنسان لا يهرب من أبيه... بل يعيد إنتاجه بشكل مختلف.

عند الفجر، كان الأذان يرتفع من بعيد.

لكن أحمد لم يسمعه كدعوة عبادة فقط.

سمعه كشيء آخر:

سؤال متأخر جدًا.

جلس، يحدق في يديه، وكأنهما ليستا يديه.

وأدرك، لأول مرة، أن أخطر ما في القسوة...

أنها لا تموت مع أصحابها،

بل تبحث دائمًا عن جسدٍ جديد لتعيش فيه.

سُلَّمُ الذِّكرِ الذي قادَ إلى الشيطان ..!! (٤٠)

لم يكن الشيخ حسن زاهدًا بالمعنى الذي تُلصقه الكتب بالزهاد، أولئك الذين يمشون فوق الأرض كأنهم فقدوا ثقلها.

كان أقرب إلى رجلٍ مُنهكٍ من ذاته، يطارد طمأنينةً تتراجع كلما اقترب منها.. , لا تقوده العقيدة بقدر ما تقوده الحاجة: حاجةٌ خام، تشبه جوعًا لا يعرف اسمه.

كان يقرأ الأذكار كما لو أنها خرائط سرّية للخلاص، مقتنعًا أن للكلمات بنية خفية، وأن تكرارها ليس عبادة فقط بل إعادة تشكيل للداخل.. , في ليالٍ طويلة، كان يهمس:

"إذا تكررت الكلمة بما يكفي، ستتوقف عن كونها صوتًا... وتصبح بابًا."

في إحدى الزوايا المنسية من مكتبة قديمة، عثر على ذكرٍ منسوب إلى رجل غامض يُدعى رجب الخياط، قيل : إنه لا يذكر الله فقط، بل "يخيط الوجود بالذكر"، كأن الروح قماشٌ ممزق يحتاج غرزة دقيقة كي لا يتسرب منه الإنسان.

لم يسأل حسن عن صحة النسبة.. , كان التعب في داخله أقوى من الشك.

بدأ الذكر.

ألف مرة... ثم عشرة آلاف.

لم تعد الكلمات تُقال، بل كانت تُستنزف منه.. , كأن كل تكرار ينزع طبقة من جلده الداخلي.. , ومع الليلة العاشرة، لم يعد يعرف إن كان يذكر أم يُستَذكَر.

في تلك الليلة، انطفأت الغرفة دون أن ينطفئ الضوء.. , شيءٌ ما ظلّ يعمل في الظلام.

بين النوم واليقظة، انشقّ الهواء كجرحٍ بلا دم.. , وظهر الرجل الغريب .

كان طويلًا بشكل غير مطمئن، كأنه امتداد لفكرةٍ لم تكتمل في عقل الكون.. , بشرته شاحبة بلا مرض، وشعره منسدل كأنه خرج للتو من ذاكرة قديمة.. , لم يقترب بسرعة، بل بطريقة توحي أن المكان ملكه منذ البداية.

حسن همس، وقد تكسرت حنجرته بالخوف:

– أعوذ بالله...

ضحك الرجل.. , لم تكن ضحكة ساخرة فقط، بل ضحكة تُفكك المعنى من داخله.

وقال بصوت هادئ، أقرب إلى شرحٍ بارد:

– أنا هو الذي تتعوذ منه , وأنا أيضًا أعرف الطريق إليه... ولكن بطريقتي.

تراجع حسن، ثم بدأ يقرأ ما يحفظه: آيات قصيرة، متقطعة، كمن يحاول تثبيت سقف ينهار.. , لكن الكائن لم يتأثر.. , بل بدا كأنه يستمتع بتفكك اللغة بين يديه.

تمددت الظلال في الغرفة.. , الجدران لم تعد جدرانًا، بل احتمالات مغلقة.. , وحسن شعر لأول مرة أن الخوف ليس شعورًا، بل كائنٌ يجلس بالقرب منه .

اقترب الوجه.

لم يعد هناك "هو" و"الآخر".. , فقط مسافة تتآكل.

وحين انعدمت المسافة، لم يجد حسن شيئًا يستند إليه سوى اسمٍ خرج من أعماقه، لا يعرف كيف وُلد فيه:

– يا علي...

سكت لحظة، ثم كررها، كأنه يتأكد أن الصوت ما زال يخصه:

– يا علي... يا علي...

في تلك اللحظة، لم يحدث انفجار ولا نور.. , حدث شيء أبسط وأشد رعبًا: انكماش.

الكائن تراجع كأنه فقد اتساقه الداخلي، كأن الاسم لم يكن استغاثة بل مرآة عكست عليه هشاشته.. , تشوهت ملامحه، لا إلى قبحٍ فقط، بل إلى "لا شكل".. , شيء لا يستطيع أن يثبت كونه موجودًا.

وهو ينسحب نحو الباب، قال بصوت متقطع، أقرب إلى وعدٍ مهزوم:

– ليست النهاية... أنت لم تفهم بعد.. ؛ سأعود يا حسن .

ثم اختفى.

استيقظ حسن على صمتٍ ثقيل، كأن الغرفة نسيت ما حدث لتوها.. , جسده كان متعبًا بشكل لا يفسَّر، كمن عاد من حرب لا يتذكرها.

صلى.. , لكن الصلاة لم تكن راحة، بل سؤالًا مفتوحًا.

نام مرة أخرى.

في النهار، رن الهاتف.

رقم مجهول.

لم يكن هناك مقدمات.., صوتٌ بارد، واضح، كأنه لا يأتي من شخص بل من نظامٍ خفي:

– أنت تظن أنك نجوت؟

لم يرد.. , تجمد.

تابع الصوت:

– ما رأيته ليس خارجك... بل طريقتك في رؤيتك لنفسك.

ثم انقطع الاتصال.

جلس حسن طويلًا دون حركة.. , للمرة الأولى، لم يعد السؤال: "من كان ذلك؟"

بل: "لماذا أنا الذي رآه هكذا؟"

بدأ الفهم يتسلل إليه ببطء مؤلم: ربما الذكر لم يكن بابًا إلى الخارج، بل مرآة إلى الداخل.. , وربما ما يُسمّى بالشيطان ليس كيانًا يهاجم، بل صورة تتشكل عندما يشتد الضوء على زوايا النفس غير المعترف بها.

منذ ذلك اليوم، تغيّر الذكر في فمه.

لم يعد يُقال ليطرد شيئًا، بل ليكشف شيئًا.

كان يهمس:

"ليس لأهزم الظل... بل لأرى أين أبدأ أنا والظل معًا."

وصار كل تكرارٍ خطوةً داخل نفسه، لا فوق عدوٍ خارجي.

لم يعد يبحث عن الخلاص من "هناك"، بل عن صدقه "هنا".

وفي ليالٍ لاحقة، حين يغمض عينيه، كان يسمع شيئًا يشبه الصمت وهو يتكلم، كأنه يقول له دون صوت:

"الطريق لم يكن إلى الله بعيدًا عنك... بل إليك وأنت تظن أنك بعيد."

شمعة اللاهوت وصومعة الظلام (٤١)

في الأزقة العراقية القديمة، حيث كانت الشتائم تُقال كما يُقال السلام، وحيث تختلط رائحة الطين بدخان النفط والكآبة، كان نذير مختلفًا منذ طفولته.

لم يكن يلعب كثيرًا.

كان يقف عند حافة الأشياء، كأنه وُلِد خارج عمره الحقيقي.

بينما كان الصبية يركضون خلف كرة ممزقة، كان هو يحدّق في السماء متسائلًا:

كيف يرى الله كل هذا الخراب ويسكت؟

لم يكن يعرف لماذا كانت فكرة الله تسكنه بهذه الوحشية.

شيءٌ خفيّ يشده إلى الأعلى، بينما كل ما حوله يغرق في الأسفل.

وفي أحد أيام الصيف، كان أطفال الزقاق يتبادلون السباب المعتاد... ؛ ضحكات، ألفاظ قذرة، تحديات طفولية.. , ثم صاح أحدهم:

— خرب .. ا ل ل

ولم يُكمل الجملة.

اندفع نذير نحوه كمن دُفع من داخله، وصفعه بقوة حتى انفجر أنف الطفل بالدم.

ساد صمت قصير، ثم بدأ الصراخ.

جاءت أم الطفل غاضبة، ترتدي عباءة سوداء ورائحة البصل والعرق تخرج منها مع الكلمات:

— ابنكم ضرب ابني! كاد يقتله!

التفتت أم نذير إليه:

— لماذا ضربته؟

كان صدره يرتفع بعنف، وعيناه مشبعتين بدمعة غامضة:

ــــ لأنه سبَّ الله.

ضحكت المرأة بسخرية جارحة:

ــــ وهل الله قريبكم حتى تدافع عنه؟!

كبروا عقولك ... الدنيا خربانة , وجنابك الكسيف تدافع عن الله!

ثم بصقت قرب الباب وغادرت.

أما نذير، فقد بقي واقفًا كأن أحدًا طعنه في مكان لا يُرى.

في تلك الليلة لم ينم.

كان يسمع أصوات الرجال في المقهى القريب، سبابهم، ضحكاتهم، أحاديث الحرب والتموين والحصار، بينما هو يغرق في سؤال واحد:

أين الله عن كل هذه الفوضى (الهوسه) ؟

كبر نذير، وكبر معه القلق.

كل سنة كانت تضيف إلى روحه طبقة جديدة من الوحشة النفسية والحيرة الوجودية .

كان متفوقًا، نظيفًا، هادئًا أكثر مما ينبغي، حتى إن المعلمة ساجدة انتبهت إليه منذ الأيام الأولى.

كانت تختلف عن بقية المعلمات.

صوتها منخفض، وعيناها فيهما حزن لا يخص المدرسة وحدها.

لاحظت طريقته في كتابة الإنشاء.

طفل في العاشرة يكتب عن الموت كأنه عجوز نجا من حربين.

أعطته مجلات الأطفال أولًا، ثم الكتب الصغيرة لاحقًا.

كانت تفتح له بابًا سرّيًا نحو العالم، بينما كان الوطن يغلق أبوابه كلها.

ومع السنوات، صار ينتظر حصتها أكثر من أي شيء آخر.

لم يكن يفهم ما يشعر به.

هل كانت أمًّا؟

أختًا؟

قديسة؟

امرأة؟

في المجتمعات المغلقة تختلط المسميات، وتضيع الحدود بين الحنان والرغبة، بين التربية والعشق، بين الاحتواء والجوع العاطفي.

كانت ساجدة ترى فيه شيئًا نادرًا وسط الخراب:

روحًا لم تتلوث بعد.

وكان يرى فيها خلاصًا صغيرًا من قسوة العالم.

حين بلغ الصف السادس، كان جسده قد بدأ يستيقظ بطريقة مرعبة.

صار يشعر بانتصاب مفاجئ كلما اقتربت منه المعلمة، فيرتعب من نفسه.

يحاول أن يخفي الأمر خلف حقيبته أو انحناءة مرتبكة.

كان يشعر أن جسده يخونه.

روحُه تريد الطهارة، لكن الجسد يسحبها نحو الأرض.

وكان هذا التمزق بداية الكارثة.

في العراق آنذاك، لم يكن الحب البريء مفهومًا ؛ مفهومًا قابلًا للحياة.

كل شيء محكوم بثلاثية: العيب، العار، الخوف.

الناس لا يصدقون الأرواح، بل يصدقون الفضائح فقط.

ولهذا ظل كل شيء صامتًا.

مجرد نظرات طويلة، وأسئلة مدرسية تتحول إلى ارتباك، وصمتٍ مشبع بما لا يُقال.

حتى جاء يوم الوداع.

نجح نذير وانتقل إلى المتوسطة، بينما بقيت ساجدة واقفة عند باب المدرسة تراقب الطلاب الخارجين.

وحين مرَّ قربها، اكتفت بقول:

— لا تضيع نفسك يا نذير.

كانت تعرف أن شيئًا مظلمًا ينتظره.

لكنه لم يفهم الجملة إلا بعد سنوات.

في المتوسطة، دخل عالمًا آخر.

المراهقون يتحدثون عن النساء، الصور الخليعة، المغامرات الرخيصة، بينما صور القائد الضرورة تراقب الجميع من الجدران.

المدرسة كانت ثكنة مصغرة.

المدير رجل يشبه ضابط تحقيق أكثر من كونه مربيًا.

هناك تعرّف على راضي.

كان مختلفًا.

هادئًا، حادّ النظرات، يحمل كراهية عميقة للعالم.

علم لاحقًا أن والد راضي أُعدم بتهمة الانتماء لجماعة دينية معارضة.

لكن راضي كان يقول دائمًا:

— أبي لم يكن سياسيًا... كان فقط يبحث عن الله أكثر مما تسمح به الدولة.

ومنذ تلك اللحظة، بدأ التحول.

شيئًا فشيئًا، صار نذير يرى العالم فخًا شيطانيًا.

الضحك خطيئة.

الرغبة نجاسة.

الجسد عدو.

ترك الموسيقى.

ترك اللعب.

ترك النوم.

أصبح يصوم باستمرار حتى شحب وجهه.

يصلي ليلًا حتى تتعب قدماه.

يمشي مطأطئ الرأس كأنه يحمل نعشًا غير مرئي.

وكان كلما تذكر ساجدة يشعر بوخز مرعب.

كيف أحب امرأة؟

كيف سمح لجسده أن يشتهي؟

صار يستغفر من ذكرياته نفسها.

ثم جاءت مرحلة أكثر ظلمة.

حلق شعره بالكامل.

وقف أمام المرآة يتأمل رأسه الأصلع، شاعراً أن الشعر جزء من الخطيئة.

وحين رأته عمته شهقت:

ـــ ما الذي فعلته بنفسك يا بني؟ الشباب يتباهون بشعرهم وأنت تحلقه كالمجانين!

لكنه لم يجب.

كان يشعر أنه يقتل شخصًا داخله.

بعد ثلاثة أيام فقط، حدث ما لم يكن يتوقعه.

طرقت ساجدة باب البيت.

كانت برفقة معلمة أخرى، وقد مرتا صدفة من الشارع القريب فأرادت الاطمئنان عليه بعد انقطاعه الطويل.

استقبلتهما أم نذير بحفاوة بسيطة، ثم أسرعت إلى غرفته.

كانت الغرفة شبه مظلمة.

كتب دينية مكدسة.

رائحة عرق وصيام وسهر.

وشاب جالس في الزاوية كأنه ناسك مهجور.

قالت الأم مبتسمة:

— الست ساجدة جاءت لتراك.

رفع رأسه فجأة، وفي عينيه خوف متوحش.

صرخ:

— أخرجيها فورًا!

أما تخافين الله؟!

تجمدت الأم في مكانها.

ولأول مرة شعرت أن ابنها لم يعد ابنها.

خارج الغرفة، كانت ساجدة تسمع الصراخ.

فهمت كل شيء دفعة واحدة.

ذلك الطفل الذي أحبَّ الله أكثر من الجميع...

ابتلعه الله نفسه.

خرجت بصمت.

وعندما وصلت إلى باب الزقاق، التفتت نحو البيت للحظة.

كان الغروب يبتلع الجدران العتيقة ببطء، فيما ارتفع أذان بعيد ممزوج بصوت مولدة كهرباء مختنقة.

أدركت أن نذير لم يعد يبحث عن الحقيقة.

بل صار يهرب من الحياة.

أما داخل الغرفة، فقد جلس نذير وحده، يرتجف.

لم يكن يعرف إن كان انتصر على الشيطان...

أم خسر نفسه إلى الأبد.

شيطان الأرق ... (٤٢)

رغم السويعات القليلة التي يحاول أن يختلسها من بين أنياب اليقظة، كمن يسرق ماءً من نهرٍ متوحّش، ما إن يضع رأسه على الوسادة ويمدّ جسده المتشنّج فوق الفراش، حتى تنقضّ عليه الكوابيس دفعةً واحدة.

تأتيه لا كأحلامٍ عابرة، بل كغزوٍ منظّم، كأن شيطان الأرق قد كُتبت له الوصاية على لياليه، فلا يتركه يعبر إلى الضفة الأخرى من النوم.

يرى بنت عمّه تخرج من باب الدار، لا تلتفت خلفها، كأن البيت لم يكن يومًا مأوى... ؛ تمضي إلى شارعٍ مهجور، يبتلع خطواتها بصمتٍ ثقيل، تصحب طفليها الصغيرين، تتقدّم بهم كمن يقود ظلّيه إلى المجهول... ؛ وجهها شاحب، وعيناها معلّقتان في فراغٍ لا طريق له، كأنها لا تعرف أين تذهب، ولا من يسوقها إلى هذا المصير...

ينتفِض صارخًا، وقد خرج الصوت من أعماقه قبل أن يمرّ بعقله:

خديجة... خديجة... خديجة، أين أنتِ؟

ينهض من فراشه مذعورًا، يركض عبر باب الدار الذي تركته مفتوحًا، كأنها كانت على عجلٍ من الرحيل، أو كأن الأبواب لم تعد تعترف بالحدود... ؛ يصل إلى الشارع، فلا يرى إلا الفراغ، ولا يسمع سوى صدى اسمه يرتدّ عليه... ؛ لا خديجة، ولا طفلين، ولا أثر يدلّ على مرور بشر...

يصرخ من جديد، وقد صار النداء أثقل من أن يُحتمل، يختنق في صدره قبل أن يبلغ الهواء:

خديجة... خديجة... خديجة!

يركض نحو باب دار أبيه الملاصقة لدار عمّه، يطرق الباب بعنف، كأن الخشب مسؤول عن هذا الفقد... ؛ ينادي اسمها، لا ليستدعيها، بل ليؤكّد لنفسه أنها ما زالت موجودة في هذا العالم...

يفتح الباب...

وهـا هــي تقـف أمامــه، مبتســمة، هادئــة، كــأن شــيئًا لــم يحــدث، وكــأن الشــارع المهجور لم يكن سوى وهم... ؛ تقول بصوتٍ بسيط، خالٍ من الفزع:

ـــ نعم، أنا خديجة... ما بك يا محمد؟

عنــدها يســتيقظ محمــد فجــأة، جالسًــا فــي فراشــه، وقلبــه يخفــق كطــائرٍ اصــطدم بزجــاج الواقــع... ؛ يتلفّــت حولــه، يــتلمّس جســده، يتحقّــق مــن الغرفــة... ؛ تمتــد يــده إلــى الهــاتف، يريــد أن يســمع صــوتها الحقيقــي، أن يــربط الحلــم باليقين.

ينظر إلى الساعة، فإذا بالعقرب يشير إلى الثالثة والنصف مساءً.

ليس فجرًا... ولا ليلًا.

وقتٌ معلّق، كحاله تمامًا.

يحــاول عبثًــا أن يعــود إلــى الفــراش، لكــن النــوم، وقــد ذاق طعــم الخــوف، يرفض أن يعود.

الســاعة التــي لا تنــام ... ؛ كــان ينــام ليهــرب مــن النهــار، مــن ثقلــه، مــن أســئلته المباشرة ... ؛ فيوقظه الليل متنكّرًا في هيئة سؤالٍ أعمق...!!

كلما أغمض عينيه، تسللت الذاكرة من شقوق الظلام، كدخانٍ يعرف طريقه إلى الرئتين... ؛ تعبث بملامحه، تشوّه الصور، وتعيد ترتيب الوجوه، كما تعبث الريح بورقةٍ يابسة فقدت الشجرة والعنوان.

يرى نفسه يسير في بيتٍ بلا جدران، لا يحميه سقف، ولا يحدّه اتجاه... ؛ أصوات أحبّته تتدلّى من السقف الوهمي، كالمصابيح المنطفئة ؛ موجودة، لكنها لا تُنير... ؛ يناديهم بأسمائهم، فتجيبه الجدران الخفيّة بصدى اسمه فقط، كأن العالم قد اختصر نفسه فيه، ثم نسيه...!!

تقترب منه ساعة حائط، معلّقة في الهواء، بلا عقارب، بلا زمن... ؛ تحدّق فيه طويلًا، ثم تقول بصوتٍ متكسّر، كمن يعترف بحقيقة مؤلمة:

— أنت لا تخاف النوم...

أنت تخاف ما يتذكّرك فيك.

ينتفِض، وقد غمر العرق جبينه، ويجلس على حافة السرير، نصفه في الحلم ونصفه في اليقظة... ؛ يمدّ يده نحو الهاتف، ثم يتراجع، كأن الاتصال بالحقيقة يتطلّب شجاعةً لا تقلّ قسوة عن مواجهة الكابوس.

ينظــر إلــى النافــذة، فيــرى الليــل واقفًــا هنــاك، صــامتًا، بــلا تعــاطف، ينتظــره كما ينتظر القاضي متّهمه ...

عندها يفهم، أخيرًا، أن الأرق ليس عجز الجفون عن الانغلاق،

بل قدرة الذاكرة على البقاء مستيقظة،

وأن النــوم لــيس راحــة ؛ نعــم , كــان يظــنّ أن النــوم بــابٌ جــانبيّ للراحــة، فــإذا بــه ممــرٌّ ســرّيّ إلــى ذاتــه... ؛ بــل هدنــة مؤقّتــة مــع مــا لا يجــرؤ القلــب علــى نسيانه.

عندها فهم، لا بعقله بل بثقله الداخلي،

أن الأرق ليس غياب النوم،

بل حضور الذات كاملةً، بلا أقنعة،

وأن بعض الناس لا يُعذَّبون لأنهم لا ينامون،

بل لأنهم، كلّما أغمضوا أعينهم،

استيقظوا على حقيقتهم...

صدى اليقين (٤٣)

في شقةٍ ضيقةٍ بأحد الأحياء العتيقة، حيث الرطوبة تلتهم أطراف الجدران، كان سليم مستلقياً فوق سريره الحديدي يتأمل تشققات السقف الممتدة كأنها خرائط لسنواته المتعبة.

منذ ستة أشهر وهو يدور في حلقةٍ مغلقة: أبواب تُفتح قليلاً ثم تُغلق، ووعود عمل تتبخر، ومدخرات تتآكل ببطء كشمعة تُستهلك في غرفة مهجورة.

لم يكن رجلاً بعيداً عن الله تماماً، ولا قريباً منه تمام القرب.

كان إيمانه يشبه ضوء مصباحٍ خافت يتردد بين الاشتعال والانطفاء.

حين تضيق به الدنيا يرفع يديه بالدعاء، وحين تهدأ العاصفة قليلاً يعود إلى انشغالاته الصغيرة، كأن الطمأنينة المؤقتة تنسيه هشاشته القديمة.

في تلك الليلة عاد من مقابلة عمل أخيرة بخطوات ثقيلة.

ألقى مفاتيحه فوق الطاولة الخشبية، ثم جلس في الظلام بعدما انقطعت الكهرباء مجدداً.

كان الليل ساكناً على نحوٍ مخيف، حتى بدا صوت أنفاسه كأنه شيء غريب يتحرك في الغرفة.

أخرج ما تبقى في جيبه من نقود وعدّها بصمت.

أسبوع آخر فقط... ثم ماذا؟

أسند رأسه إلى الحائط وأغمض عينيه متعباً.

وعند تلك اللحظة، تسلل من خلف الجدار صوت جاره العجوز، واهناً ومتقطعاً، لكنه دافئ على نحوٍ غريب:

"أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ..."

ثم عاد الصمت.

كان سليم يعرف ذلك الرجل جيداً.

عجوز يعيش وحيداً منذ سنوات، بعد أن فقد زوجته ثم ابنه الوحيد في حادثٍ قديم.

ومع ذلك، لم يسمعه أحد يشكو يوماً.

كل صباح كان يخرج بوجهٍ هادئ، يحمل كيس الخبز بيد، ومسبحته بالأخرى، ويتمتم: "الحمد لله".

ظل سليم دقائق طويلة ينظر إلى الجدار الفاصل بينهما، قبل أن ينهض فجأة ويتجه إلى باب جاره.

فتح العجوز الباب ببطء، وعلى وجهه تلك الطمأنينة التي تثير الحيرة أكثر مما تمنح الراحة.

تردد سليم قليلاً، ثم قال بصوت خافت:

ـــ كيف تستطيع أن تحمد الله بعد كل ما خسرته؟

تأمل العجوز وجهه المتعب دون أن يجيب مباشرة.

ثم أشار إلى ساعة حائط قديمة معلقة قرب النافذة.

كانت عقاربها تتحرك ببطء، فيما يغطي الصدأ أطرافها.

قال مبتسماً:

— هـذه السـاعة تتعطـل كثيـراً... أحيانـاً تتوقـف سـاعات كاملـة، ثـم تعـود للدوران وحدها بعد أن أطرق عليها بيدي قليلاً.

وصـرت كلمـا تعطلـت أتـذكر شـيئاً واحـداً: أن الأشـياء المتعبـة لا يعنـي أنهـا قد انتهت.

اقترب سليم من الساعة يتأمل صوتها الخافت.

تابع العجوز بصوتٍ هادئ:

— الإنسـان أيضـاً يصـدأ مـن الـداخل... بـالخوف، والخسـارة، وطـول الانتظار.

لكنـه مـا دام يتحـرك، ومـا دام قلبـه قـادراً علـى الرجـاء، فهنـاك دائمـاً وقـت لـم ينتهِ بعد.

لم يجد سليم ما يقوله.

جلـس دقـائق صـامتاً، يسـتمع فقـط إلـى حركـة العقـارب المتثاقلـة، كأنهـا تنـبض داخل الغرفة.

حـين عـاد إلـى شـقته، لـم يشـعر بـأن شـيئاً كبيـراً قـد تغيـر، لكـن ثقـلاً خفيـاً بـدا وكأنه انزاح قليلاً عن صدره.

وفـي الصـباح، بينمـا كـان يجلـس علـى حافـة سـريره , وهـو يحتسـي فنجـان قهـوة رخيصـة ، رن هاتفـه للمـرة الأولـى منـذ أيـام ... ؛ كـان صـديقاً قـديماً لـم يكلمـه منـذ ثـلاث سـنوات، يعـرض عليـه مشـروعاً صـغيراً يحتـاج فيـه إلـى خبرتـه... ؛ لـم تكـن صـدفة... ؛ أدركهـا سـليم هـذه المـرة... ؛ فقـد كانـت هناك يد خفية تنسج الخيوط في الظلام ...

منـذ ذلـك اليـوم، لـم يعـد سـليم يفـاوض الله... ؛ صـار يـدعوه فـي الشـدة والرخـاء... ؛ لـم يعـد ينتظـر المعجـزة ليـؤمن، بـل آمـن ليـرى المعجـزات فـي

كل شيء: في نملة تحمل قوتها، في سحابة تمر، في ساعة جاره الصدئة التي لا تزال عقاربها تدور ...

أنهى المكالمة وبقي واقفاً قرب النافذة.

في الخارج كانت المدينة تستيقظ ببطء ...

صرخة في سكون ظلام الزمن الأغبر (٤٤)

في تلك المدينة التي كانت تتقن فنّ التواطؤ مع الخوف، لم يكن الليل مجرد وقتٍ من اليوم، بل سلطةٌ كاملة تُمارس طقوسها على الأرصفة والبيوت والصدور المغلقة.

كانت الشوارع تنام على جثث ضوئها الباهت، والنوافذ تُطبق أجفانها كأنها لا تريد أن ترى ما يحدث في الخارج... أو ربما في الداخل أيضاً.

في الزقاق الخلفي من المدينة، انشقّ الصمت.

لم يكن الصوت عاديًا.

كان أشبه بجرحٍ فتح فمَه فجأة في جسد الليل.

صرخت.

"لا... لا تقتربوا!"

لم تكن الصرخة مجرد حروف.. , كانت شيئًا أعمق، كأنها محاولة أخيرة لإثبات أن الإنسان ما زال قادرًا على الرفض قبل أن يُمحى تمامًا.

لكن المدينة لم تكن مدينةً تسمع.

كانت مدينةً تُدرب صمتها على التجاهل.

من خلف الأبواب، تحركت ظلال.

أحدهم قال بصوتٍ خافت وهو يتثاءب:

— "مرة أخرى... نفس الفيلم."

آخر ضحك:

— "دعها تنتهي بسرعة، لدينا عمل صباحًا."

أما الليل، فقد كان يعرف ما يجري جيدًا، لكنه لم يتدخل.. , الليل في هذه المدينة ليس حياديًا... بل شريك.

اقتربوا منها.

لم تكن ترى الوجوه بوضوح، لكنها كانت تشعر بها:

وجوه بلا ملامح تقريبًا، كأنها صُنعت على عجل من طينٍ وغضبٍ قديم، من عيون لا تعرف النوم إلا لتستيقظ على الأذى.

أحدهم أمسك بذراعها.

آخر دفعها إلى الجدار.

قال بصوت جاف، بارد كالمعدن:

— "كان عليك أن تصمتي."

فأجابت، وهي تتنفس بصعوبة، كأن الهواء نفسه صار خصمًا:

— "الصمت هو الذي جاء بكم أولًا... ثم جعلني الهدف التالي."

تبـــادلوا نظـــرات ســـريعة.. , لـــم يكـــن فـــي كلامهـــا مـــا يهـــددهم، لكـــن فـــي نبرتهـــا شيء يزعج توازنهم الداخلي، كأنها تفضحهم دون أن تصرخ.

ثم حدث ما يحدث دائمًا حين تفشل الكلمات:

تحولت المدينة إلى جسدٍ بلا أخلاق.

سقوط… دفع… ارتطام… صمتٌ أكثر كثافة من السابق.

لكن الصرخة الأولى لم تمت.

بل انقسمت.

جـــزءٌ منهـــا بقـــي فـــي الهـــواء، يتـــردد بـــين الجـــدران، وجـــزءٌ آخـــر عـــاد إليهـــا، كأنـــه لا يجد مكانًا في العالم سوى صدرها.

حـــين خفّـــت الحركـــة، لـــم يبـــقَ ســـوى أثـــرٍ باهـــت علـــى الأرض: دمٌ مخـــتلط بمـــاءٍ لا يُعرف إن كان مطرًا أم عرق المدينة نفسها.

كانت مستلقية، لا كجثةٍ كاملة، بل كفكرةٍ لم تكتمل.

وفوقها، وقف الليل.

لكن هذه المرة، لم يكن صامتًا تمامًا.

كـــان هنـــاك شـــيء يشـــبه الارتجـــاف فـــي هوائـــه...,كـــأن الصـــرخة، رغـــم كـــل شيء، نجحت في خدش توازنه.

وفي مكانٍ ما من المدينة، استيقظ طفلٌ لم يعرف لماذا بكى فجأة.

رأسٌ ممتلئ بالغياب (٤٥)

كان ايوب يخشى النوم أكثر مما يخشى الموت.

فــالموتُ احتمـــالٌ بعيــد، أمـــا النـــوم فكمـــينٌ يـــوميّ، يســـقط فيـــه كـــل ليلـــة دون مقاومة.

ومـــا إن تغمــض عينـــاه حتـــى تبـــدأ تلـــك الحديقـــة المعتمـــة بـــالتفتح داخـــل رأســـه؛ وجـــوهٌ يعرفهـــا قبـــل أن يراهـــا، أصـــواتٌ تأتيـــه مـــن أمـــاكن لـــم يزرهـــا، وأحـــداثٌ لم تقع بعد لكنها تتحرك في داخله كذكريات قديمة.

في طفولته، ظنت أمّه أن الله اصطفاه بشيء من الكرامة.

كانـــت تمســـح علـــى رأســـه كلمـــا أخبرهـــا بمـــا رأى، وتقـــول بصـــوت خفـــيض يشبه الدعاء:

ـــ قلبك نظيف... لذلك ترى ما لا يراه الآخرون.

لكن أباه كان ينظر إليه كمن ينظر إلى شرخٍ في الجدار.

لا يوبخـــه، ولا يصـــدقه أيضًـــا. فقـــط يشـــيح بعينيـــه عنـــه، وكأنـــه يخـــاف أن تنتقـــل العدوى إلى البيت كله.

ومع السنوات، تعلّم يونس أن يصمت.

اكتشـــف مبكـــرًا أن النـــاس لا تخـــاف الكـــذب بقـــدر مـــا تخـــاف الحقيقـــة حـــين تـــأتي مبكرة أكثر من اللازم.

فالإنســـان يســـتطيع احتمـــال المصـــيبة بعـــد وقوعهـــا، لكنـــه ينهـــار إذا رآهـــا تزحف نحوه ببطء.

في الجامعة، صار أكثر عزلة.

لـــم يكـــن منطويًـــا بـــالمعنى التقليـــدي، بـــل بـــدا كمـــن يعـــيش بتوقيـــت مختلـــف عـــن الآخـــرين. يضـــحك متـــأخرًا، يصـــمت فجـــأة أثنـــاء الحـــديث، وينظـــر طـــويلًا إلـــى الوجوه كأنه يقرأ خلف الجلد شيئًا لا يريد أحد الاعتراف به.

أصدقاؤه وصفوه بالحساس.

بعضهم قال إنه مكتئب.

آخرون اعتقدوا أنه متصوف ضلّ طريقه إلى قسم الفلسفة.

أما هو، فلم يكن يعرف على وجه الدقة ما الذي يحدث له.

كان يشعر فقط أن روحه أرهف من اللازم، وأن العالم خشنٌ بصورة لا تُحتمل.

في إحدى الليالي رأى صديقه "سالم" واقفًا تحت جسر قديم، يحدق في الماء الأسود أسفله.

لم يتكلم سالم في الرؤيا، لكنه التفت نحوه بعينين مطفأتين، ثم اختفى.

استيقظ ايوب مذعورًا.

ظلّ الحلم يطارده طوال النهار، حتى قرر الاتصال بسالم. لم يجب.

وفي المساء، انتشر الخبر سريعًا:

سالم ألقى بنفسه من فوق الجسر.

يومها أدرك ايوب أن ما يراه ليس أوهامًا عابرة.

كانت الرؤى تتحقق بدقة مرعبة، كأن القدر يسرّب إليه مسوداته الأولى قبل اعتماد النسخة النهائية من الكارثة.

ومنذ تلك الحادثة، بدأ شيء داخله يتآكل ببطء.

صار يخاف التعلّق بالناس، لأن كل حبٍّ جديد يعني احتمال رؤية نهايته مسبقًا.

كان يشعر بأنه يحمل مقبرة مؤجلة في رأسه.

حتى المدينة تغيّرت في نظره.

الشوارع بدت له كأنها تسير نحو مصائرها دون أن تدري؛ البائع العجوز الذي سيختفي قريبًا، الطفل الذي ستبتلعه الحرب بعد أعوام، المرأة التي تضحك الآن بينما الخيانة تنمو خلف ظهرها كفطرٍ سام.

كل شيء كان هشًّا بصورة موجعة.

وذات فجر، رأى نفسه للمرة الأولى.

كان جالسًا في غرفة ضيقة بلا أبواب، وعلى الجدار المقابل كُتبت عبارة بخط أسود:

"المعرفة التي لا تغيّر شيئًا... عقوبة."

استيقظ مرتجفًا، وشعر بأن الحلم لم يكن رؤيا هذه المرة، بل حكمًا.

لأيام طويلة، ظل يفكر في العبارة.

ما جدوى أن يرى ما سيحدث إذا كان عاجزًا عن منعه؟

هل المعرفة نعمة فعلًا، أم شكل آخر من أشكال العذاب؟

وهل اختار الله البشر الجهل رحمةً بهم؟

بدأ يميل إلى العزلة أكثر.

لم يعد يشارك أحدًا بما يرى، ليس خوفًا من السخرية، بل خوفًا من التحول إلى شاهدٍ أبدي على انهيارات لا يستطيع إنقاذها.

ومع الوقت، صار يشك حتى في نفسه.

هل الرؤى حقيقة؟

أم أن عقله المرهق صار بارعًا في صناعة المصادفات؟

هل كان يرى المستقبل... أم كان فقط يبالغ في تأويل العالم بسبب حساسيته المفرطة؟

ذلك الشك كان أكثر قسوة من الرؤى ذاتها.

فالإنسان يستطيع احتمال اللعنة، لكنه ينهار حين يشك بسلامة عقله.

في الليلة الأخيرة، رأى حلمًا مختلفًا.

لم تكن هناك وجوه، ولا موتى، ولا جسور.

رأى فقط مدينة كاملة نائمة تحت سماء رمادية، بينما الناس يسيرون داخل أيامهم كالعميان ، يتقاتلون ويحبّون ويخدعون بعضهم بعضًا، دون أن يدركوا هشاشتهم الهائلة.

وفجأة، وسط ذلك الزحام، لمح نفسه يمشي بينهم بهدوء... بلا خوف.

اقترب منه أكثر.

كان وجهه متعبًا، لكنه مطمئن على نحو غريب.

ثم سمع صوته يقول:

ـــ النجاة ليست في أن ترى القدر... بل في أن تتصالح معه.

استيقظ قبل الفجر بقليل.

فتح النافذة، فدخل هواء بارد ورائحة مطر بعيد.

وللمرة الأولى منذ سنوات، لم يشعر بالرعب من الليل.

في الخارج، كانت المدينة ما تزال نائمة، غارقةً في جهلها الرحيم.

أما ايوب، فجلس بصمت يتأمل السماء، كمن أدرك أخيرًا أن الروح التي ترى أكثر من اللازم... تحتاج أحيانًا أن تغمض عينيها كي تعيش.

درجٌ إلى الأعلى... ومرآةٌ إلى الداخل (٤٦)

دُعي إلى مؤتمرٍ ما ... ؛ يعرف دهاليزه كما يعرف خطوط كفّه ؛ وهو الضَّلِيعُ بمثل هذه الأمور... ؛ فالمكان صديقٌ قديم، والطقوس محفوظة عن ظهر قلب.

وحين همَّ بالصعود إلى الطابق الثاني، عبر سلالم مريحة أنيقة مكسوّة بالمرمر الإيطالي الذي يلتقط أضواء ثريات الكريستال الذهبية ليحيلها إلى شظايا لبنية متلألئة ، كانت قاعة المؤتمر تلوح واضحةً كوضوح الشمس في رائعة النهار؛ تُرى من الطابق الأرضي، بل كان المرء يستطيع رؤية بابها العالي المنفتح على الطابق الأرضي، كفمٍ معتمٍ يبتلع الاضواء ... ؛ وكان صوت عريف المؤتمر يصل الى كافة ارجاء الفندق عبر مكبّرات الصوت كأنه نفخة إسرافيل تُوقظ الحجر.

ومع هذا الوضوح كلّه، ومع هذا الصخب الذي لا يترك مجالًا للتيه... ؛ بَرزَتْ فجأةً كشبحٍ من زمنٍ منسيٍّ... ؛ عجوز شمطاء، تجرّ أذيال "التصابي" كرداء مهترئ... ؛ وضعت على محيّاها – ذلك المحيّا الذي تشققه تجاعيد عميقة كأخاديد على لوح طيني قديم، رغم عمليات التجميل وسحب البشرة التي بدت كخريطة مُزورة – كمية هائلة من مكياج مستهلك ونافذ الصلاحية : أحمر شفاه قرمزيّ ينزلق خارج حدود الشفتين الرقيقتين، ووجنتان ورديتان كدمى مَسوَّسة، وعيون مُحاطة بدائرات زرقاء داكنة كهالات سوء... ؛ نعم , قد طمست وجهها بطبقات من مكياجٍ هجين، تحاول أن تُخفي تجاعيدٍ فضحتها عمليات شدّ البشرة قبل أن يفضحها الزمن... ؛ و كانت ملامحها مزيجًا مربكًا من ماضٍ يرفض الرحيل وحاضرٍ يرفض الاعتراف.

وفــي قلــب هــذا الوضــوح المطلــق، والصــخب المــنظم، اقتربــت منــه وســألته سـؤالًا أخـرق، وهـو الضـليع بمثـل هـذه الأمـور، الزيـرُ سـابقًا، العفيـفُ لاحقًـا:
— كيف تصل العجائز إلى القاعة، يا فتى؟

لـم تكـن تسـأل عـن الاتجـاه، بـل كانـت تطلـق سـؤالاً أبلـه، مقصـوداً... ؛ سـؤالاً يخفــي فــي طيّاتــه اســتنكاراً للــزمن، وتحــدياً للحالــة الطبيعيــة او الاســتقامة ، وتلميحــاً لرغبــة عتيقــة... ؛ ســألته وكأنهــا، بكــل هــذا المكيــاج، قــد اخترقــت جــدار الشــيخوخة، أو اختزلتــه فــي مجــرد نظــارة يمكــن نزعهــا... ؛ ســألته وكأنهــا مــا تــزال فــي ربيعهــا العشــرينيّ، بســذاجة ممزوجــة بــدهاء خبيــث... ؛ ســألته لتغريــه بمــا تبقــى مــن أنوثــة متهالكــة، كــي يــردّ بــالجواب التقليــدي للمتملقــين أو الخجــولين: "كــلا، أنــتِ لا تــزالين فــي ريعــان شــبابك، قويــة، جميلة...".

لم تكن تبحث عن اتجاه، بل عن مرآة...

كانــت تريــد، فــي قــرارة نفســها، ليلــة خاطفــة فــي فنــدق بعيــد عــن موطنهــا ... ؛ ليلــة خيانــة تختبــر فيهــا قــدرتها المتهاويــة علــى الإغــواء، فتســتعيد، ولــو للحظــة، سِــجِلَّ خياناتهــا المتعــددة حــين كانــت الصــورة فــي المــرآة تطــابق رغبتهــا، وحــين كــان الجســد طيّعــاً لا يخــون بالترهــل والتجاعيــد... ؛ ليلــة تثبـت لهـا أنهـا مـا تـزال هنـاك، داخـل جسـد الحيـاة، وليسـت مجـرد شـبح يتـردد في دهاليز الماضي.

لكنــه لــم يجامــل... , نظــر إليهــا بنظــرة طبيــب يحضــر لتشــريح جثــة، أو فيلسـوف يمعـن النظـر فـي خـراب مبـدأ مـا ... ؛ لـم يكـن قاسـيًا بقـدر مـا كـان واضــحًا، والوضــوح أحيانًــا أقســى مــن الســكين... ؛ اذ قــال بنبــرةٍ جــادّة وملامــح حــادّة: — الــدرج أمامــك... ؛ وعلــى الــرغم مــن كبــر ســنك، تستطيعين الصعود عبره... ؛ لقد صعد من هو أكبر منك سنًّا...!!

كانــت الكلمــات بسـيطة، لكنهــا سـقطت كحقيقــةٍ غيــر قابلــة للمســاحيق والتجميــل ... ؛ فَغاصَــتْ ملامحُهــا فجــأة فــي بحــر مــن التجاعيــد القاســية، كــأن قنــاع المكيــاج الهجــين انكمــش مُفْــرِزاً الســطح الأصــلي البــائس تحتــه... ؛ ســكتت ســكوتاً ثقــيلاً، وكــأن علــى رأســها الطيــر... ؛ ســكوت مــن هُزمــت فيــه كــل حجــج الــوهم، وبقيـت المـرأة العجـوز وحـدها فـي مواجهـة مـرآة لـم تكـن لتكـذب أبداً... ؛ صمتت ؛ لا غضب، بل انكسارٌ لحظةَ سقوط القناع...

أمــا هــو، فــولّى هاربًــا، لا منهــا وحــدها، بــل مــن صــورته القديمــة فيهــا... ؛ شــعر بالغثيــان، لا اشــمئزازًا مــن جســدٍ هــرِم، بــل مــن محاولــة الهــروب الجماعيــة التــي يمارســها البشــر حــين يرفضــون الاعتــراف بأعمــارهم، وبحـدودهم، وبـأن الرغبـة إذا لـم تُهـذَّب تحوّلـت إلـى اسـتعارةٍ رديئـة للحيـاة... .

وفيمــا كــان يصــعد الــدرج، أدرك فجــأةً أن الســلالم ليســت طريقًــا إلــى قاعــةٍ فحسـب، بـل امتحانًـا أخلاقيًـا صـامتًا: مـن يصـعدها يعتـرف بثقـل جسـده وخفـة روحــه، ومــن يبحــث عــن مصــعدٍ وهمــيّ إنمــا يطلــب اختصــارًا للحقيقــة... ؛ هنــاك، بــين المرمــر والصــوت العــالي، فهــم أن الشــيخوخة ليســت عيبًــا، وأن العيــب كــل العيــب أن نعــيش غربــاء عــن أنفســنا، نســاوم الــزمن ولا نتصــالح معه، ونطلب من الآخرين أن يكذبوا نيابةً عنا كي نستمر... .

لقــد رأى المجتمــع بكاملــه يتخفــى وراء أقنعــة، يخــون ذاتــه بحثــاً عــن تأكيــدات واهيــة... ؛ رأى الــزمن، ذلــك الطاغيــة الصــامت، يســخر مــن الجميــع: مــن العجــوز التــي ترفضــه، ومنــه هــو الــذي يحــاول، بصــعوده إلــى مــؤتمرات الفكــر، أن يهــرب مــن صــعود آخــر، حتمــيّ، نحــو هُويــة مجهولــة... ؛ شــعر كــأن كــل درجــة يقطعهــا علــى الســلالم المرمريــة هــي خطــوة أبعــد عــن بــراءة الماضــي، وأقــرب إلــى قاعــة كبيــرة، صــاخبة، مليئــة بالأصــوات المكبــرة والأقنعــة المتعــددة، حيــث الجميــع مــدعوون، وأحــدٌ لا يعــرف حقــاً إن كــان المكــان مــؤتمراً، أو محكمــة، أو اســتراحة أخيــرة قبــل الصــعود إلــى طــابق لا سلّم له...

حين يصبح الطيبون سببًا للبكاء (٤٧)

لم يكن سالمُ رجلًا استثنائيًا بالمعنى الذي تصنعه الشهرة أو الأموال، بل كان استثنائيًا بذلك النوع الخفيّ من البشر الذين يمرّون في الحياة كنسمةٍ دافئة، لكنّ غيابهم يترك الشتاء خلفهم طويلًا.

كان يعود كل مساء إلى بيته حاملاً أكياس الخضار والفواكه والحلوى، فيركض أطفاله نحوه بلهفة العصافير الصغيرة حين ترى الحبّ يُنثر أمامها. يضحك بصوتٍ هادئ، ويجلس بينهم كأنه واحدٌ منهم، لا أبٌ أثقلته الحياة.

كانت زوجته زينب كثيرًا ما تنظر إليه بصمت، متعجبةً كيف يستطيع رجلٌ يعمل منذ الفجر حتى المساء أن يحتفظ بكل هذا الحنان. فإذا بكى أحد أطفاله لأمرٍ صغير، احتضنه سالم كأن العالم كلّه انكسر في قلب ذلك الطفل. وإذا ضاقت زينب بأعباء البيت، أخذ عنها بعض الأعمال وهو يقول مبتسمًا:

— "يكفي الإنسان ما تحمله الحياة فوق ظهره... فلا داعي لأن نحمل بعضنا فوق ذلك همومًا أخرى."

وكان صديقه وقريبُه حيدر شديد التعلّق به، لا لأنه قريبٌ فحسب، بل لأنه رأى فيه الصورة التي كان يتمنى أن يكونها الإنسان. كان يراقبه بدهشة: لا يرفع صوته، لا يُهين أحدًا، ولا يردّ القسوة بمثلها.

وفي إحدى الليالي، جلس حيدر معه على سطح المنزل بعد انقطاع الكهرباء، وكانت المدينة غارقةً في الظلام إلا من ضوء قمرٍ شاحب.

قال حيدر: — "يا سالم، كيف تستطيع أن تبقى هادئًا رغم كل هذا الخراب؟ الناس صارت عصبية، قاسية، متعبة... أما أنت فكأنك خارج هذا العالم."

ابتسم سالم طويلًا قبل أن يجيب: — "لأنني أدركت متأخرًا أن الإنسان لا يعيش طويلًا كما يظن. نحن لا نملك من الدنيا إلا أثرنا في قلوب الآخرين. بعض الناس يتركون مالًا، وبعضهم يتركون جراحًا... والقليل فقط يتركون طمأنينة."

سكت قليلًا ثم تابع: — "أتعرف ما المأساة يا حيدر؟ ليست في الموت... بل في أن يموت الإنسان قبل أن يكون رحيمًا."

ظلّت تلك العبارة عالقةً في ذهن حيدر كأنها وصيةٌ خفية.

بعد أسابيع، جاء رجلٌ فقير إلى بيت سالم، يشكو مرض ابنته وعجزه عن شراء الدواء. لم يكن سالم يملك يومها إلا راتبه الذي ادّخره لإيجار البيت، لكنه أخرجه وأعطاه للرجل دون تردد.

اعترضت زينب بخوف: — "وماذا سنفعل نحن؟"

فأجابها بهدوء: — "الرزق الذي يذهب لإنقاذ إنسان لا يضيع."

في صباح يومٍ بارد، خرج سالم إلى عمله كعادته. وقبل أن يغادر، قبّل أطفاله واحدًا واحدًا على رؤوسهم، على غير عادته. حتى زينب انتبهت إلى أن عينيه كانتا ممتلئتين بشيءٍ غامض يشبه الوداع.

في الظهيرة، كان حيدر يعبر الشارع المزدحم، فرأى جمعًا كبيرًا من الناس يحيطون برجلٍ ممددٍ على الأرض بعد حادثٍ مروّع.

اقترب بخطواتٍ مرتبكة...

ثم تجمّد قلبه.

كان سالم غارقًا بدمائه، وعيناه نصف مفتوحتين كأنهما ما زالتا تبحثان عن شيءٍ بعيد.

حملوه إلى المستشفى، لكن النزيف الداخلي كان أسرع من دعوات المحبين.

رحل سالم.

ومنذ ذلك اليوم، تغيّر كل شيء.

صار البيت صامتًا بطريقةٍ مؤلمة، كأن الجدران نفسها فقدت روحها. أطفاله لم يعودوا يركضون نحو الباب عند المساء، وزينب صارت تتحدث بصوتٍ منخفض، كأن الحياة بعده يجب أن تُحترم بالحزن.

أما حيدر، فكان يشعر أن العالم أصبح أكثر قسوة بعد موت سالم، وكأن الطيبين ليسوا مجرد أشخاص... بل توازنٌ خفيّ يمنع الحياة من الانهيار الكامل.

مرّ عامٌ كامل.

وفي عيد الأضحى، ذهبوا جميعًا إلى قبره. كانت السماء رمادية، والريح تعبث بأوراق الأشجار اليابسة.

جلس حيدر قرب القبر طويلًا، ثم قال بصوتٍ مرتجف:

— "تعرف يا سالم؟ كنتَ حين نبكي، تمسح دموعنا جميعًا... أما الآن، فقد أصبحتَ أنت سبب بكائنا."

ثم أطرق رأسه وأضاف:

— "الغريب أن الموت لا يأخذ الإنسان وحده... بل يأخذ معه جزءًا من الذين أحبوه."

عندها انفجرت زينب بالبكاء، بينما كان أطفال سالم ينظرون إلى القبر بصمتٍ بريء، غير قادرين على فهم كيف يمكن للتراب أن يخفي رجلًا كان قبل عامٍ فقط يملأ البيت ضحكًا وحياة.

وفي طريق العودة، أدرك حيدر حقيقةً موجعة:

أن الإنسان لا يُقاس بعدد السنوات التي عاشها، بل بعدد القلوب التي أصبحت أكثر يتمًا بعد رحيله.

حين يشوي العمّ (أبو محمد) لحمَ الذاكرة على جمر الزمن... (٤٨)

في فجرٍ لم يكن فجرًا عاديًا، خرجتُ من نومٍ لم يكتمل، أو من يقظةٍ لم تبدأ أصلًا...، كأنني كنتُ عالقًا بين طبقتين من الزمن: طبقةٍ تحلم بي، وطبقةٍ أهرب منها.

الأرقُ لم يكن حالةً طارئة، بل كائنًا قديمًا يسكنني، يمدّ جذوره في لياليّ كما لو أنني أرضٌ مهجورة لا تنام.

نهضتُ من الفراش كمن يخرج من غيبوبة طويلة.

لا شيء في الغرفة كان يطمئنني: الوسادة متهمة، الجدار بارد، والصمت نفسه يبدو كأنه يراقبني.

وقفتُ لحظةً في منتصف الفراغ، بلا اتجاه، بلا سبب، ثم جاءت الفكرة فجأة، بسيطة حدّ الغرابة:

"أريد فطورًا بدائيًا... فطورًا يشبه الطين الأول، واليد الأولى، والنار الأولى."

خرجتُ إلى المدينة التي كانت تستيقظ ببطءٍ كجسدٍ متعب.

الشوارع نصف نائمة، والضوء الرمادي للفجر يجرّ خطواته على الأرصفة.

كنت أقود بلا مقصد واضح، لكنّ الذاكرة كانت تقودني من مكانٍ آخر...، من حيّ قديم اسمه "كسرة وعطش الصناعي"، حيث لا تُباع الوجبات بل تُستعاد الطفولة على شكل لحمٍ مشوي.

هناك، في زاويةٍ لا تلمع فيها الإعلانات، كان يقف العمّ "أبو محمد"... الرجل الذي لا يبدو كبائع طعام، بل كحارسٍ قديمٍ لسرّ النار.

حين اقتربتُ، شممتُ قبل أن أرى: رائحة لحمٍ يشوي نفسه على جمرٍ هادئ، كأنه لا يُطهى بل يتذكّر شكله الأول.

كان يقلب القطع بيدين تشبهان صلاةً يومية، لا استعجال فيها ولا قسوة.

رفع رأسه نحوي وقال بصوتٍ خافت، كأنه يعرفني منذ زمن لم أَعشه:

— "جئتَ مبكرًا اليوم... أم أنك لم تنم أصلًا؟"

ابتسمتُ دون جواب.. , اكتفيتُ بأن أجلس.

قال وهو يضع قطعة لحم على النار:

— "الناس تغيّرت... صاروا يريدون الطعام بلا روح.. , أما أنا، فأطبخ كما تعلّمت: النار أولًا... ثم القلب."

ضحكتُ:

— "وهل يدخل القلب في الطبخ يا عمّ؟"

نظر إليّ كمن يشرح بديهية قديمة:

— "إن لم يدخل، صار اللحم ميتًا مرتين."

كان المكان بسيطًا حدّ الفقر، لكنه غنيّ بشيء لا يُشترى: دفءٌ خفيّ يشبه ذاكرة بيتٍ قديم لم يُهدم بالكامل.. , طاولات خشبية، زلاطة طازجة، بصلٌ يُشوى حتى يبكي، وخبزٌ يبدو كأنه خرج للتو من يد امرأةٍ نسيت أن الزمن تغيّر.

وضعت أول لقمة في فمي... ولم أكن آكل فقط.

كنت أسترجع.

طفولةٌ بعيدة، موائد ترابية، يد جدّتي وهي ترفع الخبز من التنور، ووجوهٌ لا أعرف أين اختفت لكنها تعود الآن من خلال طعمٍ واحد.

قال العم أبو محمد وهو يقلب اللحم:

— "نحن لا نبيع طعامًا يا ولدي... نحن نُبقي على شيء من الدنيا القديمة حيًّا."

سألته:

— "ولماذا تغلق مبكرًا دائمًا؟ الطلب عليك كثير."

هزّ رأسه:

— "الجشع يقتل النار.. , أنا أفتح مع الفجر... , وأغلق حين يمتلئ القلب.. , ما بعد ذلك ليس رزقًا، بل تعب."

سكتّ.

كان في كلامه شيء يشبه الحكمة، لكنه بلا ادّعاء.. , حكمة رجلٍ لم يقرأ الفلسفة، لكنه عاشها على الجمر.

بين لقمةٍ وأخرى، كان يتحدث عن لحم الخراف "الهرفي"، عن اللحم الطازج، عن الزلاطة التي تُقطع بسكينٍ لا يعرف التسرّع.. , لكنّ كل التفاصيل كانت تتحول في يده إلى طقس، لا إلى مهنة.

قال فجأة:

— "هل تعرف ما الفرق بين مطعمٍ ومعبد؟"

قلت:

— "ما هو؟"

أجاب وهو يرفع قطعة لحم من على الجمر:

— "في المعبد... تُطهّر نفسك.. , وفي المطعم الحقيقي... تتذكّر أنك لم تكن ملوثًا أصلًا."

لم أعلّق.. , فقط أكلت أكثر.

كان الجمر يشتعل بهدوء، وكأن النار نفسها لا تريد أن تفسد هذه اللحظة.. , البصل المشوي، رائحة الدهن، الخبز الساخن..., كل شيء كان يبدو كأنه اتفاق قديم بين الإنسان والطبيعة، قبل أن يتدخل السوق.

وحين انتهيت، شعرتُ بشيء غريب:

لم أكن ممتلئًا بالطعام فقط..., بل ممتلئًا بنفسي.

قال العم وهو يجمع أدواته:

— "اذهب الآن... ولا تنسَ أن الجوع الحقيقي ليس في المعدة."

سألته:

— "وأين هو إذن؟"

أجاب دون أن ينظر إليّ:

— "في الذاكرة."

خرجتُ من المكان وكأنني أخرج من صلاةٍ طويلة.. , المدينة نفسها بدت مختلفة، أخفّ، أقلّ ضجيجًا، كأن لقمة واحدة أعادت ترتيب الفوضى داخلي.

فـــي الطريـــق إلـــى البيـــت، أدركـــتُ أن مـــا حـــدث لـــم يكـــن فطـــورًا عـــابرًا، بـــل مواجهة صغيرة مع الزمن.

هنـــاك، علـــى نـــار العـــم أبـــي محمـــد، لـــم يُشْـــوَ اللحـــم فقـــط..., بـــل شُـــويت طبقـــة مـــن الغياب في داخلي، واحترق شيء من القسوة التي تراكمت دون أن أشعر.

عدتُ وأنا أفكر:

ربمـــا ليســـت البســـاطة نقـــيض الحضـــارة، بـــل هـــي مـــا نســـيته الحضـــارة فـــي الطريق.

وفي تلك اللحظة، فهمتُ أخيرًا:

أن بعض الرجال لا يطهون الطعام...

بل يطهون الذاكرة، كي لا تفسد.

حين يأكل الفقرُ ملامحَ الروح (٤٩)

لمّـــا بلـــغ العاشـــرة، صـــار حســـين يعـــرف الشـــوارع أكثـــر ممـــا يعـــرف دفـــاتر المدرسة...

كانت الأرصفةُ أمَّه المؤقّتة، وإشارات المرور ساعاتٍ لا تتعب .

ومنـــذ العاشـــرة، وحســـين يرحـــل بـــين الاحجـــار والاســـفار... ؛ يبيـــع قطـــرات المـــاء نهـــارا ، ثـــم اقـــراص الاغـــاني المكـــدورة مســـاءً , ثـــم صـــار يقـــدّم الشـــاي للغربـــاء كأنّـــه يقـــدّم قلبـــه فـــي قـــدحٍ زجـــاجيٍّ رخـــيص... ؛ كـــان الوقـــت يتســـرب مـــن بـــين اصـــابعه كالرمـــال الحـــارة... ؛ كبـــر ســـريعا , و اشـــتد عـــوده ... ؛ لا لأنّ الزمن كان كريمًا ... ؛ بل لأنّ الجوع لا يسمح بالطفولة ... .

تحولت الشوارع الى سوق لأجساد ناقصة... ؛ كان يقايض الحنين بالدينار، ويشتري لمسات مؤقتة من بائعات الحرمان ومتسولات الشوارع ... ؛ يربح الفا وينفق نصفه على لهوات باردة: قبل بلا ذكرى، و لمسات بلا معنى، و ايام تتكسر على اجساد غريبة.

نعم , جسد حسين، كان ملكا منفصلا... ؛ كان يجوب مدينة الاسمنت برغبات عارية، يركض وراء لذات سريعة تذوب كالملح في فم البحر... ؛ لاحقته الخلوات، والاجساد المقابضة ، وحتى الاجساد المشابهة... ؛ لم يعد يفهم فرقا، فالجوع نفسه في جميع الحالات... .

لم تكن علاقة حسين بجسده سوى تاريخ من التوترات المكبوتة... ؛ منذ الطفولة، تحوّل جسده إلى ساحة معركة بين "الهو" الغريزي الجائع، و"الأنا" المذعورة، و"الأنا العليا" التي تلوح بقيم مجتمع لم يمنحه سوى الفقر والازدراء...

في نظرية فرويد، يولد الإنسان بطاقة جنسية غريزية – الليبيدو – تشكل شخصيته عبر مراحل نموه... ؛ لكن حسين، ابن الشوارع منذ العاشرة، علق في مرحلة بدائية: مرحلة تلبية الحاجة المجردة، حيث يختلط الجوع بالرغبة، والطعام بالمتعة، ويصبح الفم – أول المناطق "الإيروتوجينية" عند فرويد – مدخلاً للألم وليس للذة... ؛ لقد فُطم عن براءة الطفولة باكراً، فلم يتعلم تأجيل الإشباع، بل تحول إشباع الرغبة إلى فعل بقاء، يشبه سرقة رغيف خبز...

مع صبايا الشوارع، لم تكن علاقته سوى تكرار بائس لهذا النمط ... ؛ بحثه عن "صغيرات السن" لم يكن مجرد انحراف أخلاقي، بل كان، من منظور سريالي، محاولة عبثية للعودة إلى "مرحلة الكمون" الجنسي المزعومة عند فرويد... ؛ تلك المرحلة التي يفترض أن تكون طاقة الطفل الجنسية فيها خامدة، منصرفة نحو التعلم واللعب البريء...

كان يحاول، عبر اجتياح رائحتهن الزائفة، أن يلمس براءة هو نفسه لم يعرفها، كمن يلثم شبح طفولة مسروقة... ؛ فالمتعة الجسدية كانت ثانوية؛

الأهــم كــان إثبــات القــوة عبــر امــتلاك شــيء "نقــي" – حتــى لــو كــان وهميــاً – في عالم تدنّس كل شيء فيه.

تنقّــل بــين المهــن كمــا يتنقّــل العــابر بــين الظــلال ... ؛ حتــى اســتقرّ بــه الحــال فنّيًــا فــي أحــد فنــادق العاصــمة ... ؛ صــار يلمــس الحيــاة مــن خــلال آلات ميتــة... ؛ ويُصــلح الأســلاك المعطوبــة ... ؛ ولا يجــد وقتًــا لإصــلاح نفســه ...!!

كان يعود إلى أهله مرّةً في الشهر،

يحمل راتبه كاملًا ككفّارةٍ مؤجّلة،

أبٌ مشلول،

أمٌّ مثقلة بالمرض،

وأخٌ ينتظر العمل كما ينتظر المطر في صيفٍ قاسٍ...

لم يكن الادّخار ترفًا متاحًا ... ؛ كان البقاء وحده مشروعًا يوميًّا...

وفــي وحدتــه ... ؛ تســلّلت الرغبــات كــريحٍ عميــاء... ؛ لا تســأل عــن أخــلاقٍ ولا عن حدود ... ؛ تطلب فقط أن تُسكَت...!!

وبفضــل وجهــه الوضــاء، وجســده الرياضــي الرشــيق ، انفتحــت لــه عــوالم افتراضــية... , فقــد فــتح نافــذةً علــى العــالم عبــر شاشــةٍ صــغيرة ... , فــإذا بــالوجوه تتكــاثر، والكلمــات تــزداد لزوجــةً، والاهتمــام يتحــوّل إلــى فــخٍّ نــاعم... ؛ لــم يكــن يبحــث عــن حــبّ ... ؛ بــل عــن شــعورٍ عــابر يؤكّــد أنّــه مــا زال حيًّــا ؛ و اصــبح بثــه علــى التيــك تــوك مذبحــة رؤى... ؛ تــدفقت الرســائل العاطفية والجنسية كنهر من ضوء ازرق ...

حتى وصل له طلب من ظل بنت سنها سبعة عشر رمادا، مخطوبة في محافظة بعيدة... ؛ لم يبال... ؛ طلب مال السفر وجسدها... ؛ وافقت الظل...!!

ذهب في ليلة حالكة السواد... ؛ التقيا امام (هيكل) – بناء ناقص كأحلام ذلك المكان... ؛ تحول الهيكل الى فم مظلم يبتلع اصواتهما سبع مرات...

المكان نفسه كان استعارة سريالية لجسد حسين: هيكل عظمي من الإسمنت، ناقص، بلا واجهة، مهيأ لاحتواء أي فعل عابر... ؛ ممارسته الجنس معها سبع مرات كانت طقساً قهرياً، "تكراراً إجبارياً" يحاول من خلاله تفريغ توتر لا ينتهي...

كان الفعل عدوانياً أكثر منه شهوانياً، كما لو كان يعاقب في جسدها كل براءة خانته، وكل فقر حرمه من تطور نفسي سوي... ؛ فرويد يرى أن الصدمات الجنسية المبكرة – أو الإحباط فيها – قد تشكل لاحقاً عصاباً قهرياً... ؛ هنا، كان العصاب يجسّد نفسه في حركة جسدية آلية، وكأنه يحاول، عبثاً، أن يملأ بجسد أنثوي فراغاً نفسياً أسود...

ولما انتهى، طلب المئة الف... ؛ ذهبت البنت الى بيتها كالسارق... ؛ بقي حسين ينتظر، فرأى خيالا اخر يتحرك خلف الباب... ؛ فاختفى كالحرامي المرعوب...

وسمع، من بعيد، صوت ام تسحب ابنتها: "ماذا تفعلين في جوف هذه الليلة؟"

وكذبت البنت ببراعة الف امرأة شرقية : "سمعت نباح الكلاب!"

فاندفعت خلفها ... ؛ ثم سمع صوت صفع و اغلاق لباب الدار بقوة... ؛ هرب حسين، ولم يمسك في يده سوى ثلاثة الاف دينار – هباء لا يصل به الى بغداد... !!

مشـــى فـــي طريـــق لا نهايـــة لهـــا... ؛ وقفـــت الـــى جانبـــه ســـيارة صـــفراء... ؛ ســـائقها رجـــل اربعينـــي ينتثـــر الشـــيب علـــى رأســـه كالنـــدى الاخيـــر... ؛ امـــره بالصـــعود... ؛ عنـــدها انقلـــب الصـــائد فريســـة فـــي ســـيارة الســـائق الأربعينـــي ، واكتملـــت الـــدائرة المأســـاوية... ؛ تحـــدث بصـــوت نـــاعم عـــن الاخـــلاق والـــدين... ؛ حتـــى عـــرف الحكايـــة الحقيقيـــة ... ؛ فجلـــس الصـــوت النـــاعم، وخـــرج مـــن فـــم الســـائق صـــوت اخـــر، مســـنن وجـــائع: عـــرض عليـــه خمســـة عشر الفا لجسده...!!

لحظـــة صـــمت... ؛ فـــي عينـــي حســـين، تصـــارعت القـــذارة مـــع القـــذارة... ؛ ثـــم اجـــاب، وكأنـــه يســـاوم علـــى بضـــاعة: "مـــرتين... ؛ بخمســـة وعشـــرين الفـــا... ؛ وتوصلني الى الكراج".

مـــارس الجـــنس مـــع الرجـــل الغريـــب فـــي مكـــان مهجـــور شـــبيه بقلبـــه... ؛ شـــعر باعيـــاء لا يطـــاق، كـــان جســـده قـــد انفصـــل اخيـــرا وراح يراقـــب نفســـه مـــن عـــل... ؛ ؛ لـــم يعـــد الجســـد مجـــرد أداة لإشـــباع رغبـــة أو بيـــع متعـــة، بـــل تحـــول إلـــى "عملـــة أخيـــرة" فـــي اقتصـــاد العـــوز... ؛ الطلـــب المـــزدوج – مـــال مقابـــل جســـد – لـــم يكـــن صـــفقة جنســـية فحســـب، بـــل كـــان تحقيـــراً مزدوجـــاً: للســـائق الذي حوّله الفقر إلى مفترس، ولحسين الذي حوّله إلى سلعة مقبولة ...

اخـــذ الفلـــوس وعـــاد الـــى العاصـــمة... ؛ وفـــي طريـــق العـــودة، وبينمـــا الحافلـــة تهتـــز كمهـــد، ادار رأســـه نحـــو النافـــذة... ؛ رأى انعكـــاس وجهـــه فـــي زجـــاج مظلـــم... ؛ لـــم يعـــد يـــرى وجوهـــا، لا وجـــوه النســـاء، ولا وجـــوه الرجـــال، ولا حتـــى وجهـــه هـــو... ؛ رأى فقـــط شـــكلا مســـتطيلا، املـــس وأبـــيض ، شـــبيه بتلـــك العملة المشبوهة التي تتبادلها الايدي في الخفاء...

ففهـــم، للمـــرة الاولـــى، بوضـــوح مرعـــب: لـــيس الفقـــر نقـــص المـــال... ؛ بـــل الفقـــر ان تتحـــول الـــى ســـلعة، وان تســـقط كـــل المعـــالم، حتـــى معلـــم القـــذارة نفســـها... ؛ فـــالفقر لا يســـلب الخبـــز فقـــط، بـــل يســـلب القـــدرة علـــى اختبـــار المتعـــة بكرامة... !!

نعم , أدرك أن الفقر لم يسرق منه المال فحسب، بل سرق منه "مصادر اللذة" الطبيعية... ؛ و حوّله إلى كائن تتحكم فيه "غريزة الجوع" قبل "غريزة الجنس"، فالتصقتا إلى الأبد... ؛ و لم يعد يعرف متعة لا تشوبها رائحة المعاملة، ولا لذة لا يقودها دافع القوة أو الخوف... ؛ اذ صار، كما أخبر نفسه في صمت الحافلة المهتز، "جسداً شرجياً" في عالم قضيبي: منغلقاً على ألمه، مشتتاً، غير قادر على الإخراج أو العطاء بانتظام، يحتفظ بكل شيء ويطرحه في اللحظات والأماكن الخطأ...!!

ومنذ تلك الحادثة ... ؛ صار يعرف : أنّ أشدّ أشكال الفقر ليس الجوع ... ؛ بل أن يضطرّ الإنسان ... ؛ لأن يعيش ضدّ نفسه ...

حين صار الجسد جواز سفر (٥٠)

وُلِدَ قاسم في المدينة التي تتَنَفَّسُ صداً... ؛ كانت شوارعها، فيما مضى، تمشي بأقدامٍ حافيةٍ على جمر الحرمان، تحت سماءٍ من صفيحٍ رصاصي... ؛ عاش أبناؤها في حِضْنِ العَوَز، يتناقلون الفُتاتَ كوصفةٍ للبقاء، مُتَكَيِّفينَ مع جَلَّادي الزمن، مُحَصَّنينَ ضد الانتحارِ بجلدٍ صَلْدٍ تَشَكَّلَ من سنواتِ القبضةِ الحديدية... ؛ كان اليأسُ عندهم رفيقاً مألوفاً، لا غازياً مُرْعِباً.

وُلد قاسم في مدينةٍ تعرف الفقر كما يُعرف الاسم، لا بوصفه لعنة، بل كعادةٍ يومية...

نعم , كان الجوع هناك صامتًا، والحرمان مهذّبًا، والناس يتقاسمون القسوة كما يتقاسمون الخبز اليابس، دون أن يفكّروا في الهرب من الحياة نفسها... ؛ كانوا محاصرين، نعم، لكنهم لم يكونوا مهزومين من الداخل؛ فالسجن الكبير الذي اسمه الوطن آنذاك لم يكن يسمح حتى بتخيّل نافذة...

الا ان قاسم لم يولد في الهامش، بل وُلد بعد انهيار نظام القمع والتهميش والافقار عام ٢٠٠٣ ... ؛ فالمدينة الشعبية التي جاء منها لم تعد كما كانت في ذاكرة آبائها؛ الفقر لم يعد جماعيًا، بل فرديًا، والحرمان لم يعد قدرًا مشتركًا بل فشلًا شخصيًا يُحاسَب عليه صاحبه... ؛ و هنا تكمن أولى المفارقات التي ستشكّل وعيه ...

فقبل ولادته بأشهر معدودة ؛ سقط الجدار الدكتاتوري المقيت ؛ وفجأة، صار الهواء وفيرًا أكثر مما ينبغي، وصارت الحرية ثقيلة على الأكتاف الغضّة... ؛ وانفتحتْ أبوابُ السماءِ المُغَبَّرة، ونزلَتْ وعودُ الحريةِ كأمطارٍ غريبةٍ على أرضٍ لم تَتَعَوَّدْ إلا على قطرات الدم... ؛ و تَهَافَتَ النورُ على البيوت، وتوسعتْ صدورُ الناسِ بزَفيرٍ طويلٍ، كأنهم وُلِدُوا من جديد...

نعم , جاء قاسم مع انبلاجِ الصباحِ الجديد، كأن قَدَرَهُ أن يَفْقِسَ من بيضةِ القمعِ مباشرةً إلى فراغِ الفضاءِ الواسع، حراً، كالنسرِ الذي تَعلَّمَتْ أجنحتُهُ التشكُّلَ في القَفَص...

فالأجيال السابقة عاشت القسوة بلا مقارنة، أما جيله فكان يرى العالم كله، ولا يملك منه شيئًا...

نشأ قاسم في بيتٍ مستقرّ، بلا نقصٍ ماديّ حاد، محاطًا بعنايةٍ زائدة، كأن الأسرة كانت تحاول أن تحميه من تاريخٍ لم يعشه... ؛دلّلته عائلته كما يُدلَّل الناجون، وكأنهم أرادوا تعويض قرنٍ من القهر في جسدٍ واحد... .

وفي علم النفس، يُسمّى هذا فرط التعويض: حين يُربّى الطفل المدلل لا ليواجه الواقع، بل ليُعفى منه...

نَشَأَ قاسم في حَجْرٍ دافئٍ، مُدَلَّلاً، باعتباره آخرَ عنقودٍ في سلسلةٍ من الأبناء الخمسة ... ؛ نما كالسَّنْبَلَةِ في تربةٍ خَصْبَة، فصارَ فارعَ الطول، أبيضَ كالحليبِ تحت القمر، عيناهُ واسعتان جميلتان من سَعَةِ الدنيا التي لم

يَعــرفْ ضِــيقَها... ؛ كــان جســدُهُ نحــيلاً قويــاً، يَتمايــلُ فــي مشــيتهِ تمايــلَ سَــعَفَةٍ نــادرةٍ تهزُّهــا ريــحٌ عــابرة، كأنــه إيقــاعٌ مَطْــويٌ داخــل نغمــة... ؛ زادَتْــهُ الرياضةُ صلابةً وَوَهَجاً، وَرُبَّما غُرُوراً.

نعــم ؛ كبــر جمــيلًا، وكــان جمالــه أشــبه بســكينٍ لامعــة: نعمــة فــي الظــاهر، وخطــرًا فــي العمــق... ؛ و مصــدر قــوةٍ وســوء تقــدير فــي آنٍ واحــد؛ إذ اعتــاد أن تُفــتح لــه الأبــواب بســهولة، فظــنّ ــبلا وعــي ــأن العــالم يعمــل هكــذا... ؛ كــان يمشــي وكــأن الأرض أقــلّ مــن أن تحملــه، ويتحــرّك كمــن يعــرف أن العيون تلاحقه قبل الخطى...

عنــدما اشــتدَّ عُــودُهُ، و بلــغ الســابعةَ عشــرة، بــدأ الشــرخ... ؛ و نَظَــرَ إلــى وطنــهِ بِعَيْنَــيْ مُستكشِــفٍ وَقَــعَ فــي أرضٍ بَائِسَــة... ؛ كَرِهَــهُ كُرْهــاً شــديداً، مُتَجَلِّــداً كــالبلور... ؛ كــره المكــان لا لأنــه قــاسٍ، بــل لأنــه أصــغر مــن خيالــه... ؛ و لــم يُــدركْ ســرَّ صــبرِ أولئــك الأقــدمينَ علــى الــذلِّ والجــوعِ والســجونِ والهُــوَّاتِ التــي تفــتحُ فــي منتصــف الطريــق فــي عهــد صــدام ... ؛ لــم يَعْلَــمْ أنهــم كــانوا سُــجناءَ فــي غرفــةٍ مُعزَّولــةٍ اســمها "العــراق"، حيــثُ كانــت النوافــذُ مُحْكَمَــةَ الإغــلاق، والهــواءُ الآتِــي مــن العــالمِ الخــارجيّ مَشْــفُوعاً بِرَقابــةٍ صــارمة... ؛ أمــا هــو، فَصَــحَا فــي عــالَمٍ بــلا أســقف، حيــثُ العــالَمُ كلُّــهُ قريــةٌ مُعلَّقــةٌ فــي ســحابةِ اللاّمكــان ... ؛ فقــد عــاشَ قاســمُ وأقرانُــهُ حيــاةً مُنْشَــطِرَةً: أرواحُهــم تَسْــكُنُ بــاريسَ وبــرلينَ ولنــدن، بينمــا أجســادُهم تَرْقــدُ علــى أَرائِــكَ بغــدادَ أوبــوادي الناصــرية أو أهــوار العمــارة ، كأنهــا أغطيــةٌ فارغــة... ؛ أَصَــابَ هــذا الانْشِــطارُ روحَــهُ بِفَجْــوَةٍ هائلــة، كَوَّنَــتْ فِيهــا سُــحُبُ الاكتئــابِ عاصــفةً ســوداء... ؛ فقــد حــاولَ أن يرمــي نفسَــهُ فــي نهــر دجلــة ، لــولا أنْ أمســكَ بــهِ صديقُهُ حُسَين، كالغُصْنِ الذي يمنعُ ورقةً من السقوط.

نعــم , لــم يفهــم كيــف صــبر الســابقون، ولــم يــدرك أنهــم لــم يكونــوا يملكــون المقارنة... ؛

فهــو ابــن الشاشــات الزرقــاء المفتوحــة، والخــرائط الرقميــة، والمــدن التــي تُــزار بالأفكــار قبــل الأقــدام... ؛ كــان يعــيش فــي بغــداد بجســده، وفــي عواصــم العــالم بروحــه، فتمــزّق بــين صــورتين: حيــاة لا تشــبه أحلامــه، وأحــلام لا تشــبه واقعــه... ؛ كــان محاطًــا بعــالم افتراضــي يَعِــد بــالكثير، ويمــنح القليــل، فــدخل فــي مــا يصــفه علــم الاجتمــاع بــ الاغتــراب المقــارن: أن تقــيس حياتــك بما تراه لا بما تعيشه.

أحــسَّ الأبُ بِزَلْزَلَــةِ الخطــرِ فــي أســاسِ البيــت... ؛ فجَمَــعَ لابنــهِ حُزْمَــةً مــن الأمــلِ المُصْــطَفَى، علــى شــكلِ مــال، ليُلَبِّــيَ حُلْــمَ الهجــرةِ إلــى أورُوبَّــا، حيــثُ تُرْسَــمُ الحيــاةُ بــألوانِ الجنــةِ الموعــودة... ؛ حــين غــادر الــبلاد، لــم يكــن هاربًــا من الفقر، بل من الشعور بعدم الانتماء...

ســافرَ قاســمُ وحســين عبــرَ تركيــا، ثــم رَكَبــا فــي أحشــاءِ قــاربٍ مَهْــزُومٍ، يَخْتِــرِقُ جَسَــدَ البحــرِ الأبــيض المتوســط... ؛ لكــنْ، فــي إحــدى الجُــزُرِ المُتْعَبَــة، وَقَعَــتْ خصــومة و شِــجَارٌ مــع رُكَّــابٍ أفغــان متعصــبين دينيــا ، وانتهــى بغَــدرَةٍ سَــكِّينٍ تَغْــرَسُ نفسَــها فــي قلــبِ حســين... ؛ وحــين قُتــل صــديقه فــي الطريــق، انهــار التــوازن النفســي الأخيــر لديــه... ؛ الفقــد هنــا لــم يكــن عاطفيًــا فقــط، بــل وجوديًــا: فــالموت المفــاجئ يجــرّد الحيــاة مــن منطقهــا، ويجعــل كــل الخيــارات متساوية في عبثيتها.

بَقِــيَ قاســمُ جاثيــاً أمــامَ القبــرِ المُؤَقَّــتِ علــى الشــاطئ، بينمــا انْسَــحَبَ البحــرُ بكــلِّ أمواجــهِ كــأنَّ شــيئاً لــم يَكُــن... ؛ حــين مــات صــديقه فــي طريــق الهجــرة، لــم يمــت وحــده... ؛ مــات المعنــى... ؛ ومنــذ تلــك اللحظــة، صــار قاســم يمشــي وهو فارغ، كقنينة أُلقيت في بحرٍ لا يعرف الرسائل...

وَصَــلَ أثينــا، المدينــة البيضــاء، حيــثُ تَشَــتَّتَ الرفــاقُ كــذراتِ غبــارٍ فــي مهــبِّ الريح، وبَقِيَ هو وَحيداً، لا يدري أين تُؤدِّي بهِ الخطوات.

عــاشَ أيامــاً فــي غُــرفِ فنــادقَ رخيصــة، سَــكْرَانَ بِجمــالِ المدينــةِ ولوعــةِ الفقــدِ معــاً... ؛ و تَعَــرَّفَ علــى شــابٍّ تونســيٍّ، فأخــذَهُ الأخيــرُ إلــى عــالَمِ النســيانِ الســائل: قنــاني خمــرٍ تَتَحَــوَّلُ إلــى أنهــارٍ ســوداءَ تَجْــرُفُ الــذاكرة... ؛ اســتمرَّ

شـــهرينَ فـــي دوامـــةِ الطعـــامِ الجـــاهزِ فـــي المطـــاعم , والنـــومِ الثقيـــلِ والـــدُّخانِ الكثيـــفِ الـــذي يُغَطّـــي مـــرآةَ الـــنفس... ؛ وعنـــدما تَثُـــورُ الشـــهوةُ الجســـديةُ، كـــان يَلْجَـــأُ إلـــى جســـدِهِ وحـــده، فـــي طقـــسٍ مُهـــينٍ مـــن العُزلـــة... ؛ حيـــث يمـــارس العـــادة السرية .

فـــي المدينـــة الأوروبيـــة، عـــاش المرحلـــة التـــي يســـميها علمـــاء الـــنفس التفريـــغ: إنفـــاق المـــال، الإفـــراط فـــي اللـــذة، محاولـــة نســـيان الصـــدمة عبـــر الاســـتهلاك... ؛ لكن المال ينفد، والصدمة لا.

ففـــي اثنيـــا ، أكـــل حتـــى الشـــبع، شـــرب حتـــى النســـيان، ثـــم... نفـــد كـــل شـــيء... ؛ وحين ينفد المال، يبدأ الحساب الحقيقي.

نعـــم , نَفَـــدَ المـــال... ؛ و ضـــاقَتِ الـــدنيا فجـــأةً كَفتحـــة الابـــرة الصـــغيرة... ؛ أصـــبحَ الظـــلُّ سَـــقْفاً، والحديقـــةُ العامـــةُ ســـريراً، حيـــثُ يَضَـــعُ حقيبتَـــهُ تحـــت رأســـهِ، ويتلفـــعُ بِلِحـــافِ النجـــومِ البـــاردة... ؛ و يَتَغَـــذّى علـــى فُتَـــاتِ المَوائـــدِ فـــي زوايا الطرقاتِ، ويَغْتَسِلُ بِخِجْلٍ في حماماتِ المحطات.

بلـــى , صـــار ينـــام تحـــت الســـماء، ويغتســـل مـــن الخجـــل قبـــل الغبـــار، ويكتشـــف أن الجوع ليس ألم المعدة فقط، بل انكسار الكرامة.

عنـــدما وجـــد نفســـه بـــلا مـــأوى، بـــلا طعـــام، وبـــلا شـــبكة دعـــم، دخـــل مرحلـــة البقـــاء الخالص...

هنـــا تتراجـــع الأخـــلاق إلـــى موقعهـــا الحقيقـــي: ليســـت مبـــادئ مطلقـــة، بـــل ترفًـــا مشروطًا بالأمان...

لم يفكر قاسم كثيرًا؛ الجوع لا يمنح وقتًا للفلسفة، لكنه يصنعها لاحقًا...

اكتشـــف ـــمتـــأخرًا ـــأن الجســـد فـــي ســـوق العـــالم الحـــديث لـــيس ملكًـــا لصـــاحبه دائمًا، بل موردًا يُستثمر حين تنعدم الخيارات... !!

وفـــي إحـــدى الأيـــام، اقتـــربَ منـــه رجـــلٌ يُونـــانيٌّ اربعينـــي يُـــدْعَى بِيتـــرُو... ؛ تَهـــادَتْ بينهمـــا كلمـــاتٌ بســـيطة، ثـــم قـــدَّمَ لـــهُ خمـــسَ يوروهـــاتٍ مُقابـــلَ تـــدليكٍ للكتفـــينِ المُتَعَبـــين... ؛ وافـــقَ قاســـم، وشَـــعَرَ بأصـــابِعِهِ، وهـــي تَفـــركُ جســـدَ غريب، كأنها تَمسحُ كرامتَهُ نفسَها...

عـــادَ فـــي اليـــوم التـــالي، لكـــنَّ الطلـــبَ كـــان مختلفـــاً... ؛ "هـــل تَمـــارِسُ الجـــنسَ معـــي؟" ســـألهُ بيتـــرو بعشـــرةِ يوروهـــات... ؛ ارتَـــدَّ قاســـمُ كمـــنْ لُطِـــمَ، ففـــي صـــميمِ كِيانِـــهِ، كـــان هـــذا الفعـــلُ هـــوةً ســـوداءَ لا يُشـــرِقُ فيهـــا نـــور... ؛ رَفَـــض، فانصرفَ الرجل اليوناني من دون رجعة .

عنـــدها فهـــم الحقيقـــة التـــي لا تُـــدرّس: أن الجســـد، حـــين يُحاصـــر، يتحـــوّل إلـــى عملة.

وأن بعض الأبواب لا تُفتح إلا حين تُغلق في داخلك نوافذ كثيرة.

اشـــتدَّ الجـــوعُ، وصـــارَ كـــالوحشِ الـــذي يَـــنْهَشُ الأحشـــاء... ؛ و فـــي إحـــدى حَـــدائِقِ اللقـــاءاتِ المَشْـــبُوهة، حيـــثُ يَتَرَصَّـــدُ المثليـــونَ ضـــحاياهم، ظهـــرَ رجـــلٌ خمسيني سعوديٌّ مُتأنِّق...

"أَنْـــتَ عراقـــي... أنـــتمُ الرجـــالُ الحقيقيـــون، جمعـــتُم الجمـــالَ والقـــوة" قالـــهُ مبتســـماً، ثـــمَّ أضـــافَ، كمـــنْ يقـــدمُ عرضـــاً تجاريـــاً: "أبحـــثُ عـــن شـــابٍّ قـــويٍّ مثلـــك... ؛ أكـــونُ أنـــا المـــرأة والزوجـــة وهـــو الرجـــل ... ؛ مقابـــل مائـــةُ يورو... لكلِّ مرة...!! "

تَجَمَّـــدَ قاســـم... ؛ اذ رأى أمـــامَ عينيـــهِ جـــبلاً مـــن الـــذهبِ وقـــد انهـــارَ علـــى رأسِ جوعِه... ؛ سَكَتَتْ كلُّ القِيمُ في داخلِهِ لحظةً واحدة... ؛ وافق...!!

فـــي غرفـــةِ الفنـــدقِ الفـــاخر، شَـــرِبَ قاســـمٌ حتـــى الثمالـــة، كـــي يَغْـــرَقَ وَعْيُـــهُ ولا يـــرى مـــا يحـــدث... ؛ ثـــمَّ تحـــوَّلَ إلـــى آلـــةٍ بـــلا روح... ؛ وقـــد أذهلَـــت قوَّتَـــهُ الجنســـية والعضـــلية الرجـــلَ الســـعودي، "أبـــو مشـــاري"، الـــذي دفـــعَ ألفـــاً بـــدلاً

مــن ســبعمائة – مقابــل ســبع مــرات مــن النكــاح المتواصــل علــى مــدى ســت ساعات – ، وألبسَهُ من الملابس الراقية ، وأطعمَهُ أطايبَ الطعام...

بَقِيَـا معـاً عشـرةَ أيـام، ينـتقلان بـين أفخـمِ المطـاعمِ وأجمـلِ المتـاجر، وفـي الليـلِ يتحـوَّلُ قاسـمُ إلــى وحـشٍ غريـبٍ يَفْـرِسُ جسـدَ الشـيخِ مقابـل المـالِ والمـأوى... ؛ أهــداهُ أبــو مشــاري، عنــد الرحيــل، هاتفــاً جديــداً وأربعــةَ آلافِ يــورو... ؛ تَعانَقَــا فــي المطــارِ عنــاقَ العشــاقِ الزائــف، حيــثُ تَخــتلطُ أنفــاسُ الشــهوةِ بأنفاسِ الندم والمصلحة ...

لــم يكــن مــا حــدث نتيجــة انحــراف، بــل نتيجــة اخــتلال ميــزان القــوة: طــرف يملــك المــال، وطــرف يملــك الحاجــة... ؛ ومــع كــل تنــازل، لــم يكــن يشــعر بالذنب بقدر ما كان يشعر بالفراغ.

الــذنب يفتــرض وجــود معنــى أخلاقــي ثابــت، أمــا الفــراغ فهــو علامــة علــى تآكل المعنى نفسه.

نعـم , لـم يكـن مـا فعلـه شـهوة، بـل مقايضـة صـامتة مـع العـالم... ؛ كـان يمـنح ما لا يريد، ليشتري ما يحتاج.

وكــل مــرة، كــان يشــعر أن شــيئًا منــه يُتــرك خلفــه، علــى مصــطبة، أو فــي غرفة، أو في مرآة لا ينظر إليها طويلًا...

عــادَ قاســمُ إلــى الحديقــة العامــة، إلــى نفــسِ المصــطبة الخشــبية ؛ جلــسَ، وقــد تَحَــوَّلَ جســدُهُ إلــى ســلعةٍ مُعَرَّوضــةٍ فــي ســوقِ النهــار... ؛ ربمــا ينتظــرُ زبونــاً آخــرَ يُشــبِهُ أبــا مشــاري، بينمــا تَهْمِــسُ فــي أذنيــهِ ريــحٌ عــابرة: "مَــنْ أنــتَ الآن، يا وَلَدَ المدينةِ الاوربية ؟"

وتحــت أقدامــه، بــدا ظلُّــهُ طــويلاً، مُشَــوَّهاً، كأنــه طــائرٌ كَســيرُ الجنــاحين، نَسِــيَ كيف يَحلِّقُ نحو السماءِ التي وُلِدَ منها.

نعـــم , حـــين انتهـــت المرحلـــة، وعـــاد إلـــى الحديقـــة، لـــم يعـــد الشـــخص ذاتـــه... ؛فالنفس، حين تُباع مرة، لا تعود كاملة.

لم يكن محطمًا بالكامل، لكنه لم يكن سليمًا.

كان مثالًا حيًا على ما يسميه الفيلسوف سارتر:

الإنسان محكوم بالحرية، حتى حين لا يملك خيارًا جيدًا.

جلـــس علـــى المصـــطبة ذاتهـــا، لا ينتظـــر شخصًـــا بعينـــه، بـــل احتمـــالًا منقـــذا كـــأبي مشاري السعودي .

احتمال أن تبدأ الحياة من جديد،

أو أن تستمر كما هي، بلا تفسير.

وفي الحالتين، كان يعرف شيئًا واحدًا فقط:

أن الإنسان لا يسقط دفعة واحدة،

بل ينزلق ببطء، خطوةً مبرَّرة بعد خطوة.

حين تدور الأسطوانة... ويستيقظ زمنٌ لم يمت (٥١)

لم يكن الغروب سوى شاشةٍ باهتة تُسحب ببطء فوق المدينة.

طـــارق عـــاد مـــن عملـــه مـــثقلاً، لا بالتعـــب وحـــده، بـــل بـــذلك النـــوع مـــن الإرهـــاق الـــذي لا يـــأتي مـــن الجســـد بـــل مـــن التكـــرار؛ مـــن الأيـــام التـــي تشـــبه نفســـها حتـــى تفقد القدرة على الاختلاف.

في سيارة الأجرة، كان السائق يهمهم مع إذاعة قديمة، بينما المدينة تمرّ مثل شريطٍ بلا صوت.. , عند الإشارة الحمراء، توقّف كل شيء... إلا داخله.

هناك، على اليمين، انفتح المشهد.

مقهى شعبي قديم.

ليس قديماً بالمعنى السياحي، بل بالمعنى الذي ينجو من الزمن رغم أن الزمن يكرهه.. , واجهته خشبية، زجاجه مشوب بغبارٍ خفيف، لكن داخله يلمع كجرحٍ لم يلتئم بعد.

السائق قال دون أن ينظر:

– "هذا المقهى رجع يشتغل بعد سنين الحرب... كانوا معزلينه من أيام طويلة."

طارق لم يجب.

كان ينظر إلى شيءٍ واحد فقط.

جرامافون في وسط المقهى.

يدور كأنه قلبٌ صناعي يحاول تقليد الحياة.

ثم جاء الصوت.

منه خرج العالم.

كان صوت عبادي العماري، كأنه لا يغني بل يستدعي أرضاً كاملة من تحت الرماد.. , الصوت لم يكن موسيقى فقط، بل ذاكرة تمشي على قدمين.

السائق التفت أخيراً:

– "لسه الناس تسمع هالأشياء؟"

طارق همس، دون أن يدري أنه يتكلم:

– "هي ما انتهت... إحنا اللي انتهينا عنها."

ثم فتح الباب.

لم ينتظر الإشارة.

وكأن شيئاً داخله سبق جسده إلى هناك.

داخل المقهى، الهواء مختلف.

ليس أنظف، بل أصدق.

رائحة الشاي تمتزج بالدخان والوقت.

الكراسي الخشبية تصدر صريراً كأنها تتذكر من جلس عليها.

طارق اختار زاوية قريبة من الجدار.. , لم يكن يريد أن يُرى.. , كان يريد أن يختفي بطريقة محترمة.

لكن الصوت لم يسمح له بالاختفاء.

كان يقرأ أبوذية:

"بعضي بنار الهجر مات حريقا

والبعضُ أضحى بالدّموع غريقا

لم يشكُ عشقاً عاشقٌ فسمعتهُ

إلا ظننتكَ ذلك المعشوقا..."

وفي اللحظة التي انتهى فيها البيت الشعري ، حدث الانكسار.

لم يكن صوتاً فقط.

كان مفتاحاً.

طارق لم يعد في المقهى.

كان في مكان آخر.

ليلى عادت.

لكن ليس كذكرى فقط.

كحضورٍ يفرض نفسه.

جلس إلى نفسه الأخرى.

قال داخلياً:

"لماذا الآن؟"

وجاءه الجواب من لا أحد:

"لأنك أخّرتني كثيراً."

ليلى لم تكن امرأة في ذاكرته فقط.

كانت نظاماً كاملاً من الإدراك.

حين كانت تضحك، كان العالم يعيد ترتيب نفسه.

حين كانت تنظر إليه، كان يفقد تعريفه.

كان يقول لها مرة، وهي تقطع حديثه بابتسامة:

– "أنتِ تشبهين الفكرة التي لا تُقال."

فترد:

– "وأنت تشبه الرجل الذي يحاول أن يشرح الفكرة بدل أن يعيشها."

في المقهى الآن، طارق يسمع صوته القديم ينهار داخله.

يتذكر:

ليالي اللقاء الأولى.

الحديث الذي كان يتعثر لأنه لم يكن يريد أن يكون حديثاً.

القُرب الذي لم يكن جسدياً فقط، بل وجودياً، كأن المسافة بينهما كانت خطأً في الكون يتم تصحيحه.

كان يقول لها:

– "أشعر أني عندما أقترب منك، لا أقترب من امرأة... بل من نفسي التي ضاعت."

فتجيبه بهدوء غريب:

– "وأنا عندما أراك، لا أراك... أرى ما كنتُ أستطيع أن أكونه لو لم أخف."

الصوت في المقهى يستمر.

الإبرة تخدش الأسطوانة كأنها تحفر في جلد الزمن.

كل خدش يفتح باباً.

كل باب يطلق مشهداً.

طارق الآن يختلط عليه الزمن.

هل هو هنا؟

أم هناك؟

أم أن "هناك" هي الكذبة الوحيدة التي اخترعها العقل ليحمي نفسه من الانهيار؟

صوت أحد رواد المقهى يقطع الصمت:

– "تدري؟ هالمطرب يرجعنا لأيام ما نقدر نرجع لها."

يرد رجل آخر:

– "إحنا ما نريد نرجع... إحنا نريد نفهم ليش ضاعت."

طارق يهمس لنفسه:

– "لأننا اعتقدنا أنها انتهت... وهي لم تنتهِ، بل انسحبت منا."

تتسارع الموسيقى.

والذاكرة تبدأ بالتمرد.

ليلى لم تعد صورة.

بل سؤال.

في لحظة، ينقطع الصوت.

الجرامافون يتوقف.

صمت مفاجئ، كصفعة.

كأن الزمن أغلق فمه فجأة.

طارق يرفع رأسه.

المقهى يبدو مختلفاً الآن.

أكثر فراغاً.

أكثر حقيقة.

كأن كل ما حدث كان عرضاً مؤقتاً داخل رأسه فقط.

النادل يمرّ بجانبه:

– "أول مرة تجي؟"

طارق يتردد:

– "لا... كنت هنا من زمان."

النادل يبتسم:

– "الغريب إننا كلنا نقول هذا الجواب."

طارق يخرج.

الهواء الخارجي بارد، لكنه نظيف بشكل جارح.

يمشي.

لا يعرف إن كان يهرب من المقهى أم يعود إلى نفسه.

وفي داخله سؤال واحد يزداد وضوحاً كل خطوة:

هل كنا نعيش الماضي؟

أم أن الماضي هو الذي كان يعيشنا دون أن نلاحظ؟

وفي لحظة، يسمع خلفه شيئاً لا يُرى.

كأن الإبرة عادت للدوران وحدها.

أو كأن صوت ليلى، أو ظلها، قال له دون كلمات:

"لم أغب... أنت فقط توقفت عن الإصغاء."

ويمضي طارق.

لا كإنسان يبحث عن حب ضائع.

بل كمن أدرك متأخراً أن الذكرى ليست ما حدث...

بل ما لم ينتهِ بعد.

حمدي يختبئ خلف الباب... (٥٢)

دخل حمدي غرفته هارباً من جحيم المسؤوليات و أعباء البيت التي تنتظره خلف الباب، تسلل إلى عزلته كما يتسلل الجريح إلى كهفه يلعق جراحه... ؛ مفلس , جيبه فارغ كقلب أمٍّ ثكلى، ومحفظته تخلو حتى من وهم النقود... ؛ آوى إلى صمته ثلاثة أيام كاملة، كمن يُغلق على نفسه فصلًا كاملًا من الخيبة , لا يؤانس جوعه إلا كِسَرُ خبز يابس يبلُّها بالماء، كأنما يعاقب نفسه على ذنب لم يقترفه سوى أنه وُلد في الجانب المظلم من الحياة ...!!

كان الصمت كثيفًا، يتدلّى من السقف كعنكبوتٍ عجوز، ثم جاء ذلك الصوت ... , اذ قطعت الصمت طرقاتٌ صغيرة على الباب لكنها عنيدة ... ؛ كأنها دقات قلب طفل يطلب الحياة... ؛ ثم ارتفع صوت ابنته الصغرى يخترق سكون الغرفة كسكين حاد يقطع وشاح الليل: "بابا... بابا... بابا... افتح الباب! أريد نقوداً للحلويات... ؛ كل الأطفال يشترون

حلويـــات إلا أنـــا... ؛ مضـــى أســـبوع كامـــل لـــم أذق فيـــه طعـــم الحلـــوى... أرجوك افتح الباب ...!!

أطفـأ حمـدي النـور، فغـرق فـي ظـلام يليـق بحالـه... , لا ليُخفـي نفسـه عنهـا، بـل ليُخفـي نفسـه عـن نفسـه ؛ و تظـاهر بـالنوم , كـأن النـوم حيلـةٌ أخلاقيـة، أو عـذرٌ يُغفـر بـه العجـز، تجمـد فـي مكانـه كتمثـال مـن حجـر، لكـن الطرقـات لـم تتوقـف... ؛ فالطفـل حـين يشـتهي أمـراً لا يعتـرف بمنطـق العوائـق، ولا يسـتوعب معنـى الاسـتحالة، خاصـة حـين يـرى مـا تشـتهيه نفسـه فـي أيـدي الآخرين، قريباً من عينيه، بعيداً عن يديه ...

نعـم , الاطفـال لا يفهمـون فلسـفة الحرمـان؛ يـرون الرغبـة حقًـا، ومـا دام الآخرون ينالونه، فلا سبب يمنعهم...!!

فـي تلـك اللحظـة، شـعر أن البـاب لـم يعـد خشـبًا يفصـل بـين غـرفتين، بـل حـدًّا فاصـلاً بـين عـالمين: عـالمٍ يطلـب، وعـالمٍ يعجـز. بـين بـراءةٍ تصـرخ، وكرامـةٍ تتكسر بصمت ...

فـي عتمـة الغرفـة، تأمـل حمـدي مشـهده المأسـاوي طـويلاً... ؛ و شـعر بشـيء يتكسـر فـي أعماقـه، بشـيء أعمـق مـن الجـوع، وأشـد إيلامـاً مـن الحرمـان... ؛ لـم يشـعر فـي حياتـه كلهـا بـأمر أقـبح ولا أشـنع ولا أبشـع مـن شـعوره بـالفقر... ؛ إنـه لـيس مجـرد غيـاب للمـال، بـل حضـور دائـم للعجـز... ؛ الفقـر وحـش خرافـي حقيقـي، يلـتهم الإنسـان مـن الـداخل، يهـدر كرامتـه قطعـة قطعـة، يشـوه ملامـح روحـه قبـل ملامـح وجهـه، يذلـه أمـام نفسـه قبـل أن يذلـه أمام الآخرين ...

الفقـر يحـوّل المـرء إلـى قـزم لا يُـرى... ؛ يمـرّ بـين الجمـوع فـلا يـراه أحـد، يـتكلم فـلا يسـمعه أحـد، يتـألم فـلا يشـعر بـه أحـد... ؛ فـالفقير حقيـر فـي نظـر الجميـع ... ؛ لا اسـتثناء فـي هـذه القاعـدة القاسـية التـي كتبتهـا قـوانين الاجتماع البشري بمداد من دمع ودم .

نعـم , اكتشـف أن الفقـر لـيس نقصًـا فـي المـال فحسـب، بـل هـو حالـة نفسـية تُعيـد تشـكيل الإنسـان مـن الـداخل... ؛ إنـه لا يسـرق الخبـز مـن فمـك فقـط، بـل يسـرق لغتـك، قـدرتك علـى التبريـر، وحتـى حقـك فـي الحـزن... ؛ الفقيـر لا يُسمح له أن يكون معقّدًا؛ يُختزل في حاجته، ويُختصر في عجزه ...

لكـن الأشـد إيلامـاً مـن كـل ذلـك، هـو ذلـك الصـوت البـريء خلـف البـاب... ؛ تلـك الطفلـة التـي لا تفهـم لمـاذا يختلـف عالمهـا عـن عـالم الآخـرين... ؛ لمـاذا تمتد يدها إلى الفراغ بينما تمتلئ أيدي رفيقاتها بالحلوى الملونة؟!

جلـس حمـدي فـي ظلامـه، وأحـسّ لأول مـرة أن الفقـر لـيس غيـاب المـال فحسـب، بـل هـو غيـاب القـدرة علـى أن تكـون أبـاً كـاملاً، إنسـاناً كـاملاً، حضـوراً كـاملاً فـي حيـاة مـن تحـب... ؛ الفقـر الحقيقـي هـو أن تختبـئ مـن طفلتك خلف باب مغلق، لا لشيء إلا لأنك لا تملك ثمن قطعة حلوى ...

وعندئذ، نهض ...

لـم يفـتح البـاب بحثـاً عـن نقـود ليسـت معـه، بـل فتحـه بحثـاً عـن شـيء آخـر... ؛ حمـل طفلتـه بـين ذراعيـه، ضـمها إلـى صـدره ضـمة طويلـة، وهمـس فـي أذنهـا بصـوت مبحـوح: غـداً يـا صـغيرتي... غـداً سأشـتري لـك كـل حلويـات العـالم ...

لـم تفهـم الطفلـة لمـاذا غـداً ولـيس الآن، لكنهـا فهمـت شـيئاً آخـر عنـدما كبـرت : دفء حضـن أبيهـا، وصـدق وعـده، وحبـاً لا يحتـاج إلـى نقـود ليكـون عظيمـاً ...

عـادت إلـى لعبهـا البسـيطة وهـي تلعـب علـى مضـض ؛ بينمـا وقـف حمـدي علـى عتبـة غرفتـه ينظـر إلـى السـماء، متسـائلاً فـي صـمت: أي عـالم هـذا الـذي يجعل من لقمة الحلوى بوابة للكرامة؟!

وأي نظـام هـذا الـذي يحـوّل الآبـاء إلـى أقـزام فـي عيـون أطفـالهم لا لـذنب اقترفوه، سوى أنهم فقراء؟!

ثم أدرك شيئاً عميقاً: أن القزم الحقيقي ليس من يفقده المالُ طوله، بل من يفقد إنسانيته... ؛ وأن الفقر قد يسرق منك الكثير، لكنه لا يستطيع أن يسرق منك قدرتك على أن تحب، وأن تعد، وأن تكون حاضراً حين يطلبك قلب صغير لا يفهم من الحياة إلا أن بابا هو البطل الذي يصنع المستحيل...

وفي تلك الليلة، نام حمدي على أرض غرفته الصلبة، و تذكّر كيف كان يضحك مع أصدقائه قديمًا، كيف كان يُخطّط، يحلم، يؤمن بأن المستقبل مساحة مفتوحة... ؛ أما الآن، فقد صار المستقبل جدارًا آخر، لا باب فيه ...!!

حلمٌ... وقرار (٥٣)

أستيقظتُ مرعوبًا.

كانوا يبحثون عني في الطرقات، في الأزقة الضيقة التي تحفظ خطوات الهاربين، في بيوت الجيران والأصدقاء والأقارب، كأن المدينة كلها تحوّلت إلى فمٍ كبيرٍ يلفظ أسماءنا واحدًا واحدًا.. ؛ ذهبوا إلى المعهد، ثم إلى دكاني الصغير- محلّ تجارتي البسيطة- فلم يجدوني.

لكن الصدفة السيئة، ذلك الطالع الذي لا يخطئ في اصطياد الضعفاء، جمعتني بهم عند عودتي إلى البيت، حين قررت أن أهرب إلى نوم قيلولة قصيرة، كنت متعبًا كمن يجرّ عمره على إسفلتٍ ساخن.

رأيتهم.

أبصروني.

وفي لحظةٍ واحدة انفرط الزمن من بين أصابعي.

أطلقتُ قدميّ للريح، وركضوا خلفي... ؛ ركض الوحوش المتعطشة للدماء خلف غزلان البراري المذعورة.

كانت الأرض لا تتسع لخطاي ولا لخطواتهم، والهواء نفسه بدا كأنه يختنق من الصراخ غير المسموع.

حال بيني وبينهم الشارع العام، ذلك الشريط المزدحم بالسيارات، والذي بدا لي آنذاك نعمةً سماوية، جدارًا غير مرئي أنقذني من أنياب الضباع ومخالب الغربان.

هناك... , عند الحافة الفاصلة بين الحياة والموت، بلغت الروح التراقي، وتسارعت دقات قلبي كطبول حرب، وارتفعت حرارة جسدي حتى شعرت أنني أشتعل من الداخل، وجحظت عيناي كأنهما ستنفصلان عن وجهي.

ثم... انقطعت الصورة.

استيقظت.

كان صمت الغرفة أثقل من أي صراخ.. , لا أحد غيري.. , الوالد في العمل، الأم في السوق، إخوتي في المدرسة.. , التيار الكهربائي مقطوع كالعادة، فابتلعت الظلمة زوايا البيت حتى صار كل شيء يبدو كأنه جزء من أرشيف قديم لدوائر الأمن الصدامي؛ تلك الغرف التي لا يدخلها الضوء إلا معتقلاً.

ياللهول...

حلمٌ مزعج، وواقعٌ بائس، وظلمٌ مقيم.

أهـرب مـن سـجنٍ لأقـع فـي سـجنٍ أتعـس، كـأن الأرض كلهـا ليسـت إلا طبقـات متراكمـة مـن الزنـازين، تختلـف فـي سـعتها وضـيقها، لكنهـا تتفـق فـي شـيء واحد: أنها لا تفتح أبوابها إلا للانكسار.

كـان وطنـي، فـي ذهنـي، شـبكةً مـن دوائـر الأمـن والمخـابرات والحـزب والجـيش، تتـداخل مـع عصـابات طائفيـة هجينـة، ذات جـذورٌ أجنبيـة غريبـة، كأنهـا نُسـجت عمـدًا فـوق جسـدٍ أنهكتـه القـرون.. ؛ دهـاليز للتعـذيب، للقتـل، للتغييب، للتهميش، للإقصاء، للتعسف... , أسماء متعددة لجحيمٍ واحد.

حتـى السـجون لـم تكـن متسـاوية فـي الرعـب؛ فـسجن أبـو غريـب، سـيّئ الصـيت، بـدا لـي جنـةً بـاردة إذا مـا قـورن بجحـيم سـجن الرضـوانية، حيـث يتكثف الألم حتى يصبح هواءً يُتنفّس.

فـي تلـك اللحظـة، لـم يعـد الحلـم حلمًـا، ولا الواقـع واقعًـا... بـل امتزجـا فـي كتلة واحدة من الخوف.

فقررت السفر.

لـم يكـن قـرارًا بقـدر مـا كـان هروبًـا مـن تأويـل الحلـم.. ؛ اعتبرتـه نبـوءة، تحذيرًا متأخرًا من قدرٍ يتربص بي خلف كل زاوية.

حزمـتُ حقيبتـي الصـغيرة، تلـك التـي لا تحمـل مـن الـدنيا إلا بقايـا حيـاة، وأوراقًـا، وذاكـرةً مثقوبـة، وبعـض حاجيـاتٍ بسـيطة لا تكفـي حتـى لتأجيـل الفقد.

ووجهتُ وجهي نحو...

لا أعرف إلى أين تمامًا.

لكنني كنت أعرف شيئًا واحدًا: أن البقاء هنا لم يعد احتمالًا، وأن المعاناة القادمة مهما كانت ستكون فقط امتدادًا لأرخبيلٍ طويل من الهروب، لا بداية له ولا نهاية.

جدر الباميا ... (٥٤)

عندما انتقلت أم حسن من حي الشعلة إلى احدى الاحياء الزراعية في شرق بغداد ... ؛ بعد أن عجزت الحكومات المتعاقبة عن منحهم قطعة أرض رغم مرور ثلاثين عاماً على تعيين زوجها في وظيفة حكومية ، كان بيتها الجديد ملتصقاً ببيت الحاج رحيم العارضي، الرجل السبعيني الذي اشتهر في المنطقة بتربيته للحمام الزاجل ... .

وكان بيت الحاج رحيم لا يخلو من ضجيج: زوجته أم سجاد، وبناته الثلاث، وابنه الوحيد سجاد، شاب في الثلاثين من عمره، وسيم الملامح، لكنه يعرج بشدة منذ حادثة سير مروعة في شبابه، يعمل موظفاً بسيطاً في دائرة التسجيل العقاري ...

أم حسن، التي أنجبت خمس بنات وولد واحد هو حسن، كانت ترى في سجاد فرصة ذهبية لابنتها الكبرى زهراء، الفتاة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً، التي رفضت كل الخاطبين بسبب حساسيتها المفرطة من صوت المراوح السقفية!

نعم، كانت زهراء تصاب بنوبة هلع كلما رأت مروحة تدور، وترفض النوم في أي غرفة بها مروحة، وهو أمر نادر في بيوت بغداد الحارة .

فاتحت أم حسن زوجها أبو حسن بالأمر، فقال مازحاً: "سجاد يعرج وزهراء تخاف من المراوح...؛ شكلهما خليقا ببعض"... ؛ لكن أم حسن

كانـــت جـــادة: الرجـــل محتـــرم وموظـــف ولديـــه بيـــت خـــاص ... ؛ والعَـــرَج لا يعيب الرجل... ؛ أما الفوبيا من المراوح فسنجد لها حل ؛ ان شاء الله .

قـــررت أم حســـن أن تبـــدأ بمغازلـــة أم ســـجاد جـــارتهم الجديـــدة... ؛ وفـــي احـــد الايـــام أرسـلت إليهـــا طبقـــاً مـــن الباميـــا بـــاللحم، ثـــم طبقـــاً آخـــر بالـــدجاج، ثـــم ثالثـــاً بـــاللحم مـــرة أخـــرى... ؛ وعنـــدما ســـألتها أم ســـجاد عـــن ســـر الكـــرم، همســـت أم حسن: أريد خير البيتين...؛ بنتي زهراء لولدك سجاد ... .

تنهـــدت أم ســـجاد طـــويلاً ثـــم قالـــت: والله يـــا أم حســـن، نحـــن نقـــدركم وتشـــرفنا بكـــم، لكـــن ســـجاد... ســـجاد حالتـــه صـــعبة... ؛ لـــيس بســـبب العـــرج، فـــالله ابـــتلاه بـــه ولـــه أجـــر الصـــبر... ؛ لكنـــه... منـــذ الحادثـــة وهـــو يـــرى كـــوابيس كـــل ليلـــة... ؛ يصـــرخ فـــي نومـــه، يضـــرب الحـــائط، أحيانـــاً يـــنهض ويجـــر ســـاقه خـــارج البيـــت بملابـــس النـــوم... ؛ جربنـــا الأطبـــاء والمعـــالجين والشـــيوخ، والله (ما فاد معه) شيء... ؛ من ترضى لبناتها بواحد مثل هذا؟!

أصرت أم حسن: زهراء تفهم... ؛ زهراء تعرف المعاناة.

دعتهـــا أم ســـجاد للغـــداء، وحضـــر ســـجاد... ؛ جلـــس صـــامتاً، يأكـــل بتـــؤدة، ثـــم نهض فجأة وهو وركض إلى الحمام مغلقاً الباب خلفه ...

ضـــحكت أم ســـجاد بحـــرج: انـــه يعـــاني مـــن مـــرض القـــالون ... ؛ هـــذا حالـــه منـــذ ســـنوات ... ؛ خـــرج ســـجاد بعـــد نصـــف ســـاعة، معتـــذراً بصـــوت خافـــت، ثـــم دخل غرفته ولم يخرج .

لكـــن أم حســـن لـــم تتراجـــع... ؛ قالـــت لزوجهـــا: ســـأذهب لأخطبـــه لزهـــراء بنفسي ...!!

فعلتهـــا... ؛ و ذهبـــت إلـــى الحـــاج رحـــيم، الرجـــل الطيـــب الـــذي كـــان يربـــي حمامـــه علـــى السـطح، وطرحـــت الأمـــر... ؛ نظـــر إليهـــا الحـــاج رحـــيم بعينـــين دامعتـــين، ثـــم قـــال: أم حســـن، ابنـــي ســـجاد مـــريض... ؛ وأنـــا أعـــرف أن زهـــراء مريضـــة أيضـــاً بعلتهـــا الغريبـــة... ؛ مريضـــان معـــاً... لا يؤسســـان بيتـــاً، بـــل

يهدمانـــه... ؛ أريـــد لســـجاد أن يجـــد امـــرأة تقـــوده إلـــى الشـــفاء، لا امـــرأة تحتـــاج إلى من يقودها ...

عـــادت أم حســـن إلـــى بيتهـــا باكيـــة... ؛ ثـــم قالـــت لزهـــراء: ســـامحيني يـــا بنتـــي، رفضونا ...!!

ابتســمت زهــراء ابتســامة بــاردة غريبــة وقالــت : لا بــأس يــا أمــي. أنــا لا أريــد الـــزواج أصـــلاً... ؛ الخـــوف مـــن المـــراوح... ؛ والآن العـــرج والكـــوابيس... ؛ الناس كلها فيها عيوب؛ الا ان البعض يتنمر على البعض ...!!

مـــرت أشـــهر... ؛ وفـــي إحـــدى الليـــالي الصـــيفية الحـــارة، اســـتيقظ بعـــض الجيـــران علـــى صـــراخ مـــدوٍ... ؛ خرجـــوا فوجـــدوا ســـجاد واقفـــاً فـــي منتصـــف الشـــارع وهـــو شـــبه عـــاري ، ينظـــر إلـــى الســـماء، يـــردد: ســـائق الشـــاحنة ســـوف يدهسني مرة اخرى ...

أســـرع الحـــاج رحـــيم وأم ســـجاد وأخواتـــه لإدخالـــه، لكنـــه كـــان يقـــاوم بعنـــف... ؛ عنـــدها، خرجـــت زهـــراء مـــن بيتهـــا... ؛ مشـــت نحـــو ســـجاد بهـــدوء... ؛ نظـــرت إليـــه، ثـــم قالـــت بصـــوت هـــادئ: لا تخـــف... ؛ الشـــاحنة ذهبـــت بعيـــدا عنك ...

توقـــف ســـجاد عـــن الصـــراخ... ؛ نظـــر إلـــى زهـــراء بعينـــين زائغتـــين، ثـــم أغمـــي عليه ...

حملـــه الرجـــال إلـــى فراشـــه... ؛ وفـــي الصـــباح، طرقـــت أم حســـن بـــاب أم ســـجاد و قالت: ابنتي زهراء لم تنم البارحة حزنا على حالة سجاد ...

نظـــرت أم ســـجاد إلـــى أم حســـن طـــويلاً... ؛ ثـــم بكـــت... ؛ ثـــم ضـــمت جارتهـــا إليها .

تـــزوج ســـجاد وزهـــراء بعـــد شـــهر... ؛ و لـــم يعـــد ســـجاد يصـــرخ فـــي نومـــه... ؛ أصـــبحت كوابيســـه تـــأتي مـــرة فـــي الشـــهر فقـــط، وكانـــت زهـــراء تهمـــس فـــي أذنـــه

حتـــى يهـــدأ... ؛ أمـــا زهـــراء، فلـــم تعـــد تخـــاف مـــن المـــراوح... ؛ ففـــي ليلـــة زفافها، نامت تحت مروحة السقف وهي تضحك ...!!

وبعد عام، رزقا بطفلة اسمياها : رجاء .

وفـــي يـــوم ممطـــر، كانـــت أم حســـن تطـــبخ الباميـــا بـــاللحم، وإذ بجيرانهـــا يـــدخلون بـــاكين... ؛ ســـجاد كـــان يعبـــر الشـــارع حـــين انحرفـــت شـــاحنة مســـرعة... ؛ مات في الحال ...!!

حملـــوا جثمانـــه إلـــى المستشـــفى، ثـــم إلـــى بيتـــه... ؛ جلســـت زهـــراء بجانـــب جثـــة زوجهـــا، لا تبكـــي... ؛ فقـــط تمســـح علـــى وجهـــه وتقـــول: أنـــت لســـت ميتـــاً... ؛ أنت ذاهب في رحلة قصيرة ... ؛ وسوف تعود سريعا ...

مـــرت ثلاثـــة أيـــام، وزهـــراء لـــم تأكـــل ولـــم تـــنم... ؛ و فـــي اليـــوم الرابـــع، نامـــت فجـــأة... ؛ حلمـــت أن ســـجاد يطيـــر مـــع حمـــام والـــده، ويصـــرخ مـــن الأعلـــى: الشـــاحنة ... الشـــاحنة أتـــت مســـرعة ... ؛لكنهـــا هـــذه المـــرة حملتنـــي إلـــى الســـماء العاشـــرة ؛ هنـــاك لا شـــاحنات ولا كـــوابيس ولا مخـــاوف ولا عيـــوب ...

اســـتيقظت زهـــراء باكيـــة... ؛ ثـــم نهضـــت، و طبخـــت قـــدراً كبيـــراً مـــن الباميـــا، ووزعتـــه علـــى كـــل جيـــران الحـــي ؛ لان ســـجاد كـــان يحـــب مرقـــة الباميـــا كثيـــرا ...

ثم قالت لأمها: سجاد شفي أخيراً... ؛ الكوابيس راحت للأبد .

أم حســـن نظـــرت إلـــى ابنتهـــا، إلـــى قـــدر الباميـــا الفارغـــة، إلـــى الســـماء التـــي لـــم تمطـــر بعـــدها... ؛ أدركـــت أن بنتهـــا لـــم تعـــد خائفـــة مـــن المـــراوح، لكنهـــا أصبحت خائفة من كل شيء آخر ...!!

تبعات الرؤيا (٥٥)

لصفاء روحه وطهارة قلبه، كان "يونس" يرى في منامه ما يجهله في يقظته، فتأتيه الرؤى حاملة أسرار القدر، تارةً مبشرة - في هيئةِ بشيرٍ يربّتُ على كتفِه -؛ وتارةً منذرة - ومرّةً في صورةِ نذيرٍ يفتحُ أمامه أبوابَ القلق-، وكأن السماء اختارته ليكون مرآة لحقائق مخبوءة، تكشف له الغطاء عمّا تخفيه الأيام...

وكان يؤمن، في أعماقه، أنّ بعضَ الرؤى ليست سوى ظلالٍ للمستقبل، تتقدّمُ الزمنَ بخطواتٍ قليلة.

كان يونس من أولئك الذين يمشون في الحياة بقلوبٍ بيضاء، حتى ليبدو للناس أنّه خُلق متأخرًا عن زمنه.

ففي عالمٍ يتقن فيه الجميع ارتداء الأقنعة، كان هو يدخل إلى الآخرين بوجهه الحقيقي، بلا حذر، بلا مكر، وبلا أسوار.

في ليلة مقمرة، بعد أن أتم صلاته بخشوع وأسبغ وضوءه بماء بارد غسل عنه تعب النهار، نام يونس قرير العين، خالي البال من شوائب الدنيا... ؛ لكن النوم ما لبث أن حمله إلى عالم غريب، فرأى في منامه رجلاً فارع الطول، عريض المنكبين، مفتول الساعدين، لم يتجاوز الثلاثين من عمره... ؛ كان أنيق الهندام، يرتدي ثياباً فاخرة تليق بأبناء الذوات، وفي يده خاتم ذهب لامع يخطف الأبصار... ؛ نظر الرجل إلى يونس نظرة طويلة متحدية، اختلطت فيها الشماتة بالاستعلاء، وكأنه يخبره بأمر جلل دون أن ينبس ببنت شفة...

وقف إلى جانب الرجل كهل من حثالة المجتمع ؛ دعاه إلى مجلس قريب بدت عليه مظاهر اللهو والعبث والخمر ... ؛ ورغم المسافة القصيرة التي تفصل يونس عنهما، فإنه ظل شاهداً على المشهد بكل تفاصيله الدقيقة...

ثــم التفــت إليــه الرجــل فجــأة، وقــال بصــوت يقطــر انتصــاراً خبيثــاً: "لقــد دنّســتُ عرضك رغم أنفك!"

انهمــرت دمــوع يــونس فــي المنــام بــلا إرادة منــه، رغــم أنــه لــم يكــن متزوجــاً بعد، ولم تكن له أخت ؛ وامه قد بلغت من العمر عتيا ...

اســـتيقظ يـــونس مـــذعورًا، وقـــد امـــتلأت عينـــاه بالـــدموع دون أن يعـــرف السبب...

مـــرّت الســـنوات، وطـــوى الزمـــان صـــفحاته، وتـــزوج يـــونس مـــن "ليلـــى"، امـــرأة فاتنـــة الجمـــال، لكنهـــا كانـــت ذات روح قلقـــة مضـــطربة، تخفـــي خلـــف عينيها الواسعتين فراغاً عاطفياً عميقاً...

خُـــدع يـــونس بجمالهـــا وهـــدوئها المصـــطنع، إذ لـــم يكـــن يـــدرك أن بعـــض النفــوس تحمــل فــي طياتهــا بــذور التمــرد والخيانــة، لا لشــيء إلا لأنهــا لــم تــتعلم يوماً كيف تواجه فراغها الداخلي بشيء غير التدمير...

كانـــت ليلـــى تـــؤدي دور الزوجـــة الصـــالحة فـــي البدايـــة، تؤثـــث البيـــت بصـــمتها المريـــب وتنشـــغل بطفلهـــا الأول "آدم"، بينمـــا كـــان يـــونس منهمكـــاً فـــي تـــوفير لقمـــة العـــيش، غارقـــاً بـــين العمـــل والدراســـة، يظـــن أنـــه بـــذلك يـــؤدي رســـالته كرجـــل علـــى أكمـــل وجـــه... لكنـــه لـــم يـــدرك أن الإهمـــال العـــاطفي جـــرح لا يلتئم، وأن الحب إن لم يُروَ يومياً يذبل ويموت بصمت...

وفـــي غفلـــة مـــن الـــزمن، تعرفـــت ليلـــى علـــى "ســـلمى"، جـــارة مشـــبوهة , وســـيئة السمعة، ماهرة في إفساد القلوب الضعيفة...

كانـــت ســـلمى تعـــزف علـــى أوتـــار الحرمـــان بمهـــارة شـــيطانية، تهمـــس فـــي أذن ليلى كل مساء: "إلى متى تبقين سجينة الإهمال؟

ألا ترين كيف تذبلين كزهرة في صحراء قاحلة؟

غيرك من النساء، الأقل منك جمالاً، يلبسن الذهب ويعشن الحب ويتمتعن بالحياة... ؛ لكل امرأة حق في السعادة، ولكل زوجة حق في الاهتمام، وأنت امرأة كغيرهن، لا ينقصك شيء!"

كانت كلماتها كالسم يسري في العروق ببطء، يغتال الفضيلة تحت ستار الصداقة والحرص على المصلحة... ؛ ترددت ليلى في البداية، وخافت من الفضيحة والعار، لكن الفراغ كان كالسديم يبتلع كل مقاومة...

"ساعة لربك وساعة لقلبك"، هكذا كانت سلمى تبرر التناقض، فتتصدع النفوس تحت وطأة هذا المنطق الأعوج الذي يخلط المقدس بالمدنس، ويبرر الانحدار تحت شعارات التوازن المزعوم...

وفي لحظة ضعف مالي، حين احتاجت ليلى المال لعلاج طفلها، مدت سلمى يدها بالإقراض، لتكمل نسج الخيوط حول عنق ضحيتها...

كانت الديون طعماً يعلق في حلق الكرامة، ثم جاء يوم الحسم... ؛ اذ أحضرت سلمى طعاماً شهياً، وفي خضم المتعة الحسية، كشفت عن خطتها: "هناك من يحبك منذ رآك في السوق، شاب وسيم اسمه 'أمير'، غني، حنون، يهتم بك أكثر من زوجك... إنه ينتظر إشارة منك فقط"

سال لعاب النفس أمام إغراء المال والاهتمام معاً، ذلك الخليط القاتل الذي يغتال الفضيلة...

بدأت اللقاءات الخاطفة، والهدايا المغرية، والكلمات المعسولة التي لم تسمعها ليلى من زوجها يوماً... ؛ و شعرت لأول مرة أنها مرئية، مرغوبة، مقدرة، فظنت أن هذا هو الحب!

كانت تشتري الوهم بالتدريج، تبيع نفسها قطعة قطعة، حتى سقطت في الهاوية كاملة...

انهار جدار الأخلاق أمام إعصار الاحتياج العاطفي والمادي، وغرقت ليلى في مستنقع الخيانة تبرر لنفسها كل خطوة بأنها ضحية زوج مهمل...

لكــن القــدر كــان يراقــب بصــمت... ؛ فجــأة، هــرب أميــر بعــد فضــيحة ســرقة كبــرى، واختفــت ســلمى كالثعبــان الــذي بــدل جلــده، تاركــة ليلــى تواجــه عواقــب اختياراتها وحدها...

تبــدل ســلوكها، واضــطربت أعصــابها، وتحولــت إلــى امــرأة حــادة الطبــاع، تتشــاجر مــع زوجهــا لأتفــه الأســباب، فالــذنب حــين يتعــذر الاعتــراف بــه يتحــول إلــى عــدوان علــى الآخــرين، وكــأن المعاقبــة للضــحية البريئــة تخفــف من وخز الضمير...

فــي صــباح مشــؤوم، وجــد يــونس رســالة مجهولــة علــى عتبــة داره، تفضــح خيانة زوجته بتفاصيل مروعة، وتكشف كل شيء...

قرأها ... ؛ ومع كل سطر، كان شيءٌ في داخله ينهار...

تجمد الدم في عروقه، وخيّم عليه صمت ثقيل كالموت...

ثــم بــدأ يراقــب زوجتــه بعــين المحقــق، وقــاده البحــث عــن الحقيقــة حتــى وجــد أميــر... ليجــد أنــه نفــس الرجــل الــذي رآه فــي منامــه قبــل ســنوات، بــنفس الملامح، ونفس نظرة الشماتة المتحدية...

أدرك حينهــا يــونس أن رؤيــاه كانــت كشــفاً لمــا تخبئــه لــه الأقــدار، وأن قلبــه الصــافي كــان أشــبه بمــرآة تعكــس حقــائق مخبــوءة خلــف حجــب الــزمن، فــرأى ما لم تره العيون...

لكــن إدراك الحقيقــة لــم يجلــب الســلام... ؛ اشــتعلت نــار الانتقــام فــي صــدره، فدبر مكيدة لأمير وقتله في ليلة حالكة الظلمة، انتقاماً لشرفه المهدور...

ثــم، فــي بــطء محســوب، بــدأ يضــع ســماً خفيــاً فــي طعــام زوجتــه، يومــاً بعــد يــوم، حتــى أســلمت الــروح بصــمت، دون ضــجيج أو فضــيحة، بينمــا كــان طفلها الصغير نائماً على صدرها لا يدري شيئاً...

عــاد يــونس إلــى فراشــه ليلتهــا، منهــك الجســد، مثقــل الــروح، ليغلبــه النــوم مــرة أخــرى... ؛ فــإذا بالرجــل نفســه يــزوره فــي منامــه، بــنفس النظــرة المتحديــة،

ونفـــس الابتســـامة الشـــامتة... ؛ أدرك يـــونس حينهـــا، فـــي تلـــك اللحظـــة المتـــأخرة، أن الانتقـــام لـــم يحـــرره، وأن الشـــماتة مـــا زالـــت تلاحقـــه حتـــى بعـــد الثأر... ؛ فالعار لا يمحوه الدم، والخطيئة لا تغسلها خطيئة أكبر...

وبقـــي الســـؤال معلقـــاً فـــي أرجـــاء روحـــه كصـــدى بعيـــد: مـــن كـــان الســـجين الحقيقي في هذا القفص؟!

ثـــم أدرك متـــأخرًا أنّ المآســـي الكبـــرى لا تبـــدأ بالخيانـــة، ولا بالجريمـــة، بـــل تبـــدأ بلحظةِ صمتٍ طويلة بين قلبين كان ينبغي أن يتحادثا...

وعـــرف أن الإنســـان لا يُهـــزم دائمًـــا بالخيانـــة... ؛ بـــل قـــد يُهـــزم أحيانًـــا بالإهمـــال، بالصـــمت، وبالأشـــياء الصـــغيرة التـــي نؤجـــل قولهـــا حتـــى يفـــوت الأوان.

بين فخّين... حلمٌ يقطر دماً (٥٦)

لـــم يكـــن نومـــه نومًـــا كـــاملًا تلـــك الليلـــة.. , كـــان أشـــبه بغـــرقٍ متقطّـــع فـــي مـــاءٍ بارد، كلما همّ أن ينجو منه أعاده شيءٌ إلى القاع.

فـــي الفجـــر، فـــتح عينيـــه علـــى صـــرخة لـــم يســـمعها بصـــوتها، بـــل شـــعر بهـــا تنفجـــر داخل صدره.

جلس على طرف السرير، يلهث كمن خرج لتوّه من تحت ركام.

كـــان الضـــوء الرمـــادي يتســـلل مـــن النافـــذة، لكنـــه بـــدا لـــه كضـــوء غرفـــة تحقيـــق لا كضوء صباح.

الشيء الوحيد الذي بقي واضحًا في رأسه: الحلم.

الشــارع أمــام بيتــه كــان ممتلئًــا بالنـــاس.. , الجيــران الــذين يعــرف وجــوههم واحــدًا واحــدًا، الأقــارب الــذين يتشــاجر معهــم علــى تفاصــيل صــغيرة، الأصــدقاء الــذين يبتســمون فــي المناســبات ثــم يختفــون... ؛ كــانوا جميعًــا هنــاك.. , مصــطفّين بصــمتٍ غريــب، كــأنهم لــم يــأتوا لزيارتــه، بــل لحكــمٍ مؤجَّل.

والمخيف لم يكن عددهم.

بل عيونهم.

كانــت جميعهــا متجهــة نحــو ميــزاب بيــتهم، حيــث كــان المــاء—أو مــا يشــبه المــاء—يتحــوّل إلــى دم.. , قطــرات حمــراء تنــزل بــبطء، كأنهــا لا تســقط بــل تتردّد قبل أن تعترف بأنها دم.

وحــين حــاول فــي الحلــم أن يصــرخ، لــم يخــرج صــوته.. , ركــض.. , لا يعرف إلى أين.. , فقط ركض، كأن النجاة فكرة لا مكان.

استيقظ.

لكن الحلم لم يستيقظ معه.

في الصباح، لم يتصرّف كما يفعل عادة.

لـم يفـتح التلفـاز.. , لـم يتفقـد هاتفـه.. , لـم يثرثـر مـع نفسـه كمـا اعتـاد حـين يبـدأ يومه.

جلـس فـي المطـبخ أمـام فنجـان قهـوة بـارد تقريبًـا، يمسـكه بكفّـه كمـا لـو أنـه الشيء الوحيد الذي يمنع سقوطه داخل رأسه.

دخلت زوجته ؛ إن كان ما بينهما يمكن تسميته زواجًا في تلك المرحلة.

قالت وهي تضع الخبز على الطاولة دون أن تنظر إليه:

"لم تنم؟"

أجاب بعد لحظة طويلة:

“نمت كثيرًا... وهذه هي المشكلة.”

لم تفهم، أو تظاهرت بعدم الفهم.. , وهذا كان أكثر راحة للطرفين.

في داخله، كان شيء قديم يستيقظ.. , ليست فكرة، بل حالة.. , ذلك الشعور الذي رافقه منذ سنوات: أن كل ما يفعله لا يصل، أن كل نصيحة يسمعها تتبخر قبل أن تلمس أرضه، أن كل باب يطرقه يردّ عليه بصدى مغلق.

قال لنفسه وهو يحدّق في القهوة:

“حتى الحياة لا ترد.”

ثم، وبشكل مفاجئ، ظهر الحل في ذهنه كأنه ليس فكرة بل إغراء.

الموت.

لم يكن تفكيرًا فلسفيًا.. , لم يكن رغبة سريالية وجودية في النهاية.. , كان أقرب إلى قرار إداري بارد: إغلاق ملف لم يعد يحتمل التأجيل.

وقف.

فتح درجًا قديمًا في غرفة النوم.

كان المسدس هناك، كما لو أنه لم يُخفَ بل وُضع لليوم الذي يأتي فيه دوره.

لم يهزه.

حشوه بالطلقات.

كانت يده ثابتة بشكل مخيف، كأن شخصًا آخر يقوم بالفعل نيابة عنه.

في الخارج، كان الشارع طبيعيًا.. , وهذا ما جعله أكثر رعبًا.

الطبيعي دائمًا يبدو خيانة حين تكون أنت على حافة غير مرئية.

نزل الدرج.

كل خطوة كانت أقصر من التي قبلها، كأنه يقترب من نفسه لا من الشارع.

فتح الباب.

البداية لم تكن واضحة.

ثم حدث كل شيء بسرعة، بشكل لا يشبه أي تفكير مسبق.

صوت معدني حاد شقّ الهواء.

صرخة أولى.

ثم صرخات تتكاثر.

الناس الذين رآهم في حلمه... صاروا هنا.

لكن هذه المرة لم يكونوا رموزًا.

كانوا بشرًا يركضون فعلاً.

امرأة تسقط.

رجل يصرخ باسم لا أحد يجيبه.

طفل يضيع بين الأرجل.

الشارع الذي كان في الحلم لوحة... , صار جسدًا حيًا يتألم.

تراجع خطوة.

ثم أخرى.

يده التي أمسكت بالسلاح ارتجفت لأول مرة.

قال بصوت لا يسمعه أحد:

"هذا... ليس ما أردته."

لكن الرصاص—أو ما حدث—كان قد سبق كلامه.

في لحظة ما، توقف كل شيء داخله.

ليس الخارج.

بل هو.

كأن جسده انفصل عن قراره، وتركه وحيدًا أمام نتيجة لا تخصه، لكنها خرجت منه.

سقط على ركبتيه.

بدأ يسمع نفسه من بعيد، كأن صوته ليس داخله.

ثم انفجر.

صرخة طويلة، لا تشبه الألم فقط، بل تشبه الانهيار الكامل لفكرة الإنسان عن نفسه.

"لماذا؟... لماذا لم أنتظر؟"

ثم، أخفض صوته فجأة، كأنه يخاطب شخصًا مات داخله قبل أن يموت جسديًا:

"الصبر... كان أبسط من هذا كله..."

سكت.

لم يعد هناك ما يُقال.

في النهاية، لم يبقَ صوت.

ولا شارع.

ولا حلم.

فقط رجل جالس في منتصف فراغٍ ثقيل، يكتشف متأخرًا أن بعض الأبواب لا تُغلق بالمفتاح... بل بالوقت.

وأن الفخّين اللذين ظنّ أنه محاصر بينهما... لم يكونا سوى باب واحد، اختار أن يفتحه في الاتجاه الخطأ.

بين الدخان والثلج (٥٧)

لم يكن عارف يؤمن بالصدفة، بل كان يراها شكلاً متأخراً من القدر حين يتردد في إعلان نفسه... ؛ لذلك حين وصلت دعوة السفر إلى إيران، لم يقرأها كخبر عابر، بل كاختبار صغير لما تبقّى من يقينه بأن الكلمات قادرة على إنقاذ العالم، أو على الأقل إنقاذ صاحبها من التآكل البطيء داخل ذاته.

الدعوة جاءت عبر صديقه غسّان، رجل الإعلام الذي يجيد ترتيب الصور أكثر من ترتيب الحقائق.

وفدٌ عراقي متنوع سيزور طهران: شمال وجنوب، مدن وأهواء، طوائف ووجوه، وكأن البلاد تُعاد تركيبها مؤقتاً في حقيبة سفر واحدة لعرضها خارج حدودها.

حين سمع عارف أن بين المدعوين شيوخ عشائر، خطرت له فكرة لم يسأل نفسه عن براءتها أو خطورتها: أن يدعو قريبه الشيخ حيدر.

حيدر كان حالة ملتبسة؛ شيخ عشيرة بملامح مدنية، وصحفي تخرّج من كلية الإعلام، ورجل يعيش كأنه لا ينتمي تماماً لأي تعريف.. ؛ كان وسيماً على نحو يربك المعنى، بعينين خضراوين لا تُشبهان صلابة موقعه الاجتماعي، كأن الطبيعة ارتكبت خطأً جميلاً حين منحتهما له.

وافق غسّان.. , وهكذا تحرك الوفد، لا كرحلة، بل كمسرح متنقل يُعيد تمثيل صورة وطن متشظٍ دون أن يجرؤ على الاعتراف بتشظيه.

في طهران، هبطوا تحت سماء رمادية تشبه ذاكرة مرهقة.. , الثلج خفيف، كأنه ترددٌ في السقوط.. , شعر عارف أن الهواء يغسل صدره من الداخل، بينما قال حيدر ضاحكاً إن البرد يوقظ في الإنسان رغبة الاحتماء بشيء دافئ، ثم ترك الجملة معلقة، كأنه سيعود إليها لاحقاً ولم يفعل.

الفندق كان شاهقاً، والطابق السادس عشر يمنح المدينة شكل لعبة صغيرة تحت الأقدام.. , برج ميلاد كان يطلّ من بعيد كإبرة مغروزة في السماء، لا تخيط شيئاً بقدر ما تجرّب ثقب المعنى نفسه.

تساءل عارف بصمت: ما جدوى العلو إذا كانت الأرواح تنحدر في الاتجاه المعاكس؟

في المساء، بدأ الانزلاق الأول.

في مقهى الفندق، كان الدخان كثيفاً كأنه لغة موازية يتفاهم بها الآخرون.. , حيدر انخرط فيه بسهولة، سجائر ونرجيلة وضحكات متقطعة.. , أما

عـارف فكـان يتعامـل مـع الـدخان كعـدو غيـر مرئـي، كـأن كـل نفـسٍ منـه خيانـة صغيرة لجسده.

هناك رأى المرأة.

كانـت فـي السـتين تقريبـاً، ملامحهـا أنيقـة علـى نحـو موجـع، ترتـدي السـواد كأنهـا فـي حـداد طويـل علـى حيـاة لـم تُنصـفها.. , اقتربـت مـن حيـدر مباشـرة، تجاهلت عارف كأنه غير مُدرج في المشهد، ظل زائد عن حاجة الحكاية.

اسـمها نـوال، مهندسـة متقاعـدة مـن كركـوك، أرملـة تعـيش نصـفها فـي ذاكـرة لا تنتهي، ونصفها الآخر في انتظار لا يأتي.

جلسـت مـع حيـدر كمـن وجـد فجـأة نافـذة فـي جـدار مغلـق.. , ضـحكت.. , دخنـت.. , واسـتعادت شـيئاً لا يمكـن تسـميته بسـهولة: شـباباً مـؤجلاً، أو وهمـاً مؤقتاً بالعودة إلى زمن لم يعد موجوداً.

غـادر عـارف المقهـى دون احتجـاج.. , كـان يهـرب مـن الـدخان، نعـم، لكنـه كـان يهـرب أيضـاً مـن سـؤال آخـر أكثـر قسـوة: لمـاذا يبـدو البشـر أكثـر اسـتعداداً للحيـاة حـين يجـدون مـن يشـاركهم وحـدتهم، حتـى لـو كـان ذلـك المشاركة عابرة ومشوشة؟

فـي اليـوم التـالي، أخبـره حيـدر ببسـاطة أن نـوال دعتـه إلـى الغـداء.. , لـم يقـل إنـه وافـق، بـل قـال إنـه "لـم يسـتطع الـرفض".. , كانـت العبـارة كافيـة لتلخيص كل شيء: الإنسان لا يختار بقدر ما يُدفع بلطف نحو خياراته.

خـلال أيـام قليلـة، تآكلـت المسـافة بـين الاثنـين.. , الغـداء صـار لقـاءات، واللقـاءات صـارت انزلاقـاً هادئـاً نحـو علاقـة لا تحتـاج تعريفـاً.. , وفـي مسـاء قبـل مغـادرة طهـران، قـال حيـدر بـلا مقـدّمات إنـه أقـام علاقـة جسـدية مـع نوال.

لم ينفجر عارف.. , سكت فقط.

لم تكن الصدمة في الفعل، بل في بساطته.. , كأن الجسد أصبح أسرع لغة ممكنة حين تفشل كل اللغات الأخرى.. , كأن الرغبة اختصرت الطريق على حساب كل ما يُفترض أنه إنساني: التردد، المعنى، الذاكرة.

في مدينة قم ، وعند محطة دينية مزدحمة، افترقا.. , نوال قالت إنها ستغادر مبكراً.. , و عارف لم يصدقها، لكنه لم يسأل.. , كان يرى في عينيها ما يشبه الهروب من شيء لا يُقال.

ثم جاء القطار.

سبع عشرة ساعة من العزلة داخل مقصورة تضيق تدريجياً.. ؛ حيدر يدخن.. , رجل آخر من الوفد يدخن.. , والدخان يتكاثر حتى يصبح الهواء فكرة غير قابلة للتنفس.

عارف كان يصعد إلى السرير العلوي كمن يهرب من العالم.. , يفتح النافذة فينهشه البرد.. , يغلقها فيخنقه الدخان.. , وبين الاثنين، لم يعد هناك فرق حقيقي بين الألمين.

بدأ صدره يتحول إلى مساحة غريبة، لا يدخلها الهواء ولا يخرج منها.. , شيء ما في الداخل كان يتعفن بهدوء.. , ثم انطفأ.

استيقظ في مستشفى بمدينة مشهد.

أبيض.. , صامت.. , نظيف أكثر من اللازم.

حيدر عن يمينه.. , الرجل الآخر عن يساره.. , باقة ورد على الطاولة كأنها محاولة متأخرة لتجميل حادثة لم تُفهم بعد.

ابتسموا حين فتح عينيه.. , وبعد أن خرجت الممرضة، عاد الدخان.

لم يسأله أحد إن كان يتحسن.. , لم يفكر أحد بإطفاء السيجارة.

في تلك اللحظة، أدرك عارف شيئاً أبعد من الاختناق نفسه: أن البشر لا يتخلّون بسهولة عن أذاهم، حتى حين يتحول هذا الأذى إلى خطر واضح.. ؛ ليس لأنهم أشرار، بل لأن التغيير أثقل من الألم، وأكثر كلفة من الاعتذار.

أغمض عينيه.

هذه المرة لم يكن الدخان هو السبب وحده.

كان السبب أنه فهم متأخراً أن أخطر ما في الرحلة لم يكن الثلج في الخارج، ولا الدخان في الداخل، بل الإنسان حين يعتاد ألا يرى غيره وهو يختنق بجانبه.

وفي مكان بعيد، كان برج ميلاد ما يزال واقفاً، يشير إلى السماء كأنه يسأل سؤالاً لا إجابة له:

هل يصعد الإنسان حقاً... أم أن كل صعوده مجرد دخان، يتكاثف لحظة ثم يذوب في هواء لا ذاكرة له؟

بين الأجرة والرحمة (٥٨)

لم يكن تموز في بغداد شهرًا...؛ بل كائنًا ناريًا يزحف على الإسفلت ويختبر صبر الأحياء.

الساعة تقترب من الثالثة، والمدينة تبدو كأنها تُسحب من حلقها ببطء.

محمد يقود سيارته كمن يجرّ يومه من طرفه الأخير.

لا موسيقى، لا حديث، فقط صوت المكيّف المتعب وصوت داخلي لا يصمت:

"فواتير... مدرسة... كهرباء... طفلة تريد لعبة... وزوجة تريد أن لا تنهار."

يرى الناس ولا يراهم.

أجساد تتحرك على الرصيف كإشارات مرور بشرية: توقف... امضِ... لا أحد يلوّح له.

ثم حدث ما يشبه "الخطأ" في نظام يومه.

فتاة.

تقف وحدها، حقيبتان أكبر من كتفيها، وعباءة سوداء لا تخفي هشاشة جسدٍ لم يكتمل بعد.

رفعت يدها بخجل، كأنها تعتذر مسبقًا عن وجودها.

توقف.

لا يعرف لماذا.

ربما لأن اليد لم تكن طلبًا فقط... بل استغاثة مؤدبة.

— إلى أين؟

— المنصور... كم الأجرة؟

— اثنا عشر دينار.

— عندي عشرة فقط.

صمت لحظة.

ثم قال كمن يوقع على شيء لا يفهمه:

ـــ اركبي.

في اللحظة التي أُغلِق فيها الباب، تغيّر الهواء داخل السيارة.

لم تعد هناك مدينة... , بل مساحة صغيرة مغلقة على احتمال مجهول.

محمد (بنبرة شبه أبوية، لكن مرتبكة):

ـــ إنتِ منو؟ وين أهلك؟ ليش وحدچ بهالحر؟

الفتاة تحدق في الشارع عبر الزجاج، كأنها تبحث عن نسخة أقدم منها تهرب معها.

صمت.

ثم فجأة... انهارت.

ليس بكاءً عادياً.

كان كأن شيئًا انكسر منذ زمن وقرر الآن فقط أن يُسمِع صوته.

ـــ عمو... لا تظن بي سوء... والله وثقت بيك.

ارتبك.

يده على المقود صارت أثقل من السيارة كلها.

ـــ احچي... أنا أعتبرچ بنتي.

وهنا بدأت الحكاية تنكشف، لكن ليس كقصة... بل كجرح يتكلم.

ـــ اسمي حوراء... ١٥ سنة.

أهلي عايشين بمنطقة راقية ... بس البيت مو زين.

أبوي غني... بس ما يحبني.

تضحك ضحكة قصيرة مليئة بالدموع لكنها بلا معنى.

— ما يحبني، مو يعني يكرهني بس... يعني يشوفني غلط.

تواصل، وكأنها كانت تحفظ الجملة منذ سنوات:

— يصرخ، يذل، يقارنني، وأمي... أمي ساكتة.

وأنا تعبت.

قلت أهرب... يمكن أعيش مثل البشر.

محمد يضغط على المكابح الداخلية في صدره قبل السيارة.

— يا بنتي... الشارع مو بديل.

الشارع مو حرية... الشارع فخ.

يصمت لحظة، ثم يخرج الكلام كأنه ينزف:

— إنتِ فاكرة الهروب بداية؟ لا...

الهروب إذا دخلتيه بدون سند، يصير طريق ما له رجعة.

الفتاة ترفع رأسها لأول مرة:

— يعني أرجع أعيش مكسورة؟

يهتز صوته:

— مكسورة داخل بيت... أهون من مكسورة برا.

برا ماكو أحد يسأل إذا إنتِ موجوعة أو ضايعة.

ثم، وكأنه يرى ابنته فيها:

— هنا ماكو رحمة مجانية.

هنا الناس مو كلهم ناس.

صمت طويل.

المدينة تمر بجانبهم كفيلم لا يهتم بالشخصيات.

فجأة، بصوت منخفض:

— عمو... خذني وياك.. , أخاف يرجعوني وأموت.

شدّ على المقود.

هذا هو الامتحان الحقيقي الآن، لا الطريق.

— لا.

ما أگدر.

إذا أخذتچ، أكون أبدلت خطر بخطر.

تبدأ بالبكاء من جديد، لكن هذه المرة بلا صوت تقريبًا.

ثم يقول، وكأنه يقرر عن العالم كله:

— نرجع.

السيارة تدور.

ليس انعطافًا... بل اعترافًا.

أمام البيت، كان الأب ينتظر، وجهه خليط بين القلق والغضب.

الحقائب تُنزل.

والصمت أثقل من أي شرح.

محمد يتكلم، لكن ليس كرجل ينصح... بل كرجل خسر هدوءه:

— هاي بنتك. مو لعبة.

أنت مسؤول عنها قدام ربك قبل الناس.

الأب يحاول الدفاع، يبرر، يعلو صوته... ثم ينكسر صوته فجأة أمام ثقل اللحظة.

محمد لا ينتظر النهاية.

يركب سيارته.

لكن شيئًا فيه لم يعد كما كان.

في البيت، يفتح الباب.

طفلته تركض نحوه.

يحملها بسرعة غير معتادة، كأنه يتأكد أنها ما زالت موجودة، حقيقية، لم تهرب.

تضحك.

وهو... لأول مرة منذ زمن لا يُحصى، لا يفكر في الدنانير.

يفكر فقط في معنى بسيط وخطير:

أن تبقى إنسانًا... في مدينة تحاول كل يوم أن تنزع هذا منك.

بوابةٌ تُفضي إلى الوطن (٥٩)

مضــت عشــرةُ أعــوامٍ علــى هــلاكِ الطاغيــة ... ؛ ومــع ذلــك أفقــتُ مــن نــومي فَزِعًــا، كــأنّ الرعــبَ لــم يغــادر جســدي منــذ تلــك الأيــام الدمويــة الســوداء ... ؛ رأيــتُ فــي المنــام أنّــي أســير فــي أرضٍ جــرداء موحلــة، موحشــةٍ كأغلــب أراضــي العــراق يــوم كــان الظــلُّ أثقــل مــن الشــمس، والخــوفُ أقــربَ إلــى النـــاس مـــن أنفاســـهم... . كنـــتُ أمشـــي ومعـــي أبـــي، وابنـــي الصـــغير ســـيف، ورجـــلٌ رابـــع طويـــل القامـــة، يرتـــدي دشداشـــةً بيضـــاء، لا أعرفـــه، أو لعلّـــي عرفته ثم أنكرته خشيةَ أن أحمّله ما لا يحتمل من الذاكرة ... .

كنّــا نمشــي بوجــلٍ وحــذر، نُصــغي لوقــع أقــدامنا كأنّهــا وشــاية، ونلتفــت إلــى الظــلال كأنّهــا عيــون... ؛ وفجــأةً نظرنــا جميعًــا إلــى جهــةٍ بعيــدة عــن يســارنا، فـــإذا بالطاغيـــة صـــدام جـــالسٌ علـــى كرســـيٍّ مرتفـــع، وخلفـــه وحولـــه حـــرسٌ كـــأنّهم زبانيـــةُ نـــار، يتربّصـــون بالمـــارة، يرمقـــونهم بنظـــرات الـــذئاب الجائعـــة والضباع المتوحّشة ... .

ولا أدري كيــف حــدث ذلــك، لكــن اثنــين منــا رفعــا أيــديهما لا إراديًــا بالســلام العـــادي الـــذي يتبادلـــه النـــاس: "الســـلام علـــيكم"... ؛ نعـــم , تجمّـــد الـــدم فـــي عروقـــي، لكـــنّ يـــدين مـــن بيننـــا — لا أدري أكانـــت يـــداي أم يـــدا أبـــي أم يـــدا الرجـــل الغريـــب — ارتفعتـــا بـــلا إرادة، تُلقيـــان الســـلام كمـــا يفعـــل النـــاس بعضهم لبعض... .

كـــان ســـلامًا خـــرج مـــن أفواهنـــا علـــى اســـتحياء، كأنّـــه يبحـــث عـــن عـــذرٍ قبـــل أن يبلـــغ مســـامعه... ؛ ســـلمنا علـــى الطاغيـــة وواصـــلنا الســـير دون توقـــف... ؛ كـــان يـــدخن ســـيجارة جـــرود كوبيـــة ، أمـــا هـــو وزبانيتـــه فلـــم يـــردوا الســـلام... ؛ أعـــدنا الســـلام مـــرّةً أخـــرى، وكأنّنـــا نســـتجدي مـــن الكلمـــات نجـــاةً، لكـــنّ الصـــمت كان أثقل من الإساءة... .

فـــإذا بالصـــمت ذاتـــه يخـــيم علـــيهم، مـــع أن رد الســـلام واجـــب فـــي ديننـــا ... ؛ وهـــذا الامـــر أكـــد لنـــا صـــدق حقيقـــة جـــذورهم الغريبـــة عـــن هـــذه الارض الطاهرة ... .

لا أعــرف مَــن مِنَّــا الأربعــة بــادر بالســلام عليــه، ولا أعــرف لمــاذا... ؛ هــل كان ذلك من باب التقية وحقنًا للدماء؟

أم لأننا لم نتبين ملامحه في البداية؟

أم لأن السلام عادة العرب والعراقيين؟

كــلّ مــا أعلمــه يقينًــا أنّنــا كنّــا نكرهــه كرهًــا لا يوصــف، نحــن الأربعــة، بــلا اســتثناء؛ حتــى ابنــي الصــغير ســيف، الــذي لــم يعــرف مــن الــدنيا إلا ظــلّ الخــوف، كــان يحمــل فــي عينيــه نفــورًا لا تخطئــه الفطــرة... ؛ حتــى الرجــل لغريــب — أو الــذي نســيتُ اســمه — كــان يشــيح بوجهــه كأنّــه يخشــى أن تفضحه النظرة .... .

شــعر الطاغيــة بمــا فــي صــدورنا... ؛ ورأى الكراهيــة والحقــد فــي عيوننــا كمــا رأينا نحن الجحيم والحقد في نظراته الحادة ... .

واصــلنا الســير حتــى بلغنــا ســاحةً واســعةً محاطــةً بســياجٍ خرســانيٍّ عــالٍ، يشــبه عــوازل الســجون والمعــتقلات... ؛ كــانوا يســمونه "الكــراج"، إذ مــن المفتــرض أن تقــف فيــه ســياراتُ الأجــرة لتنقــل النــاس إلــى وجهــاتهم، لكنّــه كــان خاليًــا إلا مــن ثــلاث ســياراتٍ صــغيرةٍ متهالكــة ... ؛ امــا بقيــة الســيارات فكانــت خارجــه ؛ نراهــا مــن خــلال فتحــات صــغيرة فــي الجــدار تشــبه فتحــات الزنزانات...!!

نظرنــا مــن خــلال تلــك الفتحــات الضــيقة المتســخة بالغبــار و(الصــخام) فرأينــا رجــالًا يزعمــون أنّهــم ســائقون، لكــنّ وجــوههم كانــت تــوحي بالريبــة وعــدم الاطمئنــان ؛ عيــونهم تلمــع بفضــول الجواســيس... ؛ يراقبــون المــارّة والمســافرين كمــا يفعــل رجــال الأمــن، وكــأنّ المهنــة الحقيقيــة ليســت نقــل النــاس، بــل نقــل أخبــارهم ... ؛ كــان معظــم مــن يــدّعون أنهــم ســائقو تلــك الســيارات مــن الهمــج الرعــاع، مــن أبنــاء المنــاطق الهجينــة وشــذاذ الافــاق ... ؛ ممــن يطيعــون الطاغيــة طاعــة عميــاء ويحملــون فــي صــدورهم حقــدًا دفينًــا على العراقيين الأحرار والاصلاء...!!

ثم سرنا نحو وسط الساحة... ؛ وكلّ خطوةٍ كانت امتحانًا... ؛ وفجأة سمعنا مناديًا ينادي من خلفنا... ؛حسبناه نذير شؤم، ومبعوث الطاغية... ؛ في داخلنا سلّمنا أمرنا لله، وتهيّأنا نفسيًّا لبلاءٍ لا يُرد...، التفتنا... ؛ لكن المنادي لم يكن سوى جارنا وقريبنا "أبو علي"، ومعه مجموعة من الرجال يرتدون الدشاديش البيضاء والعُقل فوق الكوفيات... ؛ بعد تبادل السلام، وكان في صوته رجفةُ من نجا لتوّه من موتٍ محقّق... .

أخبرنا أبو علي أنه نجا هو وآخرون بأعجوبة، فقد حاول الطاغية اغتصاب طفلتين صغيرتين، لكن الله نجاهما ونجانا جميعًا من شره، فأفلتنا من قبضته الحديدية في لحظةٍ لم يحتسبها... لم يُكمل حديثه حتى ودّعناه، كأنّنا نخشى أن يطول بنا الوقوف فنُرصد من جديد... ؛ سرنا مسرعين، فإذا ببوّابةٍ كبيرةٍ عتيقة، تشبه بوابات المساجد العباسية، تنفتح في أحد الجدران الخرسانية الصمّاء... دخلنا فيها ... ؛ ثم خرجنا منها ... .

لكنّنا لم نخرج إلى ساحةٍ أخرى، بل إلى سجنٍ أكبر؛ سجنٍ كان يُسمّى يومها : الوطن ...!!

غير أنّ المفارقة أنّنا، ما إن تجاوزنا تلك البوابة، شعرنا بالأمان؛ كأنّ الخلاص لم يكن في اتّساع المكان، بل في البعد عن عين الطاغية ... ؛ فقد كنا في مأمن من الطاغية وزبانيته ...!!

استيقظت وأنا ألهث ... ؛ عندها : أدركتُ أنّ الطغاة يموتون مرّةً في التاريخ، لكنّهم يموتون ألف مرّةٍ في أحلام من عاشوا تحت ظلالهم... ؛ وأنّ الوطن، مهما ضاق، يبقى أرحم من كرسيٍّ يجلس عليه مستبدّ، يظنّ أنّ الصمت طاعة، وأنّ السلام خضوع...

بوابة الغواصة (٦٠)

في البدء كانت الفوضى... ؛ وفي الفوضى كان خالد يبحث عن شكلٍ لروحه المثقوبة بالرصاص المنتظر.

الدخان يخرج من البيوت المهدّمة مثل أرواحٍ ضلّت الطريق إلى القيامة، والرصاص يمرّ فوق الرؤوس بصفيرٍ يشبه ضحك الشياطين.

لم يكن خالد يؤمن بالنجاة.

كان يؤمن فقط بأن الموت يتأخر أحياناً، مثل قطارٍ صدئٍ يضيع بين المحطات.

في معركة قضاء الكرمة، عام ٢٠١٤، كانت السماء أقرب إلى فوهة بندقية منها إلى سماء.

التراب ساخناً كأن الجحيم يتنفس من تحته، والرصاص يعبر فوق الرؤوس مثل أسراب غربان معدنية , كان سقف الموضع العسكري منخفضا كأنه سقف تابوت .

اختبأ خالد خلف ساترٍ ترابي، واضعاً جبهته على كفه المرتجفة.

لم يكن خائفاً من الموت بقدر خوفه من أن يموت دون أن يفهم لماذا عاش كل هذا العناء.

همس:

ـــ الله لا إله إلا هو الحي القيوم...

قرأ آية الكرسي مرة.

ثم ثانية.

ثم ثالثة.

كان ينفث عن يمينه ويساره، أمامه وخلفه، فوقه وتحته كأنه يبني حول نفسه قفصًا من نور ، كما أوصاه الشيخ العجوز قبل خمسة عشر عاماً في مدينة النجف الاشرف .

تذكر وجه السيد علي الكفائي؛ التجاعيد التي كانت تبدو كخرائط أنهكتها القرون، والصوت الهادئ الذي يشبه ماءً قديماً يجري داخل بئر.

ـــ يا بني... الإنسان لا ينجو بالقوة وحدها.. , أحياناً تنقذك الفكرة والعقيدة التي تؤمن بها أكثر مما ينقذك السلاح.

حينها كان خالد شاباً هارباً من الجيش الصدامي، يحمل خوفه مثل حقيبة سوداء لا يستطيع رميها.

أما الآن، فقد صار يحمل بندقية وخرائط عسكرية وأسماء موتى كثيرين..

كان خالد ملتصقًا بساترٍ ترابيّ مبتلٍّ بعرق الجنود والدم... ؛ إلى جواره جاسم يلوك سيجارته بعصبية، بينما القنّاص في الجهة المقابلة يحصد الظلال.

رفع جاسم رأسه من المتراس وقال ضاحكاً:

ـــ إذا متنا اليوم... سأرفع دعوى على الله لأن الإجازة لم تصدر بعد.

ابتسم خالد نصف ابتسامة.

وفي اللحظة التالية، اخترقت رصاصة القناص رأس جاسم لتستقر في جمجمته كما تستقر الحقيقة في قلبٍ لم يطلبها .

تراجع جسد جاسم إلى الخلف ببطء غريب، ثم سقط في حضن التراب، بينما بقيت عيناه مفتوحتين بدهشة طفلٍ اكتشف أن العالم يكذب.

سقط جسده بلا صوت تقريباً.

الغريب أن الموت صامت دائماً، أما الحياة فهي التي تصرخ.

ألقى خالد بجسده إلى الأرض كما يلقي المرء بعباءةٍ بالية , والتصق بالتراب حتى شعر أنه يريد الدخول فيه، كأن الأرض أم ثانية.

سقط لا من خوف، بل من تلك اللحظة الفارقة التي تسبق الموت بجزءٍ من الثانية، حين ينقسم الزمن إلى ما قبل الرصاصة وما بعدها.

"آية الكرسي..." همس وهو يلعق التراب... ؛ "اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ..."

قرأها ست مرات... ؛ لا لأنه يؤمن بالعدد، بل لأن العالم من حوله كان ينهار في ست جهات: شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وفوقاً وتحتاً... ؛ وكان الموت يأتي من كل الجهات معاً، كحبٍّ قديمٍ عاد ليأخذ ما نسيه.

في الليل، ظل ينظر إلى خوذة جاسم الملقاة قرب الساتر.

كانت ممتلئة بالدم والمطر.

وقال في نفسه:

«لماذا يختار الموت شخصاً ويترك آخر؟

هل المسألة حكمة؟

أم صدفة عمياء؟!»

استمرت المعارك الطاحنة عشرة أيام.

عشرة أيام كان الليل فيها أطول من التاريخ، وكانت الجثث تُسحب مثل أكياس رمل.

ثم جاءت فصائل المقاومة الاسلامية , ومجاميع المتطوعين الشجعان ؛ لتحلّ محل القوات الاتحادية، وانسحبت الوحدة العسكرية .

وبعد عشرة ايام ؛ عاد خالد إلى بغداد بإجازة قصيرة ، شعر أن المدينة ليست مدينة، بل امرأة عجوز أنهكها البكاء.

حين دخل البيت، شعر كأنه عبر من مقبرة إلى رحم.

رائحة الطعام.

صوت المكيف.

صحن الرز والفاصوليا.

يد أمه وهي تضع قطعة الدجاج في صحنه بصمت يشبه الصلاة.

تناول الطعام ببطء، كما لو أنه يتذوق الحياة نفسها.

في الحرب، يأكل الإنسان كي لا يموت.

أما في البيت، فهو يأكل لأنه يتذكر أنه إنسان.

كان يتأمل اطباق الطعام وكأنه يتأمل معنى البيت.

قالت له أمّه:

ـــ لماذا تنظر إلى الصحون هكذا؟

ابتسم بحزن:

ـــ لأن الذي يرى الموت كثيرًا... يتعلّق بالأشياء الصغيرة.

شرب الشاي المهيل، ثم دخل الى الحمام .

أخذ الليفة، ودلك جسده بعنف، كأنه يريد أن ينزع الحرب عن جلده.

كان الصابون التركي الفاخر يملأ المكان بالأريج ، لكنّه ظل يشعر أن رائحة البارود ما زالت تسكن أصابعه.

وقف طويلًا تحت الماء.

همس لنفسه:

ـــ كم جثة تحتاج الروح كي تشيخ؟

ثم نام تحت هواء المبرّدة كميتٍ نجا مؤقتًا من المقبرة.

ثم خرج إلى شارع الربيعي في حي زيونة الراقي .

كان يمشي بين مكاتب السياحة والسفر كمن يبحث عن منفذٍ سري للهروب من ذاكرته.

وحين دخل شركة القمة للسياحة والسفر ، شعر بشيء يشبه الطمأنينة.

الموظف مروان ناوله قطعة حلوى وسأله بابتسامة:

ـــ إلى أين ترغب بالسفر؟

أجاب خالد بعد صمت قصير:

ـــ إلى جورجيا .

بعد يومين، كان في مطار بغداد.

هناك شيء يشبه الخلاص في المطارات.

الناس لا تسافر فقط من بلدٍ إلى بلد، بل من نسخةٍ إلى نسخة أخرى من أنفسهم.

في الطائرة، كان خالد ينظر من النافذة.

تحت الغيوم اختفى العراق.

شعر لوهلة أن الحروب مجرد حلمٍ سيئ.

لكن الإنسان يحمل بلاده داخله، حتى لو عبر المحيطات.

وحين وصلوا تبليسي، بدا له العالم مختلفاً بصورة مغايرة تماما .

الناس يضحكون بلا خوف.

المقاهي مليئة بالعشاق.

العجائز يمشون ببطء وكرامة، لا كمن ينتظر موته عند باب الجامع.

النساء يمشين بخفةٍ لا تعرف معنى التفجيرات او التحرش الجنسي .

في تبليسي، كانت الشوارع نظيفة بصورة تثير الاسترخاء .

الأشجار والزهور متسقة وجميلة .

حتى مركز الشرطة كان يبدو مكانًا جميلًا، تحيط به الورود من كل جانب، أشبه بـ«آرت ستوديو» هادئ أكثر من كونه مركزًا أمنيًا...!!

بلغت نسبة الجريمة حدّ الصفر، رغم ما عصف بالبلاد من هزّات وانتكاسات واضطرابات، ورغم خوضها حربًا غير متكافئة مع روسيا ؛ ومع ذلك ظلّ المجتمع وديعًا، مدنيًا، ومفعمًا بروح السلام، كأنّ الخراب كان يمرّ من فوقه دون أن ينجح في تلويث إنسانيته.

في تبليسي، حيث نهر كورا يمزق المدينة إلى نصفين كما يمزق الحنين صدر المغترب، جلس خالد على الضفة حاملاً قنينة الويسكي... ؛ كانت الليلة الأولى له خارج العراق.. ؛ خارج الخوف.. ؛ خارج نفسه.

جلس قرب ضفاف النهر ، يحتسي كأساً صغيرة بينما يراقب شيخاً جورجياً طاعناً في السن يصطاد السمك.

كان البرد قاسيًا، لكن الشيخ الجورجي العجوز ظل واقفًا يصطاد السمك.

تجاوز المئة من عمره، ومع ذلك بدا أكثر حياة من شباب بغداد.

كان الراديو الصغير قربه يبث موسيقى قديمة، والريح تعبث بمعطفه البني.

كان الشيخ الجورجي الذي يصطاد السمك في الليل يشبه سؤالاً فلسفياً معلقاً بين الماء والسماء... ؛ يدان مرتعشتان تمسكان بسنارة، وعينان تحدقان في العدم كما لو كانتا تقرآن كتاباً لم يُكتب بعد... ؛ مئة عام من العمر، ومع ذلك يقف كشجرة بلوط عتيقة تأبى أن تسقط، لا عناداً، بل لأن السقوط لم يكن يوماً خياراً مطروحاً على جدول أعمالها.

"كيف تفعلها؟" سأل خالد نفسه، أو ربما سأل الشيخ من بعيد ، أو ربما سأل النهر الذي يجري دون أن يجيب.

رفع الشيخ رأسه ببطء، كما يرفع البحر رأسه ليلتقي بالقمر، وابتسم ابتسامة من عرف أن الحياة ليست في البقاء، بل في طريقة النظر إلى ما يبقى.

تأمله خالد طويلاً.

ثم تذكر رجالاً في بغداد كانوا يشيخون في الثلاثين.

هناك، في العراق، كان الزمن يأكل الناس بسرعة.

الحروب، الخوف، القمع , الظلم , الفساد , العقائد الثقيلة، الرؤى الطوباوية والسوداوية , الفقر، الحصار، الخسارات , الامراض , العقد النفسية والاجتماعية , المشاكل , الصراعات ...

كلها كانت تطحن الروح قبل الجسد.

أما هذا الشيخ، فكان يشرب البيرة ويبتسم للماء وكأن الحياة ما تزال تستحق التأمل.

تذكر خالد جاره عيسى. كان عيسى يغني دائماً: "عمر واتعدى الثلاثين لا يا فلان..." بصوتٍ يشبه نحيب المآذن في ايام عاشوراء ... ؛ وتذكر سيد سلمان الذي ما إن بلغ الاربعين حتى حلق شعره ولبس (العرقجينة) وانحنى ظهره كأنه يحمل على كتفيه كل موتى العراق.

تــذكّر رجــالًا فــي العــراق يموتــون وهــم أحيــاء... ؛ يموتــون فــي الثلاثــين ولــو تنفســت رئــاتهم حتــى الســبعين... ؛ يموتــون حــين يتوقفــون عــن الرغبــة... ؛ يموتــون حــين يصــبح الأمــس أكثــر حضــوراً مــن الغــد... ؛ يموتــون حــين تتحول أحلامهم إلى ذكريات قبل أن تُعاش.

رجــالًا يبلغــون الثلاثــين فيتحولــون إلــى كائنــات منهكــة، يطــوون ظهــورهم تحت ثقل الدين والخوف والفقر والسلطة والعادات.

أمــا هــذا الشــيخ الجــورجي ، فكــان يمــارس الحــب مــع الحيــاة فــي كــل لحظــة... ؛ يلامــس النهــر بأصــابعه كمــا يلامــس عاشــق جســد معشــوقته... ؛ يشــرب البيــرة الجورجيــة الطازجــة كأنهــا رشــفة أولــى مــن نهــر النســيان... ؛ يســتمع إلــى الموســيقى الهادئــة مــن راديــو قــديم، كــأن الــزمن لــم يخنــه، بــل خانــه هــو... ؛ فكأنه يقف في مواجهة الفناء كجنديّ أخير.

قال خالد لنفسه:

«ربمــا الشــيخوخة ليســت فــي العمــر ولا فــي الجســد بــل فــي الــروح ... ؛ و فــي مقدار ما خسرناه من دهشتنا.»

وفــي الليلــة الثالثــة , أو ربمــا الرابعــة -(فــالزمن فــي المنفــى يــذوب كالســكر فــي الشــاي)-، دخــل خالــد ذلــك الملهــى الليلــي... , لــيس بحثــاً عــن المتعــة فقــط ، بــل هربــاً مــن الفــراغ. ؛ بــاب فــولاذي أســود يشــبه بوابــة غواصــة، وفــي وســطه (جامــة) زجاجــة ســميكة تحــدق فــي الــداخل كمــا تحــدق عــين القــدر فــي مســتقبل لم يتشكل بعد.

كــان الجــو فــي الــداخل مختلفــاً... ؛ الأضــواء الحمــراء والزرقــاء والصــفراء كانــت تتــراقص فــوق الوجــوه مثــل أحــلام العصــافير ... ؛ الموســيقى تهــز الجــدران، والنســاء الحســناوات يتحــركن بخفــة كــأن أجســادهن لا تعــرف ثقــل الحروب.

كــان مختلفــاً لأن لا أحــد هنــا يحمــل آيــة الكرســي فــي جيبــه... ؛ لا أحــد هنــا يقــرأ التعويــذات قبــل النــوم... ؛ لا أحــد هنــا يهــرب مــن المــوت لأنــه ببســاطة لــم يتعلم بعد أن الموت يطارده.

راقــب خالــد راقصــة التعــري وهــي تصــعد الأنبــوب الحديــدي... ؛ جســدها كــان يرتفــع كمــا يرتفــع الــدخان مــن فوهــة الحــرب... ؛ كانــت تنــزع ملابســها قطعــة قطعــة، وفــي كــل قطعــة تســقط، كــان يســقط معهــا جــزء مــن خالــد القــديم... ؛ لــيس شــهوة مــا كــان يشــعر بــه، بــل تفكــك , تفكــك الــذات التــي بناهــا الخــوف.. , تفكــك الرجــل الــذي تعلــم أن الحيــاة خطــر، وأن الجــنس خطيئــة، وأن الفرح مؤامرة.

شعر خالد بالارتباك.

كان جسده يريد شيئاً، وروحه تريد شيئاً آخر.

كل شيء هناك كان يشبه محاولة جماعية لنسيان الموت.

جلس يراقب الوجوه.

بعضهم يضحك لأنه سعيد.

وبعضهم يضحك لأنه محطم.

ثــم اقتربــت منــه فتــاة جورجيــة ذات عينــين بلــون الشــتاء.. , شــعرها الأشــقر ينساب على كتفيها كحكاية جميلة تروى ببطء.

كانت تمشي بثقة من يعرف أثره على الآخرين.

ابتســمت لــه ابتســامة خفيفــة، لكنهــا لــم تكــن ابتســامة إغــواء بقــدر مــا كانــت ابتسامة شخص يعرف الوحدة.

جلسا معاً طويلاً.

تحدثا بلغة إنكليزية (مكسرة)، وإشارات، وصمت.

حين أمسك يدها، شعر بحرارتها الإنسانية أكثر من أي شيء آخر.

ولأول مرة أدرك أن الجسد ليس مجرد شهوة فحسب ؛ أحياناً يكون محاولة يائسة لإثبات أننا ما زلنا أحياء ... ؛ وإننا نعيش في ظلال رعايةٍ دافئة واهتمامٍ يفيض عنايةً واحتواءً.

تبعها إلى غرفة رقم ٣.. , الرقم الذي يرمز إلى الثالوث المقدس، وإلى الأبعاد الثلاثة، وإلى مراحل الحياة: الولادة والحب والموت.

عندما نزعت ملابسها ببطء، كان خالد قد نزع ملابسه بسرعة... ؛ ليس لأنه مستعجل، بل لأن جسده كان متلهفاً ليتخلص من جلده القديم.

كان واقفاً أمامها عارياً، ليس فقط من ملابسه، بل من تاريخه.. , من الحروب.. , من الموت.. , من آية الكرسي التي لا يزال صداها يرن في أذنيه.

"أنت جميل..." قالت بالإنجليزية المكسرة، وأشارت إلى قضيبه المنتصب... ؛ ابتسم خالد ابتسامة حقيقية لأول مرة منذ شهور طويلة .

ليست ابتسامة الانتصار، بل ابتسامة الاعتراف.. , اعتراف بأن الجسد له لغته، وأن اللغة لا تحتاج إلى ترجمة، وأن الترجمة تخون المعنى.

عندما وضعته في فمها، شعر أن العالم كله يتوقف.. , لا حرب.. , لا موت.. , لا آية كرسي.. , لا سيد علي الكفائي .. , لا نهر دجلة ولا نهر الفرات.. ؛ فقط هذا الفم الدافئ الذي يمتص منه ليس فقط رغبته، بل خوفه أيضاً.

قبلها من فمها بعد ذلك.. , كانت قبلتها تشبه مصالحة بين جسدين تعلم كل منهما أن الآخر هارب من شيء ما.. , طعم فمها كان طعم الحرية.. , ليس حرية الجنس، بل حرية أن تكون بلا ماضٍ.. , أن تكون لحظة فقط.. , أن تكون الآن وهنا.

وعندما مارس معها، لم يكن يمارس الجنس فقط.. , كان يمارس العودة إلى الجنة التي طُرد منها آدم.. , كان يمارس التمرد على كل المحرمات والممنوعات .. , كان يمارس الحياة في وجه الموت.

كانت المرة الأولى في حياته التي لا يفكر فيها أثناء الجنس.. , لا يفكر في الدين.. , لا في الأخلاق.. , لا في المجتمع.. , لا في أمه التي تنتظره في بغداد.

كان حاضراً بكليته، كما لم يحضر في أي مكان آخر.. , حتى في الحرب، حين كان الموت يحيط به، كان يفكر في النجاة.. ؛ أما هنا، في هذا الجسد الأنثوي الذي يستقبله كما تستقبل الأرض المطر، فلم يكن يفكر في شيء.

كانت تعرف ماذا تفعل.. , ليست كالعاهرات في بغداد، ولا كالزوجات الخجولات اللواتي يمارسن الجنس كواجب.. ؛ كانت تمارسه كفن.. , كشعر.. , كموسيقى.. , جسدها كان يعزف سيمفونية لم يسمعها خالد من قبل، وكل خلية فيه كانت تستمع.

في الذروة، بكى...

لم تفهم هي لماذا يبكي، فربتت على كتفه بحنان.. , لكنه كان يبكي لأنه أدرك شيئاً مرعباً: أنه كان ميتاً طوال هذه السنوات.. , و أن آية الكرسي لم تكن تنقذه من الموت، بل كانت تؤجل موته فقط.. ؛ أما هنا، في هذه اللحظة، فقد عاد إلى الحياة.. , ليس لأنه مارس الجنس، بل لأنه شعر.. ؛ شعر بدمه يجري.. , شعر بقلبه ينبض.. , شعر بجلده يرتعش تحت أصابعها.. , شعر بأنه لا يزال إنساناً.

في تلك الليلة، لم تكن اللذة هي الحدث الحقيقي.

بل الهروب.

الهروب من صور الجثث.

من رأس جاسم المفتوح.

من رائحة الدم التي التصقت بذاكرته.

طوال الرحلة، لم يخرج مع أعضاء الكروب السياحي.. , لم يزر المتاحف ولا الكنائس ولا الجبال.. , كان كل ما يريده موجوداً في تلك الغرفة رقم ٣.. , في جسد تلك المرأة التي صارت بالنسبة له وطناً بديلاً.. ؛ وطناً لا يحتاج إلى تأشيرة دخول.

كانت كماء البحر.. ؛ كلما شرب منه، ازداد عطشاً.. , وكلما ازداد عطشاً، شرب أكثر.. , حلقة مفرغة من اللذة لا تؤدي إلا إلى مزيد من اللذة..

كان يعود كل ليلة إلى الملهى... ؛ ثم يرجع كل فجر إلى الفندق، وهو يشعر بفراغٍ هائل.

المشكلة أن الإنسان لا يستطيع الهرب من نفسه.

وكان يشعر أن روحه تنقسم إلى نصفين:

نصف يريد العودة إلى الإيمان والطمأنينة وآية الكرسي.

ونصف يريد أن يلتهم الحياة كلها قبل أن تلتهمه الحرب مجدداً.

في الليلة الأخيرة، خرج وحده إلى النهر.

كانت تبليسي نائمة تحت الضباب.

أخرج قنينة الويسكي، شرب قليلًا ... ؛ثم اشعل سيجارة جرود ...

نظر إلى النهر الطويل المتدفق تحت المدينة.

ثم همس:

ـــ يا الله...

هل نحن في العراق نعيش حقاً؟

أم أننا فقط نهرب من موت إلى موت؟

ثم مضى على عجلٍ نحو الملهى.

"ما اسمك؟" سألها في تلك الليلة.

"نينو" قالت وهي ترتدي ملابسها.

"نينو..." كرر الاسم كتعويذة جديدة.., تعويذة لا تطرد الشياطين، بل تستدعيها.

في المطار، وهو عائد إلى بغداد، شعر خالد أن شيئاً ما قد تغير.., ليس فيه فقط، بل في العالم كله.., كان ينظر إلى المسافرين العراقيين العائدين معه، فرأى في عيونهم نفس الخوف الذي كان يسكن عينيه قبل أسبوع.., نفس الانكسار.., نفس الاستسلام.

تذكر الشيخ الجورجي صاحب المئة عام.., تذكر جاره عيسى وأغنيته عن الثلاثين.., تذكر سيد سلمان وعرقجينته.

وفجأة، أدرك الحقيقة المرة: السعادة ليست في جورجيا.., وليست في الجنس.., وليست في الخمر.., السعادة في أن تتصالح مع فكرة أنك حي.., أنك ستموت.. ؛ و أن بين هاتين الحقيقتين مساحة صغيرة هي ما نسميه الحياة، وعليك أن ترقص فيها، لا أن تزحف.

في الطائرة، وبينما كان يحلق فوق السحاب، أخرج المصحف الصغير الذي كان في جيبه.. ؛ فتحه على آية الكرسي.. ؛ قرأها مرة واحدة هذه المرة، لا ستاً.. ؛ ليس لأنه لم يعد بحاجة إلى الحماية، بل لأنه أدرك أن الحماية الحقيقية هي في أن تتقبل الخطر.., و أن تمشي في الحياة كما يمشي العشاق في الليل: بلا خريطة، بلا وجهة، بلا خوف.

عندما هبطت الطائرة في مطار بغداد، كان خالد قد نزل منها رجلاً آخر.. ؛ ليس أفضل، ليس أسوأ.. , فقط مختلف.. ؛ مختلف كما تختلف الحياة عن الموت.. ؛ مختلف كما يختلف الماء عن السراب.. ؛ مختلف كما تختلف آية الكرسي التي تُقرأ خوفاً، عن آية الكرسي التي تُقرأ حباً.

في البيت، استقبلته أمه بالدموع.. ؛ "اشتقت لك ..." قالت.

"وأنا أيضاً..." قال، وهو يعرف أنه لا يقول الحقيقة كاملة.. ؛ فهو لم يشتق لأحد.. , لم يشتق لشيء.. ؛ لأنه لم يكن هناك أصلاً ليفتقد أحداً.. , كان غائباً عن نفسه قبل أن يغيب عن بغداد.

في تلك الليلة، نام خالد نوماً عميقاً بلا أحلام.. , ولأول مرة منذ سنوات، لم يستيقظ في منتصف الليل مفزوعاً من كابوس.. , لم يحلم بالرصاصة التي استقرت في رأس جاسم.. , لم يحلم بالموت الذي كان يحيط به من الجهات الست.

فكر بدلاً من ذلك بنهر كورا في تبليسي.. , بشيخ جورجي يصطاد السمك.. , بامرأة اسمها نينو.. , وبآية كرسي لم يعد بحاجة إليها دائما .

في النهاية، لم يمت خالد في حرب مواجهة فلول الارهاب عام ٢٠١٤.. , لكنه مات بطريقة أخرى.. , مات كي يولد من جديد.. , مات الخوف فيه، وعاش الجسد.. , ماتت التعويذة، وعاشت الرغبة.. , ماتت الطفولة العراقية الحزينة، وعاش رجل لا يعرف بعد ماذا سيفعل بحياته، لكنه يعرف شيئاً واحداً: أنه لن يموت قبل أن يعيش... ؛ وهذا، في بلدٍ يتساقط فيه الناس كأوراق الخريف، يعد انتصاراً صغيراً.. ؛ صغيراً كالفراشة التي ترفرف في عاصفة.. , لكنه انتصار، رغم كل شيء.

أنا عاهرٌ وليست هي عاهرة (٦١)

* الفكرة التي لا تُرى

لم تكن الفكرة فكرة في البداية.

كانت شيئاً أشبه بظلّ يمرّ في أطراف الوعي ثم يعود، ثم يعود أكثر كثافة في كل مرة، حتى صار من الصعب التمييز بين ما هو داخلي وما هو دخيل.

كنتُ أعيش حياة عادية ظاهرياً، لكن في الداخل كان هناك رجل آخر يتشكل بصمت.. , رجل لا يشبهني، أو ربما هو أنا حين أُجرَّد من الرقابة.

أشواق كانت هناك.

لم تكن حدثاً بعد، بل احتمالاً.

والاحتمالات، حين تُترك بلا حارس، تتحول إلى مصائر.

* السطح

السطح ليس مكاناً مهماً في أي بيت.

لكن بعض الأماكن تتحول من جغرافيا إلى مصائر.

كانت تصعد كل يوم تقريباً، تنشر الغسيل كأنها تنشر حياتها على حبال الضوء.

وأنا كنت هناك.

لا أعرف متى بدأتُ أعتبر وجودي في السطح ضرورة، ولا متى صار النظر إليها جزءاً من يومي.

كنت أقول لنفسي: صدفة.

لكن الصدفة، حين تتكرر، تفقد براءتها.

لم أكن أراقبها فقط.

كنت أراقب نفسي وأنا أراقبها.

وهذه هي البداية الحقيقية لأي انحراف لا يُرى.

* بناء الوجه الآخر

لم أقترب منها مباشرة في البداية.

كنت أختار كلماتي كما يختار الجراح أدواته.

الدين... الأخلاق... الحديث العابر... الاهتمام البارد الذي يبدو دافئاً من الخارج.

كنت أبني لنفسي وجهاً آخر.

وجه لا يشبه ما في الداخل.

وكانت هي، دون أن تدري، تمنحني فرصة اختبار هذا الوجه.

لم تكن ساذجة.

لكن الثقة دائماً تبدو كذلك في البداية.

* الانزلاق الأول

لم يحدث شيء كبير في البداية.

لا اعتراف، لا سقوط، لا لحظة درامية واضحة.

فقط تغيّرات صغيرة جداً لا ينتبه لها أحد.

نظرة أطول قليلاً من اللازم.

صمت غير مفهوم في لحظة كان يجب أن يُقال فيها شيء.

اقتراب لم يُسمَّ اقتراباً بعد.

هكذا يبدأ كل شيء.

ليس بالقرار، بل بالتآكل.

كنت أظن أنني أتحكم.

لكنني كنت أُسحب أيضاً، إلى منطقة لا أعرف قوانينها.

* الحب كآلية سيطرة

لم أكن أحبها.

أو ربما كنت أحب فكرة السيطرة أكثر من أي شعور آخر.

كنت أختبرها دون أن أقول ذلك.

أختبر حدودها، صبرها، هشاشتها.

وكانت هي، في المقابل، تختبر صدق العالم.

لكن العالم لا ينجو من الاختبار حين يكون المُختبِر مكسوراً من الداخل.

بدأتُ أطلب منها ما لا يُقال بصوت مباشر.

وكانت ترفض.

ثم تتألم.

ثم تعود إليّ.

لم تكن علاقة.

كانت حلقة مغلقة من الألم المؤجل.

* لحظة السقوط غير المرئية

لا توجد لحظة سقوط واحدة.

السقوط الحقيقي يحدث حين لا يعود هناك فرق بين الخطأ والتكرار.

حين يصبح التنازل عادة.

وحين يصبح الصمت شكلاً من أشكال القبول.

لم تكن أشواق تسقط فجأة.

بل كانت تُدفع ببطء خارج نفسها.

أما أنا، فكنت أراقب هذا التحول وكأنه شيء يحدث لشخص آخر.

حتى لم يعد هناك "آخر".

* الفراغ

حين انتهى كل شيء، لم أشعر بانتصار.

ولا بخسارة.

فقط فراغ كثيف، يشبه غرفة بلا نوافذ.

لم أعد أريدها.

وهذه كانت الحقيقة الأكثر قسوة.

الرغبة، حين تموت، لا تترك حنيناً...، بل تترك برودة.

تركتها.

ليس كفعل قوة.

بل كفعل عجز متأخر.

* المدينة تتكلم

لم أكن بحاجة لأن أكون حاضراً لأرى النهاية.

المدينة كانت تقوم بالمهمة جيداً.

الأسماء تتغير.

القصص تتشوه.

والحقيقة تُعاد صياغتها حتى تصبح قابلة للهضم الاجتماعي.

أشواق لم تعد أشواق.

صارت حكاية.

ثم صارت تهمة.

ثم صارت جسداً بلا سياق.

كنت أسمعها تتساقط في أفواه الآخرين دون أن أستطيع إيقاف ذلك.

* الجسد الذي لا يعود

حين وصلني خبر النهاية، لم أبكِ.

لم أنهار.

لم يحدث شيء مما تتوقعه الروايات.

فقط شعرت أن شيئاً ما في الداخل انطفأ بشكل نهائي.

كأن شخصاً أطفأ ضوءاً لا يمكن إعادة تشغيله.

فهمت متأخراً أنني لم أفقدها.

بل فقدت الشكل الذي كنت أراه للعالم من خلالها.

* الاعتراف

لم يكن صوتاً خارجياً.

لم يكن حلماً.

كان شيئاً يشبه الانكشاف الداخلي.

كأن طبقة من الوعي انزاحت فجأة.

وسمعت نفسي بوضوح لأول مرة.

أنا لم أكن المتفرج.

ولا الصامت.

ولا الضحية.

كنت الفعل نفسه.

ثم جاء الاعتراف، ببرود لا يشبه الندم:

أنا العاهر... وليست هي العاهرة.

*الخاتمة: ما بعد الاسم

بعد هذا الاعتراف، لم يتغير شيء في العالم.

المدينة استمرت.

الأسماء استمرت في السقوط من معناها.

لكن شيئاً واحداً فقط تغير داخلي:

لم أعد قادراً على رؤية نفسي دون أن أرى الآخر في داخلي أيضاً.

كأن الخط الفاصل بين الجريمة والوعي... اختفى.

المدفع النمساوي والهلع الصدامي (٦٢)

في أواخر ربيع عام ٢٠٠٣، كانت بغداد تبدو كمدينة خرجت من جسدها لتقف على حافة نفسها.

لم تكن الحرب بعيدة، بل كانت تسكن الأزقة، وتتنفس من الشقوق، وتدخل البيوت مع الغبار.

في أحد أحياء العاصمة، كان "جاسم" يقف عند نافذة صغيرة في الطابق الثاني من بيت قديم.

نافذة لا تُطلّ على شارع بقدر ما تُطلّ على خوفٍ متراكم.. , كان يعمل مدرساً، لكنه في تلك الأيام لم يعد يدرّس شيئاً سوى الصمت.

في الخارج، كانت المدرعات تمرّ ببطء، كأنها لا تعرف أين تذهب، لكنها مُصرّة على أن تبدو واثقة.

رجال بزيّ عسكري يتنقلون بين نقاط تفتيش لا تعرف إن كانت تحمي المدينة أم تحاصرها.. , وعلى الجدران، كانت صور القائد الضرورة تبتسم بثباتٍ غريب، كأنها لا ترى ما يحدث خلفها.

منذ أيام، بدأ صوت جديد يملأ السماء.

لم يكن انفجاراً عادياً، بل كان صوتاً منتظماً، عميقاً، يأتي من جهة مجهولة ثم يختفي ليعود من جهة أخرى.. , قالوا إنه "المدفع النمساوي".

لم يفهم سالم لماذا مدفع في القرن الحادي والعشرين يحتاج إلى جنسية أوروبية في اسمه، لكن الأسماء في تلك المرحلة كانت جزءاً من الحرب أيضاً؛ تُصنع لتبدو أكثر فخامة من الحقيقة.

في البداية، حاول الناس التظاهر بأن الأمر طبيعي.. , ثم بدأوا يعدّون الانفجارات كما يُعدّ المطر في مدينة جافة.. , لكن شيئاً في الصوت كان مختلفاً: ليس الخطر وحده، بل العشوائية التي توحي بأن أحداً لا يقود شيئاً فعلاً.

في إحدى الليالي، كان جاسم جالساً مع عائلته في غرفة الإضاءة فيها خافتة، حين اهتزّ البيت كله.

سقط كوب شاي من يد زوجته.. , لم تصرخ، فقط نظرت إلى الأرض كأنها تعتذر للكوب.

قال ابنه الصغير:

— هل هذا قريب منا؟

لم يجب أحد.

ليس لأنهم لا يعرفون، بل لأن الإجابة لم تعد تغيّر شيئاً.

في الخارج، كان الوميض يظهر فجأة، يفتح السماء ثم يغلقها كعين غاضبة.. , وبعده مباشرة يأتي الصوت، متأخراً دائماً، كأنه يلاحق ما حدث ولا يفهمه.

في الصباح، مرّت شائعة في الحي: "المدفع النمساوي يضرب مواقع العدو".

لكـن جاسـم كـان قـد رأى الليلـة الماضـية نافـذة جـارهم وقـد اختفـت.. , ولـم يكـن في الجهة المقابلة أي موقع عسكري، فقط بيوت تشبه بيوتهم.

فـي اليـوم التـالي، وقـف جاسـم عنـد دكـان صـغير لشـراء خبـز.. , كـان الرجـل خلف الطاولة يتحدث بصوت منخفض:

— يقولون إنها خطة ذكية... تشويش على الطائرات.

ضحك أحدهم ضحكة قصيرة، لم تكتمل:

— تشويش؟ أم تشويش علينا؟

لم يجب أحد.

في تلك الأيام، كانت الكلمات تخاف أن تكتمل.

مـع مـرور الوقـت، أصـبح "المـدفع النمسـاوي" شخصـية فـي حيـاة النـاس، كأنــه جــار غيــر مرغــوب فيــه.. , لا يُــرى، لكنــه يفــرض وجــوده.. , يــوقظ الأطفــال، ويقطــع النــوم، ويختبــر هشاشــة الجــدران... ؛ ولا يصــيب الاعــداء قط .

وذات مسـاء، بينمـا كـان جاسـم عائـداً إلـى بيتـه، سـمع مجموعـة مـن الجنـود يتحدثون قرب حاجز ترابي.

قال أحدهم بفخر متعب:

— يقال إنه أحدث ما لدينا... لا يقهر.

رد آخر وهو ينظر إلى السماء:

— لا يقهر؟ أم لا يميّز؟

ثـــم ضـــحكوا.. , ضـــحكة قصـــيرة أيضـــاً، كـــأن الضـــحك نفســـه يخشـــى أن يطول.

في تلك الليلة، كان الانفجار أقرب من المعتاد.

لم يكن أقوى، لكنه كان واضحاً بما يكفي ليجعل النوافذ تعترف بضعفها.

ســقط جــزء مــن جــدار قريــب فــي الحــي، ولــم يــأتِ أحــد لرفعــه.. , فــي الصباح، مرّ الناس بجانبه كما يمرّ المرء بجملة محذوفة من كتاب قديم.

بــدأ جاســم يلاحــظ شــيئاً غريبــاً: لــم يعــد النــاس يســألون "لمــاذا؟"، بــل "إلــى متى؟".

الفــرق بــين الســؤالين كــان الفــرق بــين حيــاة مــا تــزال تــؤمن بــالمعنى، وأخــرى قررت أن تتعايش مع العبث.

وفــي يــومٍ مــا، انتشــر خبــر كبيــر: انســحاب، انهيــار، دخــول القــوات الأمريكيــة إلى أطراف المدينة.

لــم يكــن الخبــر مفاجئــاً بقــدر مــا كــان متــأخراً.. , كــأن الجميــع كــانوا يعرفونــه مسبقاً، لكنهم كانوا ينتظرون فقط الشكل الرسمي للسقوط.

في تلك اللحظة، توقف صوت المدفع.

صــمتٌ مفــاجئ، غيــر مــريح، كــأن المدينــة فقــدت شــيئاً كانــت تكرهــه لكنهــا اعتادت عليه.

وقف جاسم عند النافذة ذاتها.

لا دخان، لا وميض، لا تأخير في الصوت.

فقط فراغ.

قال ابنه الصغير:

ـــ هل انتهى كل شيء؟

لم يجب جاسم فوراً.

نظر إلى السماء التي كانت قبل أيام تمتلئ بالحديد، ثم قال بهدوء:

ـــ لا... بدأ شيء آخر.

وفي مكان ما من المدينة، كانت الأخبار تتحدث عن "نهاية مرحلة".

لكن في الشوارع، لم يكن أحد يملك رفاهية تصديق كلمة "نهاية".

كانوا يعرفون أن ما انتهى هو شكل واحد من الخوف، ليبدأ شكل آخر... أكثر صمتاً، وأقل ضجيجاً، لكنه قد لا يقل قسوة.

الغرفة العاجية المعزولة (٦٣)

كان يستيقظ متأخرًا، لا لأن النوم يثقله، بل لأن الصباح لم يعد يعنيه.

الضوء يتسلل من شقوق النافذة كاعتذارٍ لا يكتمل، فيشيح عنه كما لو أنه لا يريد الاعتراف ببداية اليوم.

على الطاولة مائدةٌ واحدة تتكرر كقدرٍ يومي: كسرة خبز، قليل من الأرز، مرق فاصولياء يابس، وكوب ماء.

كان يأكل كمن يختبر بقاءه لا كمن يشبع، ويشرب من الفراغ أكثر مما يشرب من الماء.

ثم يبدأ طقسه الوحيد: ذهابٌ وإياب داخل الغرفة.

خطواتـــه دائـــرة مغلقـــة لا تـــؤدي إلـــى شـــيء، كعقـــرب ســـاعة فقـــد إيمانـــه بالدقائق.

الغرفـــة لا تتســـع لـــه ولا تضـــيق بـــه؛ بـــل تتكيّـــف مـــع ارتباكـــه الـــداخلي، كأنهـــا تنصت بدل أن تحتضن.

يقرأ ويكتب.

لكـــن الكلمـــات لـــم تعـــد تخـــرج منـــه، بـــل تمـــرّ عبـــره ككائنـــات لا تعتـــرف بصاحبه.

يراكم الجمل كما تُكدّس حجارة حول نار لا تنوي الاشتعال.

الشاي والقهوة يكثران حوله كحراس بلا وظيفة.

كـــان يظـــنّ أن الكـــافيين يمنحـــه يقظـــة إضـــافية، لكنـــه لـــم يكـــن يضـــيف إلا طبقـــة أخرى من السهر على فراغه.

فكرة واحدة كانت تدور: فكرة لم تولد بعد.

وجملة واحدة لم تكتمل.

وحلـــم يخشـــى أن يفـــتح نافـــذة، لأنـــه لا يعـــرف إن كـــان الـــداخل ســـيخرج أم الخارج سيدخل.

من نافذته يرى العالم كأنه أسفل حفرة.

ناسٌ يركضون، يضحكون، يتخاصمون، يحبون.

يرى كل ذلك كما تُرى حياة الآخرين من خلف زجاج لا يخصّه.

ابتسامة باهتة تمرّ على وجهه، لا مشاركة فيها، بل اعتراف صامت بالعجز عن النزول.

كان البرج العاجي ليس بناءً من حجر، بل من خوفٍ تكدّس حتى صار شكلًا ثابتًا للوجود.

خوف من السقوط، وخوف من الخيبة، وخوف أكبر من أن يكون النزول بلا معنى.

حتى التعب لم يعد حدثًا، بل نظامًا يوميًا.

ينهار عند الظهيرة كما تنهار فكرة فقدت مبرر استمرارها.

لا فرق بين نومه ويقظته؛ كلاهما شكلان مختلفان من الانطفاء.

في أحلامه، ممر طويل من أبواب مغلقة.

كل باب يحمل اسم يومٍ مضى.

يفتحه فلا يجد سوى الغرفة نفسها، والمائدة نفسها، والأكواب نفسها، والغبار نفسه الذي لا يتعب من التكرار.

الزمن لا يتحرك هنا؛ إنه يعيد نفسه فقط.

كأنه لم يُخلق ليمرّ، بل ليُنسخ.

وحين تتراكم الأيام حتى تتشابه تمامًا، لا يوقظه شيء إلا صمت المرايا.

كأنها تسأله دون صوت:

"إلى متى تبقى في الأعلى؟"

في إحدى الليالي، أو ربما نهارٍ لا فرق، وبين رشفة قهوة ونقطة حبر، توقف.

حدّق في الصفحة البيضاء طويلاً.

ثم قال لنفسه، كمن يسمع صوته للمرة الأولى:

"أما آن لهذا البرج أن يتصدّع؟"

لم يكن السؤال احتجاجًا، بل ارتباكًا متأخرًا في فهم الشكل الذي صار عليه.

ثم أدرك، دون يقين كامل، أن الحياة لا تُمنح من الخارج.

بل تُرتكب.

وأن البرج، مهما بدا حماية، قد يتحول إلى طريقة دقيقة لتأجيل الحياة إلى الأبد.

العينان اللتان أوقفتا الزمن (٦٤)

كان المساء يهبط على المدينة ببطءٍ شاحب، كأن السماء تتردّد في إغلاق نهارها الأخير.

عند موقف الباصات، وقف حمدي وحده وسط ازدحامٍ بشريّ مألوف: موظفون منهكون، طلاب يجرّون خطواتهم الثقيلة، وباعة يلاحقون ما تبقّى من اليوم في أصواتٍ متكسّرة.

كان يبدو كمن لا ينتظر الباص، بل ينتظر شيئًا آخر لا يعرف اسمه.. ؛ شيئًا غامضًا يظلّ واقفًا في داخله، يرفض أن يُسمّى.

توقّف الباص أخيرًا، وفتح أبوابه كتنفّسٍ متعب.. , صعد الركّاب واحدًا تلو الآخر، حتى دخل حمدي.

هناك، حدث ما يشبه الانزلاق الصامت خارج الزمن.

رفعت فتاة رأسها من مقعدها قرب النافذة.

لم تكن النظرة عادية.

كانت لحظة ارتباك كونية صغيرة.

شعر حمدي أن العالم فقد توازنه فجأة، كأن الباص لم يعد يتحرك، بل صار يدور حول تلك العينين.. , لم يسمع صوت المحرك، ولا ضجيج المقاعد، ولا أحدًا حوله.. , فقط ذلك الضوء الغريب الذي خرج من عينيها، لا كجمالٍ فقط، بل كاحتمالٍ آخر للحياة.

كانت عيناها ساكنتين، لكن فيهما شيء يشبه اللمعان الداخلي، كأنهما نافذتان على مكان لا يُرى.

خفض بصره سريعًا، ثم عاد يرفعه دون إرادة.. , كان كمن يُسحب بخيط خفيّ لا يُقطع.

قالت الفتاة بهدوء، من دون أن تنظر إليه مباشرة، وهي تلتفت نحو السائق:

— لو سمحت... هنا.

توقّف الباص.

نزلت.

ولم يفكر حمدي في شيء سوى أن ينزل خلفها.

لم يسأل نفسه لماذا.

الأسئلة كانت متأخرة.

خرج إلى الشارع خلفها، كظلٍّ لا يعرف صاحبه.

كانــت تمشــي بخطــوات واثقــة، خفيفــة، وكــأن الطريــق يعرفهــا.. , أمــا هــو فكان يتعلّم المشي خلفها من جديد، كطفلٍ يتبع فكرةً لا يجرؤ على لمسها.

مــرّ عطرهــا فــي الهــواء، فارتبــك صــدره.. , لــم يكــن عطــرًا قويًــا، لكنــه كــان واضحًا، كذكرى لم تحدث بعد.

دخلت زقاقًا ضيقًا، توقفت أمام باب صغير، ثم طرقت.

فُتح الباب.

اختفت داخله.

وقف حمدي لحظة أمام العتبة، كأنه على حدود عالمين، ثم انسحب ببطء.

لكن شيئًا فيه لم ينسحب.

كــان قــد حفــظ المكــان دون أن يــدري: الجــدران، الزاويــة، لــون البــاب، صــوت الإغلاق.

ومنذ ذلك اليوم، صار يعود.

لا بوصفه زائرًا، بل بوصفه احتمالًا مؤجلاً.

كــان يقــف أحيانًــا عنــد الزقــاق، وأحيانًــا عنــد موقــف البــاص، كمــن ينتظــر أن يُعاد ترتيب اللحظة الأولى بطريقةٍ مختلفة.

لكنها لم تكن تظهر.

مرّ الوقت كالماء فوق حجر ثابت: أيام، ثم أسابيع، ثم شهور.

حتى جاء ذلك اليوم.

كان واقفًا في الموقف نفسه، حين توقّف الباص مرة أخرى.

صعد.

ورآها.

لكن شيئًا في المشهد لم يكن كما تخيّل.

كانت تجلس بجانب شابٍ أنيق، يمسك يدها بثقةٍ غير مترددة.. , كان يتحدث إليها بلا حذر، وهي تضحك بخفة، كأن بينهما مساحة مألوفة لا تحتاج تفسيرًا.

اقترب حمدي خطوة دون أن يشعر.

كانت ضحكتها مختلفة عن تلك التي رسمها في داخله.

أخفّ، أبسط، وأقرب إلى الحياة منها إلى الحلم.

جلس صامتًا.

لم تره.

أو ربما رأت ما لم تعتبره مهمًا.

سمع الشاب يقول لها، بنبرة عادية:

— نروح اليوم متأخر، ما عندنا شيء مستعجل.

ضحكت، وقالت:

— كل أيامك تقول مو مستعجل… وبالنهاية أنت دايمًا مستعجل.

ضحك معها.

لم يكن في الحوار ما يشبه الأسطورة التي بناها حمدي في داخله.

نزل الثلاثة في محطة لاحقة.

تبعهم دون قرار.

دخلوا بناية قديمة، يعرفها الناس في الحي دون أن يصرّحوا بمعرفتها.

وقف حمدي خارجها.

مرّت دقائق طويلة.

ثم خرجت.

كان وجهها متغيرًا قليلًا، أكثر تعبًا، أقلّ حضورًا، كأن الضوء الذي رآه فيها أول مرة قد انطفأ أو انكشف.

تحدثت مع الشاب للحظة قصيرة، ثم افترقا.

صعدت إلى الباص وحدها.

أما هو فبقي واقفًا.

هذه المرة، لم يتبعها.

لم يعد الخيط الخفي يسحبه.

شعر بشيء يشبه الاستيقاظ المتأخر، كمن يفتح عينيه على صورة لم تكن خاطئة..., لكنها لم تكن كاملة أيضًا.

اقترب منه فهمٌ بطيء، غير مؤلم، لكنه قاطع:

لم يكن يرى فتاة فقط.

كان يرى فراغه هو، وقد ارتدى هيئة شخص آخر.

ابتسم ابتسامة خفيفة، لا تشبه الانتصار ولا الخسارة.

ثم قال بصوت لا يسمعه إلا هو:

ـــ كنت أبحث عن الضوء... لا عن صاحبه.

تحرك الباص مبتعدًا، وتركه في مكانه، كأن شيئًا انتهى من دون ضجيج.

وفي داخله، ظل سؤال واحد يتردد، لا كجرح، بل كنافذة مفتوحة:

هـل كانــت تلــك العينــان شمســين حقًــا... أم أننــي كنــت أحتــاج الشــمس لأرى نفسي فقط؟

العابر بين ظلاله (٦٥)

ضـاق صـدره كـأن الجـدران الأربعـة التـي احتمـى بهـا يومـاً لـم تعـد مـأوى، بـل تحوّلت إلى رئةٍ ضيقة تتنفس عنه ببطء مؤلم.

لـم تكـن غرفتـه عازلـةً عـن ضـجيج المدينـة فحسـب، بـل صـارت امتـداداً لـذلك الضجيج، نسخةً صامتة منه تُعيد إليه صدى الأشياء بدل أن تحجبه.

كـان يظنّهـا قوقعـةً تحفظـه، ثـم اكتشـف أنهـا تلتـف حولـه مثـل غبـارٍ يتكثـف حتى يصير جسداً آخر يشاركه الاختناق.

فـي تلـك الليلـة، أغلـق البـاب خلفـه بخطـوةٍ بـدت كأنهـا خـروج مـن طبقـة إلـى أخرى من نفسه.

لـم يُغلـق بـاب الغرفـة فقـط، بـل فـتح شـقاً داخلـه لا يعرفـه.. , خـرج إلـى المدينة كمن يسير على خيطٍ مشدود بين غيابين، لا بداية له ولا نهاية.

كانـت المدينـة ليلَهـا جسـداً نصـف نـائم؛ أضـواؤها تـومض كنـبضٍ متقطـع، وشوارعها تمتد كأنها جملٌ لم تُستكمل.

السيارات تمرّ مثل ذكرياتٍ لا تلتفت، والوجوه تلمع وتختفي كأنها لا تريد أن تُرى. شعر أنه يمشي في مدينة يعرفها جيداً، لكنها فقدت حقها في أن تعرفه.

الغربة، اكتشف انها لا تحتاج إلى مكان جديد؛ يكفي أن يبتعد الإنسان خطوة واحدة عن نفسه.

في زاويةٍ لا ينتبه لها أحد، حدث ما لا يُخطَّط له: التقى الغريب.

لم يكن الغريب غريباً تماماً.. , كان أقرب إلى صورةٍ يعرفها دون أن يراها، كأنه خرج من ذاكرة لم تُكتب بعد، أو من احتمالٍ قديم أو ظلّ مؤجلاً.. ؛ ملامحه غير ثابتة؛ تتبدّل مع الضوء مثل سطح ماءٍ لا يقرر شكله.. , لم يكن شخصاً بقدر ما كان فكرة تمشي على الأرض.

تبادلا النظرات أولاً، وكأنهما يستعيدان لغةً فقدت كلماتها.. , ثم جاء الكلام خفيفاً، متدفقاً، بلا ارتباك، كحوارٍ سابق لم يُكمل في زمنٍ آخر.. , لم يسألا عن البداية، لأن البداية كانت حاضرة بينهما دون حاجة إلى تعريف.

حولهما كانت المدينة تمضي كضبابٍ بارد، لكن بينهما تشكّل مناخٌ مختلف؛ مساحة تنكمش فيها المسافات، ويصبح الصمت نوعاً من الفهم.

لم يكن ما يحدث حباً بالمعنى المألوف، بل اقتراباً من نوع آخر: شعور بأن الروح، أخيراً، وجدت ما يشبه صداها.

اقتربا دون حساب، كأن الاقتراب اعترافٌ متأخر بأن الوحدة لم تكن قدراً كاملاً. لحظة العناق لم تكن جسداً بقدر ما كانت محاولة لفهم العالم من خلال آخر.

كان كل واحدٍ منهما يرى في الآخر نسخةً لم تكتمل من ذاته، أو نافذةً مفتوحة على احتمال النجاة.

لكن شيئاً ما مرّ.

نظـــرة عـــابرٍ مســـنّ، محمّلـــة بثقـــل أجيـــالٍ كاملـــة، شـــقّت اللحظـــة كحجـــرٍ يســـقط فـــي مـــاءٍ ســـاكن.. , لـــم تكـــن نظـــرة عتـــاب فقـــط، بـــل منظومـــة كاملـــة مـــن الخـــوف القديم، من العادات التي تراقب حتى في صمتها.

تراجـــع الـــزمن بينهمـــا لحظـــة، لا خوفـــاً، بـــل دهشـــة: كيـــف يمكـــن لعـــالمٍ كامـــل أن يتدخل في لحظة كانت على وشك أن تصير حياة؟

ثـــم عـــادت النـــار، لا كعاطفـــة، بـــل كحاجـــة أعمـــق: الحاجـــة إلـــى أن لا يكـــون الإنســـان وحيـــداً فـــي داخلـــه.. ؛ اقتربـــا مـــن جديـــد، كـــأن شـــيئاً فيهمـــا يـــرفض أن يُهـــزم بهـــذه الســـهولة، وكـــأن الاعتـــراف بـــالآخر صـــار ضـــرورة وجوديـــة لا خياراً عاطفياً.

حـــين هـــدأ كـــل شـــيء، جلســـا علـــى مصـــطبتين متجـــاورتين قـــرب الحديقـــة.. , كـــان الصـــمت بينهمـــا أثقـــل مـــن الكـــلام، لكنـــه لـــم يكـــن صـــمتاً فارغـــاً؛ كـــان مزدحمـــاً بكـــل مـــا لـــم يُقـــل. جســـداهما مرهقـــان، لكـــن الإرهـــاق بـــدا كأنـــه أثـــرُ عبـــورٍ لا تعـــب.. , كـــأن شـــيئاً فيهمـــا قـــد تحـــرّك مـــن مكانـــه القـــديم دون أن يســـتقر بعد.

وفـــي لحظـــةٍ غيـــر محســـوبة، توقفـــت ســـيارة ســـوداء عنـــد الحافـــة المقابلـــة للضوء.

ترجّـــل رجـــل مســـنّ، ونـــادى باســـمه.. , لـــم يكـــن النـــداء مجـــرد صـــوت، بـــل كـــان امتـــداداً لقـــوةٍ خـــارج اللحظـــة، قـــوة تعـــرف كيـــف تقطـــع الخيـــوط دون أن تمسّها.. ؛ التفت الغريب فوراً، كأن خيطاً غير مرئي سحبه من مكانه.

نهض بلا تردد.

لـــم يقـــل شـــيئاً.. , لـــم يعتـــذر.. , لـــم يشـــرح.. , فقـــط تحـــرك نحـــو الســـيارة كـــأن الطريـــق معـــروف منـــذ زمـــن، وكـــأن اللحظـــة التـــي عاشـــها للتـــو لـــم تكـــن ســـوى استراحة قصيرة في مسارٍ أكبر منه.

بقي وحده.

يراقب السيارة وهي تبتعد، لا كحدثٍ ينتهي، بل كاحتمالٍ يُسحب من الوجود قبل أن يكتمل.

لم يكن الحزن واضحاً، كان أعمق من ذلك: إحساس بأن الحياة لا تمنح لحظاتها فرصة الاكتمال، وأن البشر يمرّون ببعضهم كأنهم يمرّون عبر حيوات مؤقتة لا تُحفظ.

اختفت السيارة في الليل.

واختفى معها شيءٌ لم يُسمَّ.

عاد الصمت القديم، لكن هذه المرة لم يكن صمت غرفة، ولا مدينة، بل صمت داخل ذاكرةٍ اكتشفت للتو أنها كانت ناقصة.

ومشى وحده من جديد، يحمل في داخله ظلاً ... ؛ مرّ أمام نافذته للحظة... ثم اختفى.

الضفاف لا تُغوي... لكن السفن لا تُقاوم (٦٦)

في المحمرة، حين كان الفجر ينهض ببطء من ماء الكارون، بدا النهر كأنه يتوضأ من ليلٍ طويل.. , النخيل على الضفة كان ساكنًا، كأنه ينصت لخطوة الضوء الأولى، والمدينة ما تزال بين النوم واليقظة، بين ما يُقال وما يُخفى.

خرج الأستاذ كريم من المسجد بعد صلاة الفجر.. , رجل في منتصف العمر، يحمل من الطيبة ما يكفي ليجعله دائم الخسارة، ومن التأمل ما

يكفـــي ليجعلـــه دائـــم الســـؤال.. , كـــان يمشـــي وحـــده كعادتـــه، لا لأن العزلـــة خيار، بل لأنها أصبحت طبعه الثاني.

كان يظن أن العالم كتاب يمكن قراءته بالنوايا الحسنة.

علـــى ضـــفة الكـــارون، وقـــف.. ؛ نظـــر إلـــى المـــاء.. , لـــم يكـــن يبحـــث عـــن منظـــر، بـــل عـــن معنـــى.. , عـــن ظـــل فكـــرة ربمـــا ســـقطت مـــن ذاكرتـــه ولـــم يعـــد يعرف طريقها.

قال في نفسه بصوت خافت:

"حتى النهر يتغير... فلماذا تظل الأرواح معلقة في أماكنها؟"

لكن النهر لم يجب.

كان الفجر في تلك اللحظة يشبه وعدًا غير مكتمل.

لـــم تمـــضِ دقـــائق حتـــى اقتربـــت ســـفينة صـــغيرة مـــن الضـــفة، كأنهـــا لا تنتمـــي إلـــى المكان ولا الزمن.. , توقفت بلا ضجيج، ثم نزل منها شاب.

كان اسمه رجائي.

لـــم يكـــن يشـــبه أهـــل المحمـــرة ولا أهـــل المـــدن القريبـــة.. , ملامحـــه خلـــيط مـــن أســـفار بعيـــدة: فـــي صـــوته شـــيء مـــن بحـــر الخلـــيج، وفـــي ابتســـامته شـــيء مـــن مرافـــئ التجـــارة، وفـــي عينيـــه بـــرود المســـافرين الـــذين لا يطيلـــون النظـــر إلـــى أي شيء.

كـــان أنيقًـــا دون تكلـــف، واثقًـــا دون شـــرح، كـــأن العـــالم بالنســـبة لـــه لـــيس مكانًـــا بـــل طريق عبور.

تبادلا التحية.

كانـــت المصـــافحة قصـــيرة، لكنهـــا بـــدت لكـــريم كأنهـــا مـــرت علـــى طبقتـــين مـــن الزمن: طبقة تؤمن بالمعنى، وأخرى تؤمن بالمصلحة.

قال رجائي بابتسامة خفيفة:

– هل هنا مطعم جيد؟

تردد كريم لحظة، ثم قال كمن يفتح بيته لغريب:

– تعال.

في المطعم، كان الطابق الرابع يطل على النهر.. , الطاولات قليلة، والهواء مشبع برائحة ماء وسمك مشوي وذاكرة مدينة قديمة.

جلسا.

طلب كريم الشاي المهيل.. , جلس كما يجلس من اعتاد التأمل قبل الكلام.. , أما رجائي فطلب القهوة بلا تردد، كأن الطلب نفسه جزء من شخصيته.

قال رجائي وهو يرفع فنجانه:

– القهوة لا تُشرب... القهوة تُواجه.

ابتسم كريم:

– والشاي؟

– يُشبه الصبر..., لكنه يطيل الانتظار.

لم يعقب كريم.. , كان يحب أن يترك للناس مساحتهم في الكلام، حتى لو لم يقتنع.

دخل الطعام: لحم مشوي، خبز، وأشياء بسيطة تشبه بيوت الجنوب العراقي .

لكن الاختلاف الحقيقي لم يكن في الطعام.

كان في طريقة الأكل.

كـريم يأكـل كمـن يعتـذر للطعـام.. , بـبطء، بـاحترام، كـأن لكـل لقمـة معنـى أخلاقيًا.

أمـا رجـائي، فكـان يأكـل كمـن يُنهـي صـفقة.. , لا عـداوة فـي الحركـة، لكـن لا عاطفة أيضًا.

قال كريم:

– تبدو كأنك لا تبقى في مكان طويلًا.

ضحك رجائي:

– المكان مثل المرأة...؛ إن طال جلوسك فيه، خسر بريقه.

توقف كريم عن الأكل لحظة:

– وهل الناس عندك كذلك؟

– الناس... محطات.

صمت كريم.

كان الصمت عنده طريقة اعتراض لا تحتاج إلى جدال.

فـي زاويـة المطعـم، مـرت نادلـة شـابة.. , كانـت متعبـة، تحمـل علـى وجههـا ملامـح مدينـة لا تـرحم.. , لـم تكـن تنظـر لأحـد، فقـط تـؤدي عملهـا كمـا لـو أنـه عقوبة يومية.

لكن حين رأت رجائي، تغيّر شيء في عينيها.

لـم يكـن جمالـه وحـده، بـل ذلـك النـوع مـن الحضـور الـذي يربـك مـن يفتقـدون شيئًا في داخلهم.

ابتسم لها، ابتسامة قصيرة محسوبة، ثم قال جملة بسيطة.

لم تسمعها الطاولات الأخرى، لكن أثرها كان كافياً ليغير مزاجها.

في دقائق، صار وجهها أقل تعبًا، أكثر خفة، كأنها صدّقت وعدًا لم يُقل صراحة.

راقب كريم المشهد بصمت.

ثم قال بهدوء:

– أهذه هي طريقتك دائمًا؟

رد رجائي:

– الناس لا تقع بسبب الكلمات... بل بسبب الفراغ الذي بداخلها.

بعد الطعام، خرجا إلى سوق السمك.

كان السوق صاخبًا، الحياة فيه مكشوفة بلا تجميل: رائحة قوية، أصوات عالية، أيدٍ تعمل بلا توقف.. , كل شيء مباشر، بلا فلسفة.

قال رجائي وهو ينظر إلى الحركة:

– هنا الحياة صادقة... لا تدّعي شيئًا.

رد كريم:

– لكنها قاسية.

– القسوة هي الصدق حين يُنزع عنه التجميل.

لم يجب كريم.

كان يشعر أن بينه وبين هذا الرجل مسافة لا تُقاس بالأفكار، بل بطريقة النظر إلى الإنسان نفسه.

في الطريق إلى الفندق في عبادان، بدا الفندق العتيق كأنه شاهد على زمن آخر.. , جدرانه تحمل آثار الإنكليز، وأثاثه يحمل بقايا رحلات لم تكتمل.

في المساء، جلسا في الصالة.

قال كريم فجأة:

– لماذا تعيش كأنك عابر دائم؟

نظر رجائي إليه طويلًا، ثم قال:

– لأن الثبات كذبة.. , نحن لا نبقى.. , نحن نمر فقط.

– وماذا عن العلاقات؟

ابتسم:

– علاقات؟ نحن نلتقي لنُجرّب أنفسنا في الآخرين... ثم نغادر.

في تلك الليلة، عاد رجائي متأخرًا.

دخل الغرفة دون كلام.. , كان في ملامحه تعب مختلف، ليس تعب السفر، بل تعب الامتلاء.

لم يسأله كريم شيئًا.

لكن الصمت بينهما كان هذه المرة مختلفًا.. , لم يعد حوارًا، بل فجوة.

جلس كريم قرب النافذة.

رأى النهــر مــن بعيــد.. , لــم يعــد يبــدو نهــرًا، بــل خطًــا يفصــل بــين طــريقتين فــي العيش: واحدة تبحث عن معنى، وأخرى تبحث عن تجربة.

في الصباح، قال رجائي وهو يرتب حقيبته:

– أنا أغادر.

– إلى أين؟

– البحر... ثم جزيرة أخرى... ثم مدينة أخرى.

توقف لحظة:

– الحياة لا تنتظر من يفكر كثيرًا.

نظر إليه كريم:

– وهل لا تنتظر من يشعر؟

ابتسم رجائي دون إجابة.

ثم قال:

– أنت ستتعب هنا...؛ لأنك تحاول أن تفهم أكثر مما يجب.

غادر رجائي مع السفينة.

لم يلوّح كثيرًا.. , كان الوداع عنده فعلًا عابرًا، لا طقسًا.

وبقي كريم وحده.

في المساء، عاد إلى ضفة الكارون.

كان الماء كما هو، لكن شيئًا فيه تغيّر.

لم يعد يرى النهر فقط، بل صار يرى داخله انعكاسًا مختلفًا لوجهه.

وجـه رجـل بـدأ يشـكّ فـي يقينـه الأول: أن الطيبـة تكفـي، وأن النوايـا تخلـق عالمًا قابلًا للنجاة.

جلس طويلًا.

ثم قال بصوت منخفض لا يسمعه أحد:

– ربما لا تكون المشكلة في الناس… ؛ بل في الطريقة التي أراهم بها.

وأغلق عينيه.

ولأول مرة، لم يكن النهر هادئًا تمامًا في داخله.

الساكن في الغرفة السابعة و الاخيرة (٦٧)

فـي الطـابق الرابـع مـن فنـدقٍ قـديم يقـع عنـد أطـراف المدينـة، كانـت هنـاك سـبع غرف فقط.

سـتٌّ منهـا تُـؤجَّر أحيانًـا للمسـافرين العـابرين، أمّـا الغرفـة السـابعة والأخيـرة، فبقيـت مغلقـة أغلـب السـنوات، حتـى إن عمّـال الفنـدق كـانوا يتجنبـون الاقتـراب منهـا لـيلًا، لا خوفًـا مـن الأشـباح، بـل مـن ذلـك الصـمت الثقيـل الـذي يخرج من تحت بابها كأنه تنفّس شخصٍ نائم.

في مساءٍ شتوي رمادي، وصل رجل نحيل يدعى مجيد.

كـان فـي الرابعـة والأربعـين، يرتـدي معطفًـا أسـود أكـل المطـر أطرافـه، ويحمـل حقيبـة صـغيرة وصـندوقًا خشـبيًا قـديماً يضـمّه إلـى صـدره كـأن داخلـه قلبٌ حيّ.

حين سأله صاحب الفندق:

— "أي غرفة تريد؟"

أجاب دون تردد:

— "السابعة."

رفع الرجل العجوز رأسه ببطء، وحدّق فيه طويلًا، ثم قال:

— "الناس يخرجون منها أسرع مما دخلوا إليها."

ابتسم مجيد ابتسامة متعبة:

— "وأنا تعبت من الخروج."

كانت رائحة الغرفة تشبه كتبًا قديمة تُركت في قبو مبتل.

سريرٌ حديدي، مرآة طويلة متشققة، ومصباح أصفر يضيء كأنه يحتضر.

وضع مجيد الصندوق قرب السرير، ثم جلس يشعل سيجارته الثالثة خلال دقائق.

كانت يده ترتجف كلما اقتربت النار من وجهه.

لم ينم تلك الليلة إلا قبيل الفجر.

لكنه استيقظ فجأة على صوت خطوات داخل الغرفة.

خطوات طفل.

فتح عينيه مذعورًا، فلم يجد أحدًا.

غير أن المرآة كانت مغطاة ببخارٍ كثيف، وقد كُتبت عليها جملة بأصابع غير مرئية:

"ما دفنته حيًّا... ما زال يتنفس."

شحب وجهه فورًا.

وأطفأ السيجارة في راحة يده دون أن يشعر بالألم.

في الليلة التالية، فتح الصندوق لأول مرة منذ سنوات.

كان داخله:

صورة قديمة،

فردة حذاء طفل صغيرة،

ورسالة مطوية ملطخة بالمطر.

تناول الصورة ببطء.

طفل في الثامنة يجلس وحده في حديقة معتمة، يبكي، بينما تبدو أرجوحة صدئة خلفه كأنها مشنقة صغيرة.

حدّق مجيد بالصورة طويلًا، ثم همس:

— "كنتُ أظنك متّ."

فارتجفت الصورة بين أصابعه.

وفجأة...

تحرك الطفل داخلها.

رفع رأسه ببطء شديد، وكانت عيناه فارغتين تمامًا، كأن أحدًا محا ملامحه عمدًا.

سـقطت الصـورة مـن يـد مجيـد، لكنـه سـمع صـوت الطفـل يخـرج منهـا واضحًا:

— "أنت من تركني هناك."

تراجع مجيد حتى اصطدم بالحائط.

ومنذ تلك الليلة، بدأت الخطوات تعود كل مساء.

خطوة...

خطوتان...

ثم يظهر الطفل عند باب الحمام، أو قرب المرآة، أو جالسًا تحت النافذة.

طفل بوجهه نفسه... لكن بلا ملامح.

في اليوم الرابع، انقطعت الكهرباء عن الفندق كله.

جلـس مجيـد قـرب المصـباح اليـدوي وهـو يـدخن بعصـبية، حـين سـمع الطفـل يسأله من الظلام:

— "لماذا هربت؟"

أغلق مجيد أذنيه.

لكن الصوت اقترب أكثر:

— "لماذا تركتني تلك الليلة؟"

صرخ مجيد:

— "لأنني كنت خائفًا!"

ساد الصمت.

ثم قال الطفل بهدوء موجع:

ـــ "وأنا بقيت هناك... خائفًا بدلًا عنك."

عندها فقط، انهار مجيد باكيًا.

لأول مرة منذ عشرين عامًا.

في الليلة السادسة، سمع طرقًا خفيفًا على الباب.

فتح ببطء.

فـدخلت امـرأة غريبـة ترتـدي ثوبًـا رماديًـا طـويلًا، وكانـت رائحتهـا تشـبه المطر بعد سنوات من الجفاف.

جلست على الكرسي الوحيد، وقالت دون مقدمة:

ـــ "ما زلت تحمله معك."

عرفها فورًا... رغم أنه لم يرها من قبل.

همس:

ـــ "من أنتِ؟"

ابتسمت بحزن:

ـــ "أنا النسيان."

أغمض عينيه كأن الاسم طعنه.

قالت:

ـــ "كثيـرون يركضـون خلفـي، يتوسـلونني كـي أُطفـئ ذاكـرتهم... أمـا أنـت، فكنت تطردني كلما اقتربت."

نظر نحو الطفل الجالس في الزاوية.

كان يراقبه بصمت.

ثم قالت المرأة:

ـــ "إن أردت الراحة... اقتله."

ارتجفت شفتا مجيد:

ـــ "وكيف أقتل شيئًا يسكنني؟"

أجابته:

ـــ "الناس يفعلون ذلك كل يوم... يسمونه نضجًا."

ساد صمت طويل.

ثم اقترب الطفل من السرير، وجلس قرب مجيد، وأسند رأسه إلى كتفه كأنه متعب منذ عمرٍ كامل.

فبكى مجيد بصوتٍ مكتوم، وقال:

ـــ "سامحني."

ولأول مرة...

ظهرت للطفل ملامح.

في الليلة السابعة والأخيرة، لم يسمع أحد أي صوت من الغرفة.

وحين صعد صاحب الفندق صباحًا، وجد الباب مفتوحًا.

كانت الغرفة فارغة.

لا حقيبة.

لا صندوق.

لا أثر لمجيد.

فقط المرآة.

وقد كُتب عليها بخطٍ مرتجف:

"لا يشفى الإنسان حين ينسى...

بل حين يتوقف عن الهرب."

اقترب العجوز من المرآة ببطء.

حينها لمح شيئًا في انعكاسها.

طفل صغير يجلس في زاوية الغرفة.

لكن هذه المرة...

كان له وجه كامل.

الرجل الذي كان يهرب على عجلتين (٦٨)

كان طالب يعتقد دائمًا أن الإنسان لا يهرب بقدميه، بل بشيءٍ أسرع من ذاكرته.

لهذا أحبَّ الدراجات النارية قبل أن يلمس واحدة.

وُلد في مدينة الثورة، شرقيّ بغداد، في حيٍّ تتشابه فيه البيوت حتى تبدو كأنها خرجت من قالبٍ واحد، فيما تختلف المآسي داخلها كاختلاف الندوب على الوجوه.

هنـــاك، كانـــت الأزقـــة تضـــيق كلمـــا اتســـعت الحيـــاة، وكانـــت الكهربـــاء تنطفـــئ أكثـــر ممـــا تضـــيء، فيمـــا يكبـــر الأطفـــال علـــى أصـــوات المولـــدات وصـــفارات الإنذار لا على أغاني الطفولة.

لم يتذكر طالب وجه أبيه جيدًا.

الذاكرة، حين تكون فقيرة، تحتفظ بالتفاصيل الغريبة فقط.

يتذكر يده.

يـــدٌ خشـــنة كانـــت ترفعـــه أحيانًـــا فـــوق كتفيهـــا ليـــرى الشـــارع ســـاعة الاحتفـــالات السلطوية .

ويتذكر رائحة تبغٍ خفيف، وصوت سعالٍ قصير في الليل.

ثم اختفى الأب.

قيل إنه عاد من الحرب، ثم اختفى في مكانٍ ما بين الثكنة والبيت.

لم يصل جسده، ولم تصل حقيبته، حتى ساعته المعدنية لم تصل.

وصل الخبر فقط، بارداً ومختصراً كطلقة.

بعدها، صار البيت أخفّ من اللازم.

في الليل، كان يسمع أمه تبكي وهي تظنّه نائماً.

وكان يكره ذلك البكاء لأنه يجعله يشعر بعجزٍ أكبر من عمره.

وذات مساء، سألتْه أمّه وهي تخيط قميصًا قديماً:

ـــ "كبرت هسّه... شتريد تصير من تكبر؟"

فكّر قليلًا ثم قال:

ـــ "سَوّاق دراجة."

ضحكت لأول مرة منذ أشهر.

ـــ "مو طبيب؟ مو مهندس؟"

ـــ "لا."

ـــ "ليش؟"

ـــ "حتى أگدر أركض إذا صار شي."

لم تفهم يومها أن الطفل لم يكن يحلم بالمهنة... بل بالهروب.

كبر طالب فيما كانت البلاد تشيخ بسرعة.

الحرب انتهت، لكن الخوف لم ينتهِ.

ثم جاءت التسعينيات كأنها مجاعة تمشي على قدمين.

في الأسواق، كان الناس يتحدثون همسًا، كأن الجدران تعمل مخبرين.

الوجوه نحفت، الرواتب تبخرت، والرجال صاروا يشبهون ظلال أنفسهم.

أما طالب، فكان يراقب الدراجات النارية.

يقف طويلًا أمام واجهات العرض في شارع الشيخ عمر، محدقًا بالمقود، بالعجلات، بانعكاس الضوء فوق المعدن.

كان يشعر أن تلك الآلات تفهمه أكثر من البشر.

مرةً قال له صاحب محل:

ـــ "تحبها لهالدرجة؟"

أجاب طالب مبتسمًا:

ـــ "أحسها ما توقف بمكان."

قال الرجل وهو يشعل سيجارة:

— "ان شاء الله تشتري وحده من تكبر .. ارجع ال بيتكم الوقت تأخر ."

وحين اندلعت الانتفاضة عام ١٩٩١، خرج طالب مع الآخرين دون خطة واضحة.

لم يكن بطلاً، ولا ثائرًا حقيقيًا، ولا حتى شجاعًا بما يكفي.

كان فقط ممتلئًا بشيءٍ ثقيل يريد أن يصرخ.

امتلأت الشوارع بالناس.

رجال يركضون، شبّان يهتفون، نساء يراقبن الرجال من السطوح، وأصوات متداخلة تشبه مدينة تستيقظ مذعورة من كابوس طويل.

كان الهتاف يرتفع ثم ينكسر تحت أزيز الرصاص.

في تقاطع قريب من مستشفى القادسية، ظهرت سيارات القوات الأمنية فجأة.

تذكر طالب اللون أولًا.

ذلك الأخضر الداكن الذي يشبه لون الحديد الصدئ.

ثم تذكر الصوت.

الرصاص حين يمر قرب الرأس لا يُشبه ما نسمعه في الأفلام.

له صفير قصير، حاد، كأن الهواء نفسه يتمزق.

سقط شاب قربه مباشرة.

كان يهتف قبل ثانية فقط.

توقف صوته فجأة، وبقي فمه مفتوحًا كأنه لم يُكمل الجملة.

تجمّد طالب للحظة.

ثم ركض.

ركض بلا اتجاه، يدفع الناس، يتعثر، ينهض، يركض ثانية.

وحين وصل إلى زقاق ضيق واختبأ خلف بابٍ معدني، اكتشف أن ساقيه ترتجفان بعنف.

اقترب منه رجل خمسيني يلهث هو الآخر وقال:

— "ليش تركض؟"

نظر إليه طالب بعينين مذعورتين:

— "أريد أعيش."

أومأ الرجل بصمت، ثم قال:

— "كلنا."

لكن طالب شعر يومها بشيءٍ آخر.

شعر أن جزءًا منه بقي هناك، قرب الشاب الذي سقط ولم يكمل هتافه.

بعدها صار الهروب عادته السرية.

هرب من الوظائف المؤقتة إلى الأحلام الصغيرة.

من الضجيج إلى العزلة.

من السياسة إلى الصمت.

وفي كل مرة تضيق روحه، كان يستأجر دراجة نارية لساعة واحدة.

ساعة فقط.

لكنــــه خلالهــا كـــان يشـــعر أن بغـــداد تتراجـــع خلفـــه، وأن الهـــواء يغســـل شـــيئًا عالقًا داخله منذ سنوات.

كان يقود بلا وجهة، ويحب ذلك.

فالوجهات، في رأيه، تشبه النهايات.

أما الطريق، فكان أكثر رحمة.

بعد ٢٠٠٣ تغيّر كل شيء بسرعة مرعبة.

التماثيل سقطت، الوجوه تبدلت، والمدينة دخلت زمنًا مرتبكًا لا يشبه أحدًا.

لكن شيئًا واحدًا بقي ثابتًا:

رغبته القديمة.

وفي عام ٢٠٠٥، اشترى أول دراجة نارية حقيقية.

ظلّ ينظر إليها نصف ساعة كاملة قبل أن يشغّلها.

اقترب منه صديقه حيدر وضربه على كتفه:

ـــ "شلون حاس نفسك؟"

ابتسم طالب كطفلٍ أخيرًا حصل على لعبته المؤجلة وقال:

ـــ "كأني استرجعت شي ضايع مني."

سافر بعدها شمالًا مع مجموعة من الرحّالة.

كركوك. السليمانية .أربيل. دهوك.

كـــانوا ينـــامون قـــرب الأنهـــر، يشـــربون الشـــاي فـــي البـــرد، ويتحـــدثون حتـــى الفجر عن الحب والحرب والموت والهجرة.

وفي إحدى الليالي، سأله شاب كردي كان يجلس قرب النار:

ـــ "إنت منو؟"

ضحك طالب:

ـــ "ما أعرف."

ـــ "شلون يعني؟"

ظل صامتًا قليلًا، ثم قال:

ـــ "يمكن الطريق أكثر شيء يشبهني."

وللمرة الأولى شعر أن الجملة حقيقية.

مرت السنوات.

تزوج.

عمل في دائرة حكومية.

اشترى سيارة وبيتًا صغيرًا.

امتلأت جيوبه بالمفاتيح والبطاقات الرسمية والإيصالات.

لكن حياته، كلما استقرت أكثر، صار يشعر أنها تبتعد عنه.

وفي التقاعد، حدث الفراغ فجأة.

استيقظ ذات صباح ولم يكن هناك ما يفعله.

جلس قرب النافذة طويلًا.

البيت هادئ أكثر من اللازم.

حتى الساعة الجدارية بدا صوتها كأنه يسخر منه.

في المساء، ذهب إلى شارع الكفاح واشترى دراجة حديثة.

وحين سأله البائع:

— "للولد؟"

ابتسم طالب وقال:

— "إلي."

ضحك الرجل:

— "بهالعمر؟"

أدار طالب المفتاح، فاهتزّ المحرك بصوتٍ عميق.

ثم قال بهدوء:

— "بهالعمر بالذات."

الآن، لا يقود إلا ليلًا.

في الليل تصبح بغداد أقل كذبًا.

النهار يخفي الخراب بالزحام، أما الليل فيكشف كل شيء:

الجدران المثقوبة، الأرصفة المتعبة، والوجوه التي تمشي كأنها خارجة من حربٍ لم تنتهِ بعد.

يقـــود عبـــر الجســـور بـــبطء أحيانًـــا، وبســـرعة مفاجئـــة أحيانًـــا أخـــرى، كأنـــه يختبر قلبه لا الطريق.

الهواء يضرب وجهه، والمحرك يهدر تحته، فيما تتداخل داخله الأزمنة:

طفل ينتظر أبًا لن يعود.

شاب يركض تحت الرصاص.

رجل يحمل عمرًا كاملاً من الهروب الصامت.

وعند الإشارات الحمراء، كان يرى انعكاس وجهه على زجاج السيارات.

وجه رجلٍ نجا كثيرًا... لكنه لم يشعر يومًا أنه وصل.

وفي إحدى الليالي، توقف قرب نهر دجلة.

أطفأ المحرك.

فجأةً بدا الصمت هائلًا.

نظر إلى الماء طويلًا، ثم همس لنفسه:

ـــ " المهم مو ان يصل الانسان ... بل المهم ان يبقى سائرا ."

ثـــم أعـــاد تشـــغيل الدراجـــة، واختفـــى داخـــل ليـــل بغـــداد، بينمـــا ظـــل صـــوت المحـــرك يتـــردد بعيـــدًا، كأنـــه شـــيءٌ يحـــاول الهـــرب مـــن الـــذاكرة... ولا يـــنجح تمامًا.

الرجل الذي كان يسافر ليعود إلى نفسه (٦٩)

منذ سنوات، اعتاد محمود أن يختفي كلما شعر أن حياته بدأت تتشابه مع نفسها.

لم يكن يهرب من مدينة بعينها، بل من ذلك الإيقاع البطيء الذي يجعل الأيام نسخًا متكررة، والوجوه متشابهة، والروح مثل غرفة مغلقة لا يدخلها الهواء... ؛ لذلك، كان يسافر كثيرًا، كأن السفر طريقته الوحيدة لتأجيل الانهيار.

وكان يؤمن، في سرّه، أن المدن لا تُزار... بل يُصغى إليها.

لهذا، ما إن يصل إلى مكان جديد حتى يبدأ طقسه الخاص:

يمشي طويلًا بلا وجهة، يدخل المقاهي الصغيرة، يراقب الأرصفة، نبرة الباعة، تعب العيون، انكسار الضوء على النوافذ القديمة... ؛ كان يبحث عن شيء لا يعرف اسمه تمامًا، لكنه يشعر به يمرّ قربه أحيانًا، مثل عطر قديم أو ذكرى ناقصة.

في تلك الليلة، وصل إلى مدينة ساحلية باردة لم يرغب حتى في معرفة اسمها جيدًا.

استأجر غرفة في فندق قديم يطل على الميناء... ؛ كان المبنى متعبًا، والجدران تحمل رائحة رطوبة تشبه البيوت التي عاشت أكثر مما ينبغي.

ألقى حقيبته قرب السرير، فتح النافذة، وأشعل سيجارة.

في الأسفل، كانت المدينة تتحرك ببطء تحت المطر:

سيارات متعبة، نساء يركضن تحت المظلات، ضوء أحمر يرتجف فوق حانة بعيدة، ورجل مخمور يضحك وحده كأن العالم انتهى قبله بسنوات.

راقب المشهد طويلًا.

ثم همس لنفسه:

«كل مدينة تُخفي جرحها في الليل.»

في الصباح، خرج يتمشى قرب الميناء.

دخل مقهى صغيرًا شبه فارغ، وجلس قرب النافذة كعادته.

كانت هناك امرأة تجلس وحدها في الزاوية المقابلة.

لم تكن جميلة بالمعنى التقليدي، لكن وجهها كان يحمل ذلك النوع من الحزن الذي يجبرك على النظر مرتين.. , كانت تقرأ كتابًا، وإلى جانبها فنجان قهوة بارد لم تلمسه منذ وقت طويل.

تبادل معها نظرة قصيرة.

ثم عادت إلى كتابها.

لا يعرف لماذا شعر أنه يعرفها منذ زمن بعيد.

طلب قهوته، وأخرج دفتره الصغير، لكنه لم يكتب شيئًا.

منذ أشهر، صار عاجزًا عن الكتابة.

كان يسافر كثيرًا، يرى كل شيء، لكنه يشعر أن الكلمات بدأت تهجره ببطء، كأن روحه تعبت من تحويل الحياة إلى جمل.

وحين همّ بالمغادرة، سقطت من المرأة ورقة صغيرة دون أن تنتبه.

التقطها بهدوء.

كانت صورة قديمة لرجل وطفلة صغيرة أمام منزل ريفي.

على ظهر الصورة، جملة بخط يدوي مرتجف:

«لا تسامحني لأنني نجوت وحدي.»

تجمّد للحظة.

رفع رأسه نحوها، لكنها كانت تنظر عبر النافذة، بعينين غارقتين في مكان آخر.

اقترب منها وسلّمها الصورة.

حين رأت ما في يده، تغيّر وجهها فجأة، كأن أحدهم فتح بابًا قديمًا داخلها.

قالت بصوت خافت:

— ظننت أنني فقدتها.

هزّ رأسه مبتسمًا:

— بعض الأشياء لا تضيع... ؛ هي فقط تختبئ منا.

نظرت إليه طويلًا، ثم قالت:

— هل تسافر كثيرًا؟

ضحك بخفة:

— أكثر مما ينبغي.

— ولماذا؟

أشعل سيجارة أخرى قبل أن يجيب:

— لأنني كلما بقيت طويلًا في مكان واحد... أشعر أن شيئًا داخلي يبدأ بالتعفن.

ابتسمت، لكن عينيها بقيتا حزينتين.

بعد صمت قصير قالت:

ـــ وأنـــا أهـــرب للأســـباب نفســـها تقريبًـــا... لكـــن المشـــكلة أن الإنســـان يحمـــل نفسه معه أينما ذهب.

كانت الجملة كافية لتهزّه من الداخل.

شـعر فجـأة أنهـا لا تتحـدث عنـه فقـط، بـل عـن ذلـك التعـب القـديم الـذي يطـارده منذ سنوات.

جلسا ساعات طويلة.

تحـدثا عـن المـدن، والوحـدة، والمـوتى الـذين يواصـلون العـيش داخلنـا، وعـن الأشـخاص الـذين نغـادرهم جسـديًا لكـنهم يظلـون عـالقين فـي أعصـابنا مثـل شظايا زجاج.

وحين بدأ المساء يهبط على الميناء، سألها أخيرًا:

ـــ من الرجل في الصورة؟

صمتت طويلًا.

ثم قالت:

ـــ زوجي... وابنتي.

لم يعرف ماذا يقول.

أشاحت بعينيها نحو البحر:

ـــ قبل ثلاث سنوات، تعرّضنا لحادث... ؛ السيارة سقطت في النهر.

توقفت قليلًا.

ـــ أنا وحدي خرجت حيّة.

أخفض محمود رأسه ببطء.

وفجأة، فهم تلك العبارة المكتوبة خلف الصورة.

«لا تسامحني لأنني نجوت وحدي.»

كانت المرأة تتكلم بهدوء مخيف، كأنها تروي قصة حدثت لشخص آخر.

أما محمود، فكان يسمع شيئًا آخر تمامًا.

كان يسمع صوت أخيه.

الصوت الذي حاول دفنه سنوات طويلة.

أخوه الأصغر، سامر.

في طفولتهما، أخذه محمود ذات صيف إلى النهر رغم تحذيرات الأم.

كان الماء عاليًا يومها.

قفز سامر أولًا.

ثم اختفى.

ومنذ تلك الحادثة، لم يعد محمود قادرًا على البقاء طويلًا في أي مكان.

الآن فقط فهم.

لم يكن يسافر حبًا بالمدن.

بل هربًا من ذلك النهر.

شعر فجأة أن الغرفة تضيق، وأن ضجيج المقهى صار بعيدًا كالحلم.

نهض ببطء وخرج إلى الشارع تحت المطر.

كان المطر باردًا، حادًا، كأنه يسقط من داخل ذاكرته لا من السماء.

مشى بلا اتجاه.

المدينـــة حولـــه كانـــت تلمـــع بأضـــواء مشوشـــة، والوجـــوه تمـــرّ كأشـــباح، لكنـــه للمرة الأولى منذ سنوات لم يشعر أنه غريب عنها.

كان يشعر أنه غريب عن نفسه فقط.

توقف فوق الجسر الحجري المطل على الميناء.

أشعل سيجارة، لكن يده كانت ترتجف.

حدّق طويلًا في الماء الأسود تحت الجسر.

ثم همس بصوت مبحوح:

«أنا لا أسافر كي أجد نفسي...

أنا أسافر كي لا أسمع صوته المبحوح .»

في تلك اللحظة تحديدًا، أدرك الحقيقة التي ظل يهرب منها عمرًا كاملًا:

الإنسان لا يهرب من ماضيه بالسفر...

بل يأخذه معه كظلّ داخل الحقيبة.

عاد إلى الفندق قرب الفجر.

لم ينم.

جلـــس قـــرب النافـــذة يراقـــب اخـــتلاط الضـــباب بأضـــواء المينـــاء، فيمـــا كانـــت المدينة تبدو ككائن يحتضر بصمت.

فتح دفتره الصغير بعد أشهر من العجز.

وظل ينظر إلى الصفحة البيضاء طويلًا.

ثم كتب جملة واحدة فقط:

«كل الطرق التي سلكتها...

كانت تؤدي إلى ذلك الطفل الغارق في داخلي.»

أغلق الدفتر.

وفي الصباح، غادر الفندق قبل أن يستيقظ أحد.

لكن عامل الاستقبال وجد، فوق الطاولة، الصورة القديمة نفسها.

أما خلفها، فقد أضيف سطر جديد بخط مختلف:

«أحيانًا لا ننجو لأننا أقوى... , بل لأن الحياة تحتاج شاهدًا يتذكّر الألم.»

الذين نبحث عنهم في مرايا الآخرين (٧٠)

في بغداد، حيث تتنفس المدينة من شقوق جدرانها المتعبة، وحيث لكل رصيف ذاكرة، ولكل نخل حكاية لم تُروَ بعد، كان زيد يدير شركته الصغيرة للسياحة والسفر.

لم تكن مجرد مهنة، بل كانت ثقباً في جدار الواقع يطل منه على أرواح العابرين.

كان زيد في الخامسة والأربعين، بوجهٍ نحته الزمن كما ينحت دجلة ضفتيه، بعينين غائرتين تحملان لون العسل الممزوج بغبار الطرقات.

كان يعرف أن المدن كالنساء، لا تكشف سرها لمن يقف عند بواباتها، بل لمن يتسلل إلى أحشائها في ساعة متأخرة من الليل، عندما تسقط الأقنعة وتنكشف الندوب.

في مكتبه المطل على شارع فلسطين، حيث يمتزج عبق الكتب القديمة برائحة القهوة والغبار، كان يستقبل زبائنه واحداً تلو الآخر... ؛ موظفون أنهكتهم الدوائر الرسمية، عشاق يبحثون عن متنفس، رجال يحملون حقائبهم فارغة وقلوبهم مثقلة، ونساء يعبرن كالظلال حاملات أسراراً لا تبوح بها إلا للمدن الغريبة.

دخل طه في ظهيرة يوم تموزي حار، شاب في الثلاثين، بملامح لم تتبلور بعد، كتمثال لم يكتمل نحته... ؛ كان يحمل في صوته نبرة الأعظمية العتيقة، وفي عينيه زرقة خفيفة كأنها سرقة من سماء بعيدة... ؛ جلس على الكرسي المقابل لزيد، وبدأ الحديث عن رحلة إلى أربيل، ثم تكررت اللقاءات، وتمدّدت الصداقة بينهما كالنبات البري الذي لا يحتاج إلى عناية.

صار زيد يرتاد مطعم طه في الأعظمية كل خميس، حيث تختلط رائحة الكباب بخشب الأراكيل ، وحيث يتسلل صوت أم كلثوم من راديو قديم كأنه قادم من زمن آخر... ؛ كانا يتبادلان الصمت أكثر مما يتبادلان الكلام، فالصمت بين رجلين يفهما الحياة أبلغ من ألف حكاية.

في مساء رمادي، وقد لفّ الغسق بغداد بعباءته المخملية، دخل زيد المطعم كعادته... ؛ لكن شيئاً ما كان مختلفاً هذه المرة، كأن الهواء صار أثقل، كأن الضوء صار أكثر التصاقاً بالأشياء.

وهنــاك، فــي الزاويــة البعيــدة حيــث يجلــس طــه عــادة، رأى امــرأة لــم تشــبه أي امرأة مرت من قبل.

كانــت ســهام تجلــس كأنهــا طــائر يحــط علــى غصــن لا يخصــه... ؛ وجههــا المســتدير يفــيض بضــوء داخلــي، كأنهــا تحمــل قمرهــا الخــاص تحــت جلــدها... ؛ شــفتاها الممتلئتــان تحمــلان لــون التمــر فــي آب، تنفرجــان عــن ابتســامة غامضــة كأنهــا تعــرف كــل شــيء ولا تقــول شــيئاً... ؛ عيناهــا الســوداوان الواســعتان كليــل البصــرة، تلمعــان بــذكاء مفتــرس، وفيهمــا عمــق لا يُــدرك، كأنهما بئران تؤديان إلى سراديب الروح.

خصــرها النحيــل يتمايــل تحــت ثوبهــا الأســود كقصــبة علــى ضــفة نهــر، ويــداها الطويلتــان تتحركــان فــي الهــواء كأنهــا ترســم لوحــة غيــر مرئيــة... ؛ كانــت تضــحك مــع طــه، وصــوت ضــحكتها ينســاب كــالزئبق، ثقــيلاً وســائلاً، يمــلأ الفراغات بين الكلمات، ويتسلل إلى مسام الرجال كالدخان.

جلــس زيــد علــى طاولــة مجــاورة، وراح يراقبهــا خلســة... ؛ لــم يكــن يراقــب جســدها فحســب، بــل كــان يراقــب شــيئاً آخــر لا يُــرى، شــيئاً ينبعــث منهــا كالرائحــة، كــالطيف، كالوعــد الغــامض... ؛ كــان يشــعر أن هــذه المــرأة تحمــل مفتاحاً لباب لم يفتحه بعد، أو ربما لجرح لم يلتئم.

عنــدما انصــرفت، مشــت كمــا تمشــي القطــط، بخطــوات لا تُســمع، تاركــة وراءها عطراً ثقيلاً كالذكرى.

التفت زيد إلى طه وسأله بصوت حاول أن يجعله عابراً:

"من تكون هذه؟"

ابتســم طــه ابتســامة مــن يمســك بطــرف الخــيط، وقــال بصــوت فيــه مكــر التجــار ونعومة العارفين:

"أعجبتك سهام؟"

"بلى... أعجبتني حد الوجع."

ضحك طه ضحكة خشخشة كأنها عملات في جيب مفضوض:

"وما هدية من يأتيك بها؟"

"سفرة إلى أربيل... ورحلة إلى حيث تشاء."

صفق طه على كتفه بقوة:

"إذن اعتبر سهام في أحضانك... لكن احذر يا زيد، هذه المرأة ليست كغيرها... ؛ هذه امرأة تبتلع الرجال ولا تلفظ عظامهم."

في شقة شارع فلسطين، حيث يتراقص غبار المدينة في عمود الضوء المنحدر من النافذة، وحيث تئن المراوح القديمة كأنها تصلي، التقى زيد بسهام بعد أسبوعين من المفاوضات الصامتة والرسائل المقتضبة.

كانت الشقة متواضعة، لكنها حملت رائحته، رائحة رجل يعيش وحده بين الكتب وخرائط المدن البعيدة... ؛ على الجدران، لوحات لبغداد القديمة، وصور لنساء من أزمنة مختلفة، وتذكارات من كل بلد زاره.

جلست سهام على (كنبة / قنفة) المخمل الأحمر، خلعت حذاءها الأسود بحركة بطيئة متعمدة، كأنها تخلع جلدها معه... ؛ مدت ساقيها الطويلتين، وطلبت خمراً. كان صوتها يحمل نبرة آمرة وناعمة معاً، كسكين ملفوفة بالحرير.

احتسيا الخمر في صمت ثقيل أولاً.

كان الصمت بينهما مادياً، يمكن لمسه، يمكن شمه.

ثـــم بـــدأت أصــــابعهما تـــتلامس، أولاً بتوســـل المتســـولين، ثـــم بجـــرأة الاشـــقياء والمغـــامرين ... ؛ ثـــم انهـــارت المســـافات دفعـــة واحـــدة، كأنهمـــا كانـــا ينتظـــران هذه اللحظة منذ زمن طويل.

انقـض كـل منهمـا علـى الآخـر بضـراوة الجـائعين، بجـوع الـذين اكتفـوا طـويلاً بالخبز اليابس، بظمأ الذين ساروا في الصحاري دون واحة.

رأى فيهـــا زيـــد كـــل النســـاء اللـــواتي افتقـــدهن، ورأت فيـــه كـــل الرجـــال الـــذين افتقدتهم.

لمـــدة ثـــلاث ســـاعات كاملـــة، كانـــت الشـــقة كونـــاً مصـــغراً... ؛ كانـــت أجســـادهما تتصـــارع وتتصـــالح وتنصـــهر وتنفصـــل ثـــم تلـــتحم مـــن جديـــد... ؛ كانـــا يتبـــادلان الأدوار، تـــارة هـــو القائـــد وهـــي التابعـــة، وتـــارة هـــي الســـيدة وهـــو العبـــد، وتـــارة هما ندّان في معركة لا غالب فيها ولا مغلوب.

كانـــت أوضـــاعهما الجنســـية أشـــبه بمخطوطـــات قديمـــة، كـــل وضـــعية تحكـــي قصـــة، كـــل حركـــة تنطـــق بلهجـــة... ؛ تـــارة كالحيوانـــات الأولـــى، وتـــارة كالآلهـــة المنســـية... ؛ كـــان جســـدها خريطـــة اكتشـــفها بالإصـــبع تلـــو الإصـــبع، بالشـــفة تلـــو الشـــفة، بـــالعرق تلـــو العـــرق... ؛ وكـــان جســـده أرضـــاً مجهولـــة امتطتهـــا بجوارحها كلها.

فـــي لحظـــة، بينمـــا كانـــا يســـتريحان مـــن عنـــاق مرهـــق، ســـألها زيـــد بصـــوت يقطـــر عرقاً وخمراً ودهشة:

"من علمك كل هذه الفنون؟ من أين أتيت بكل هذه الأسرار؟"

ابتســـمت ســـهام ابتســـامة المـــرأة التـــي سُـــئلت الســـؤال نفســـه ألـــف مـــرة، وقالـــت بصوتها العميق الذي يحمل رائحة الدخان والقهوة:

"الحيـــاة أكبـــر مدرســـة... والحيـــاة قاســـية فـــي دروســـها... ؛ عاشـــرت رجـــالاً كثيـــرين، وصـــادقت نســـاء كثيـــرات، وفـــي كـــل مـــرة كنـــت أتعلـــم شـــيئاً جديـــداً.

لكــن..."، صــمتت قلــيلاً، وحــدقت فــي الســقف كأنهــا تقــرأ شــيئاً مكتوبــاً هنــاك، "لكننــي لــم أتعلــم كــل هــذا مــن أحــد... كــل هــذا كــان بــداخلي، وكــانوا هــم مجــرد مفاتيح."

ثــم انفجــرت تضــحك ضــحكة فيهــا مــرارة وفيهــا انتصــار: "أولــيس هــذا مــا تفعلونـــه أنـــتم أيضـــاً؟ تتعلمـــون مـــن نســـاء كثيـــرات، ثـــم تـــدّعون أن المعرفـــة فطرتكم؟"

ضــحك زيــد، وســألها فجــأة، بصــوت يمــازح ولا يمــازح، كمــن يلقــي حجــراً فــي بئر ليسمع صداه:

"ومن كان أول من مارس معك السفاح؟ من كان المفتاح الأول؟"

تغيــر وجــه ســهام فجــأة... ؛ لــم يعــد وجــه المــرأة الثلاثينيــة الواثقــة المتمرســة، بــل صــار وجــه فتــاة صــغيرة، مراهقــة خائفــة، شــيء مــا انكســر فــي عينيهــا، أو ربما شيء ما عاد إلى مكانه.

ســحبت الغطــاء علــى جســدها العــاري، كأنهــا فجــأة تــذكرت أنهــا عاريــة لــيس مـــن الثيـــاب فقـــط، بـــل مـــن كـــل شـــيء... ؛ أشـــعلت ســـيجارة، وأخـــذت نفســـاً عميقاً، ثم قالت بصوت هادئ، كمن يقرأ من كتاب قديم:

"كان اسمه عباس... منذ خمسة عشر عاماً... جارنا في الأعظمية."

صــمتت، وأطلقــت الــدخان مــن فمهــا بــبطء كأنهــا تطلــق روحــاً محبوســة... ؛ ثــم تابعــت، وصــوتها يــأتي مــن مكــان بعيــد، مــن زمــن مــا قبــل هــذه الغرفــة، مــا قبــل هذا الجسد، ما قبل كل شيء:

"كنـــت فـــي الســـابعة عشـــرة، وكـــان هـــو فـــي التاســـعة عشـــرة... ؛ كـــان شـــاباً لا يشـــبه أحـــداً، لا يعمـــل ولا يـــدرس ولا يفكـــر فـــي المســـتقبل... , كـــان 'مطيرجيـــاً'، يربـــي الحمـــام علـــى ســـطح دارهـــم... , كـــان يقضـــي أيامـــه كلهـــا هنـــاك، بـــين

الطيور، يطعمها ويطلقها ويراقبها.. , كان يحمل همّ الحمام ولا يحمل همّ غد."

انحنت إلى الأمام، ووضعت السيجارة في المنفضة، ثم تابعت ببطء أكثر، كأن الكلمات حجارة تخرج من بئر عميقة:

"أخته لمياء كانت صديقتي.. , وكنت أذهب إلى بيتهم بحجة زيارة لمياء، لكن عيناي كانتا تبحثان عنه.. , كنت أحبه... كيف أحببته؟

لا أعرف.. , ربما لأنه كان جميلاً كغيمة لا تمطر، أو ربما لأنه كان فارغاً، وفارغاً حد الامتلاء.. , كان يشبه قصيدة لم تُكتب، أو نهراً ضاع في الصحراء."

"كنت أصعد إلى السطح بحجة مساعدة لمياء في نشر الغسيل، فأراه هناك، محاطاً بحمامه الأبيض، كأنه ملاك سقط من السماء ولا يريد العودة.. , كان ينظر إليّ أحياناً بنظرات تحمل كل الوعد ولا تقدم شيئاً."

"وفي يوم، جاء حميد ليخطبني.. , كان شاباً جيداً، يعمل مع والده في التجارة، ابن ثلاثة وعشرين، يريد بيتاً وأطفالاً ومستقبلاً.. , ركضت إلى عباس كمن يركض إلى الماء... أخبرته."

تنهدت سهام تنهيدة طويلة، كأنها تعيش اللحظة من جديد، وواصلت:

"قال لي: تزوجيه، هو أفضل لك مني.. , أنا عاطل، لا أعرف شيئاً، لا أستطيع تحمل المسؤولية.. , قالها بهدوء، بنفس الهدوء الذي يراقب به حمامه وهو يطير بعيداً.. , كأنه كان يتحدث عن شيء لا يعنيه، كأن قلبي لم يكن ينفطر أمامه."

"عدت إلى البيت أبكي، وتزوجت حميد.. , كان زوجاً طيباً، محترماً، حنوناً.. , لكنه..." صمتت، ثم أكملت بصوت أكثر حدة، "لكنه كان ناقصاً.. ؛ لم أكن أعرف ما الذي ينقصه بالضبط، لكن شيئاً ما لم يكتمل.

كــان يلمــس جســدي، لكنــه لــم يلمــس تلــك المنطقــة الخفيــة التــي لا اســم لهــا.. , كــان يحبنــي، لكــن حبــه كــان معقــولاً، مرتبــاً، كغرفــة جلــوس لا يجــوز العبــث فيهــا.. , لــم يكــن يعــرف أن المــرأة تحتــاج أحيانــاً إلــى أن تُــدمّر، أن تُحطــم، أن تُبعثر لتشعر بأنها امرأة."

ثــم جــاء يــوم الزيــارة.. , بعــد شــهر مــن الــزواج، عــدت لزيــارة أهلــي.. , وجــاءتني لميــاء وقالــت: أعــددنا لــك وليمــة بمناســبة عرســك، ثــم نــذهب إلــى الطبيبة النسائية.. ؛ صدّق أهلي، وصدقت أنا، فذهبت معها.

ولكــن مــا إن وطــأت قــدماي عتبــة بيــتهم، حتــى اختفــت لميــاء، وظهــر هــو.. , أمســك بــي مــن معصــمي بقــوة، وســحبني إلــى غرفتــه.. , لــم يقــل شــيئاً.. , لــم يعتــذر، لــم يبــرر، لــم يشــرح.. , عينــاه كانتــا تحمــلان شــيئاً مختلفــاً عــن المــرة الســابقة.. , لــم تكونــا عينــي الشــاب اللامبــالي، بــل عينــي رجــل ظــل شــهراً كاملاً يحترق.

أغلــق البــاب، ثــم انهــال علــيّ.. , لــم يكــن ذلــك حبــاً، لــم يكــن ذلــك جنســاً، كــان شــيئاً آخــر... ؛ كــان كــالوحش الــذي أفلــت مــن قفصــه.. , كــان كالإعصــار الــذي يكتســح كــل شــيء.. , لــم يتــرك شــبراً مــن جســدي إلا قبلــه، لــم يتــرك مســاماً إلا شمه، لم يترك خلية إلا أيقظها.

كــان يعضــني فــي أمــاكن لــم أكــن أعــرف أنهــا موجــودة، كــان يلحــس عرقــي كأنــه يقــرأ كتابــاً بلغــة النكــاح.. , كانــت يــداه فــي كــل مكــان، وفمــه فــي كــل مكــان، وحــرارة جســده تحرقنــي مــن الــداخل.. , شــعرت أن روحــي تخــرج من جسدي وتعود، شعرت أن السماء تنشق والأرض تنطوي.

مــن الصــباح حتــى الغــروب، لــم يتوقــف.. , كــان كــالثور الهــائج، يقلبنــي مــن وضــع إلــى وضــع، مــن حالــة إلــى حالــة.. ؛ اثنتــا عشــرة مــرة، أو ربمــا أكثــر.. ؛ فــي كــل مــرة كــان يــئن ويصــرخ كأنــه يمــوت، وفــي كــل مــرة كنــت أمــوت معــه

وأعـود.. ؛ حتـى خـرج الـدم مـن ركبتـي، حتـى خـرج صـوتي مـن حلقـي، حتـى فقـدت الإحسـاس بجسـدي كلـه مـا عـدا تلـك النقطـة التـي صـارت مركـز الكون."

سـكتت سـهام.. , كـان وجههـا غريبـاً وهـي تحكـي.. , لـم يكـن وجـه امـرأة تحكـي عـن اغتصـاب، ولـم يكـن وجـه امـرأة تحكـي عـن حـب.. , كـان وجهـاً معلقاً بين الحالتين، كأن الحكاية نفسها لا تعرف أين تضع نفسها.

ثم أكملت بصوت هامس، كمن يعترف بسر خطير:

"المصـيبة... المصـيبة أننـي لـم أشـعر أننـي امـرأة إلا فـي ذلـك اليـوم.. , لأول مـرة فـي حيـاتي، شـعرت بـأنوثتي تسـري فـي دمـي كالنـار، كـالهواء بعـد احتضـار طويـل.. ؛ شـعرت أن جسـدي كلـه ينطـق، أن كـل خليـة فـيّ تصـرخ: أنا هنا! أنا حية! أنا امرأة!"

"عـدت إلـى بيـت أهلـي بصـعوبة، ووجـع الأنوثـة يمـلأ عظـامي.. ؛ مشـيت كالملدوغـة، كمـن قـام مـن قبـره.. ؛ كانـت ركبتـاي تنزفـان، وفخـذاي تؤلمـان، وكـان شـيء مـا فـي أحشـائي يحتـرق... ؛ لكـن الألـم لـم يكـن جسـدياً فقـط... , كـان هنـاك ألـم آخـر، ألـم الـوعي بـأن شـيئاً مـا انتهـى، بـأن بابـاً أغلـق، بـأنني لـن أعود كما كنت أبداً."

"غـادر عبـاس بعـد ذلـك بأسـبوعين .. , بـاع أهلـه الـدار ورحلـوا إلـى مكـان لا يعرفـه أحـد.. ؛ انقطعـت أخبـاره، كـأن الأرض ابتلعتـه.. , وبقيـت أنـا... مـع ذكـرى ذلـك اليـوم، مـع طيـف جسـده، مـع رائحتـه التـي ظلـت تطـاردني لسنوات."

"ومـات زوجـي بعـد ثـلاث سـنوات بمـرض السـرطان ... ؛ فجـأة، دون مقـدمات.. , وبقيـت وحـدي.. , منـذ ذلـك الحـين، وأنـا أبحـث عـن عبـاس فـي

كـل رجـل.. , أفـتش عـن ملامحـه تحـت كـل وجـه، عـن رائحتـه فـي كـل عنـاق، عـن وحشـيته فـي كـل قبلـة.. , أنـام مـع هـذا وذاك، لـيس بحثـاً عـن المتعـة، بـل بحثـاً عـن ذلـك الإحسـاس الأول، عـن تلـك الهـزة التـي شـعرت بهـا فـي غرفتـه ذلك اليوم."

توقفـت، وأطفـأت السـيجارة فـي المنفضـة بقـوة، ثـم أكملـت بصـوت يحمـل رائحة العدم:

"ولا أجـده... لا أجـده أبـداً.. , يـأتي الرجـال ويـذهبون، يمارسـون الجـنس بطـريقتهم المتحضـرة المهذبـة، يطلبـون الإذن قبـل كـل حركـة، يعتـذرون بعـد كـل قبلـة.. , رجـال لطيفـون، محترمـون، يحبـون بتـردد وينتهـون بسـرعة.. , ولا أحد منهم... لا أحد... يفعل بي ما فعله عباس."

ضحكت ضحكة مرة، كأنها تكتشف حقيقة سخيفة للتو:

"ألـيس هـذا مضـحكاً؟ نحـن النسـاء، نهـرب ممـن يحترمنـا، ونـركض نحـو مـن يعـذبنا.. , نهـرب مـن اللطـف الزائـد كأنـه مصـيدة، ونلتصـق بالقسـوة كأنهـا خـلاص.. , أنـا لا أبحـث عـن رجـل، أنـا أبحـث عـن ذلـك الشـعور، عـن أن أكون دمية في يدي رجل يعرف كيف يكسرني."

حـلّ الصـمت بينهمـا.. , صـمت طويـل، ثقيـل، صـمت يحمـل كـل مـا قيـل ومـا لـم يُقـل. كـان زيـد ينظـر إليهـا بانبهـار ورعـب.. , لـم تكـن مجـرد امـرأة تحكـي ماضـيها، كانـت مـرآة يـرى فيهـا كـل الرجـال أنفسـهم، ويـرى فيهـا سـقوط الأساطير التي بناها عن الحب والرغبة.

فـي تلـك الليلـة، بينمـا كانـت سـهام نائمـة بجانبـه، وعطرهـا يمـلأ الغرفـة كشـبح، بقـي زيـد مسـتيقظاً حتـى الفجـر.. , كـان يفكـر فـي كـل النسـاء اللـواتي

عـرفهن، فـي كـل المـدن التـي زارهـا، فـي كـل الحكايـات التـي سـمعها.. , وفجأة، ضربه الفهم كالبرق:

نحـن لا نحـب مـن يحسـن إلينـا... , نحـن نحـب مـن يحفـر فينـا عميقـاً، حتـى لـو كـان الحفـر مؤلمـاً.. ؛ نحـن لا نقـع فـي غـرام الوجـوه الجميلـة ولا الأخـلاق النبيلـة... ؛ بـل نقـع فـي غـرام النـدوب التـي يتركونهـا فينـا.. , نـدوب لا تلتـئم، ندوب تبقى مفتوحة كالجروح التي نقدسها.

نحـن، رجـالاً ونسـاءً، نقضـي أعمارنـا نبحـث عـن شـخص واحـد، لـيس لأنـه كـان الأفضـل، ولا لأنـه كـان الأجمـل، ولا لأنـه كـان الأكثـر حبـاً... ؛ بـل لأنـه كان الأعمق أثراً.. , لأنه حفر فينا بئراً لا تملؤه كل أمطار العالم.

كانـت سـهام تبحـث عـن عبـاس فـي كـل رجـل، وهـو ربمـا كـان يبحـث عـن شـيء مـا فـي كـل مدينـة سـافر إليهـا، فـي كـل امـرأة عرفهـا.. , كلانـا لاجئـون في مطار الذاكرة، ننتظر طائرة لن تقلع أبداً.

فـي الصـباح، اسـتيقظت سـهام، وجمعـت أغراضـها بصـمت.. , قبـل أن تخرج من الباب، التفتت إليه وقالت:

"لا تبحـث عنـي... فأنـا لا أبقـى.. , أنـا مجـرد محطـة فـي رحلـة رجـال كثيرين، كما أنهم محطات في رحلتي نحو لا شيء."

ثـم خرجـت، تاركـة وراءهـا فراغـاً لـم يسـتطع زيـد أن يمـلأه.. , فراغـاً يشـبه فـراغ المدينـة بعـد رحيـل مـن نحـب، فراغـاً يشـبه الصـمت بعـد كلمـة لا يمكـن استعادتها.

وقـف عنـد النافـذة، وراقبهـا تبتعـد فـي شـوارع بغـداد الصـباحية.. , كانـت تمشي كما دخلت حياته، كالظل، كالطيف، كالذكرى التي لم تتكون بعد.

ثم جلس على مكتبه، وأخرج دفتراً قديماً، وكتب سطراً واحداً:

"الـذين نبحـث عـنهم فـي مرايـا الآخـرين... لا وجـود لهـم.. , إنهـم نحـن... فـي لحظة لم نعد نقدر على استعادتها."

ثـم أغلـق الـدفتر، وأحـس أن بغـداد كلهـا صـارت تشـبه سـهام.. , مدينـة تبحـث عـن نفسـها فـي مرايـا الماضـي، ولا تجـد سـوى الحنـين إلـى خـراب لا يمكـن ترميمه.

الدرجات التي لا تُرى.. (٧١)

المشهد الأول: النشأة في رحم المحلة

فـي الأزقـة القديمـة مـن بغـداد، حيـث كانـت البيـوت تتكـئ علـى بعضـها كمـا يتكـئ الفقـراء علـى الأمـل، وُلـدت صـداقة غريبـة بـين طفـلٍ اسـمه محمـد ورجـلٍ اسـمه المُلّـة ياسـين... ؛ كانـت العلاقـة بينهمـا تشـبه علاقـات الجيـران العادية؛ كانت أشبه بخيطٍ خفيٍ بين عالمين: عالم الطين وعالم الروح .

كانـت المحلـة رحمـاً كبيـراً يضـم الجميـع، وبيوتهـا المتلاصـقة شـرايين تنـبض بالأطفـال الـذين يجوبونهـا كالكهربـاء فـي أسـلاك مكشـوفة... ؛ فـي ذلـك الـزمن البعيـد، زمـن السـبعينات الـذي يلفـه ضـباب الحنـين، كـان محمـد طفـلاً لا يعرف أن الذاكرة ستصبح يوماً معبداً للغياب .

كـان بيـت الملـة ياسـين ملاصـقاً لبيـتهم، يفصـل بينهمـا جـدار رقيـق يحمـل أصـوات البكـاء فـي الليـل وأصـوات الضـحك فـي النهـار... ؛ كـان الأطفـال يـدخلون البيـوت بـلا اسـتئذان، فـالقلوب كانـت تسـبق الأبـواب فـي الانفتـاح... ؛ نعـم ,أن بيـوت المحلّـة كلهـا كانـت متجـاورة بـالقلوب قبـل الجـدران... ؛ و

كـان الأطفـال يركضـون مـن بيـتٍ إلـى بيـت كمـا لـو أن الحـيّ بيـتٌ واحـدٌ كبيـر، تتنقّـل فيـه الضـحكات كمـا تتنقّـل العصـافير بـين الأشـجار... ؛ الأبـواب مفتوحـة، والقلـوب أوسـع مـن الأزقّـة، والضـجيج الطفـولي يمـلأ الهـواء كأنـه صلاةٌ جماعية بريئة .... .

لكـن بيـت المُلّـة ياسـين كـان مختلفًـا ... ؛ كأنـه محطـة اسـتراحة لأرواحهـم المتعبـة مـن لهـو الطفولـة... , لـه نكهـة خاصـة , كـان الأطفـال حـين يدخلونـه يشـعرون بشـيءٍ غـامضٍ يتسـلّل إلـى صـدورهم... ؛ كـأن الـزمن يبطـئ، وكـأن الصـخب ينحنـي احترامًـا لشـيءٍ لا يُـرى... ؛ عنـدما يدخلونـه يشـعرون بالراحـة تغمـرهم كالمـاء الـدافئ، أصـواتهم العاليـة تخفـت، شـجاراتهم الصـغيرة تتبـدد , ويحـول تـدافعهم الطفـولي الـى سـكينة غيـر مفهومـة... ؛ كـانوا لا يـدرون أن القداسـة تنتقـل بالعـدوى، وأن جـدران بيـت يصلي فيه صاحبه خمسين عاماً تتشرب النور، ثم تبعثره على من يدخل .

وكـان الملـة ياسـين يقـف للصـلاة كمـن يقـف علـى حافـة الكـون، يـدعو الله ويبكـي... ؛ بكـاؤه لـم يكـن بكـاء حـزن، بـل بكـاء عشـق، بكـاء مـن اشـتعلت فيـه روحـه حتـى فاضـت مـن عينيـه... ؛ ولـم يكـن بكـاء رجـلٍ منكسـر، بـل بكـاء رجـلٍ يـرى شـيئًا لا يـراه الآخـرون... , كانـت دموعـه تسـقط كمـا تسـقط نجـوم بعيـدة فـي بحـر الليـل... ؛ كـانوا يرونـه قائمـاً فـي المحـراب فيندهشـون: كيـف يمكن لإنسان أن يقف هكذا ساعات كمن يخاطب من يراه؟!

كـان كالشـجرة التـي تمـتص نـور السـماء بجـذورها، إلا أن جـذوره كانـت فـي الأرض وقلبه في السماء .

وعنـدما كـان ينتهـي مـن صـلاته، كـان يسـتقبلهم بوجهـه البشـوش وضـحكته الهادئة... ؛ لكن عينيه... آه من عينيه!

كانـت تنظـر إلـيهم لكنهـا تـرى شـيئاً آخـر، شـيئاً وراءهـم، خلفهـم، فـي أفـق بعيـد لا تـراه العيـون العاديـة... ؛ كانـت عينـاه تنظـران إلـى السـماء بينمـا هـو علـى الأرض، وكـان تأملـه أشـبه بالشـرود الـذهني، أو الإغمـاء أحيانـاً، كمـن يختطـف مـن عـالم إلـى آخـر، ثـم يعـود محمـلاً بأسـرار لا يسـتطيع البـوح بهـا

... ؛ نعـــم , عينـــاه لـــم تكونـــا تنظـــران إلـــى النـــاس بقـــدر مـــا كانتـــا تنظـــران عبـــرهم، نحـــو الســـماء... ؛ وكثيـــرًا مـــا بـــدا وكأنـــه شـــاردٌ فـــي تأمّـــلٍ طويـــل، حتـــى ليظن الناظر إليه أنه يغيب قليلًا عن العالم .

المشهد الثاني: الأسئلة التي لا تموت

كان الأطفال يسألونه عن الجنة: هل فيها دراجات هوائية؟!

كـــان أطفـــال الحـــي فقـــراء، وفـــي ســـبعينيات القـــرن الماضـــي لـــم تكـــن الدراجـــة لعبةً سهلة المنال... , كانت حلمًا يدور في الأزقة ولا يُمسك به أحد .

كـــانوا فقـــراء، لا يملكـــون دراجـــات فـــي الـــدنيا، فـــأرادوا أن يعوضـــوا فـــي الجنة... ؛ كان يجيبهم بابتسامته الهادئة: "نعم".

لـــم يكـــن يكـــذبهم، لأنـــه يعلـــم أن الله الـــذي خلـــق الـــورد فـــي صـــحراء القلـــوب قـــادر أن يخلـــق الـــدراجات فـــي جنـــات الخلـــود... ؛ كـــان يعلـــم أن الجنـــة ليســـت مكانـــاً، بـــل حالـــة، حالـــة تحقيـــق الرغبـــات التـــي طالمـــا حلمـــت بهـــا الأرواح المحرومـــة والنفوس المغبونة .

أمـــا محمـــد فكـــان مختلفـــاً... ؛ كـــان يســـأل أســـئلة عميقـــة، أســـئلة تقـــف الـــنفس أمامهـــا حـــائرة... ؛ فـــي أحـــد الأيـــام ســـأله ســـؤالاً ســـيظل يلاحقـــه حتـــى الشـــيخوخة: أنـــت تقـــول: الله خـــالق، لأنـــه لا بـــد لكـــل شـــيء مـــن خـــالق... ؛ فمـــن خلق الله؟!

ارتـــج الملـــة ياســـين، لـــيس لأنـــه لـــم يعـــرف الجـــواب، بـــل لأنـــه عـــرف أن الســـؤال لـــيس ســـؤال طفـــل، بـــل ســـؤال روح بـــدأت تبحـــث عـــن الخـــالق قبـــل أن يكتمـــل نموها... ؛ تلعثم قليلاً، ثم أجاب بصوت خافت كأنه يهمس بسر كبير :

نعـــم، لا بـــد لكـــل مخلـــوق مـــن خـــالق، ولكـــل مصـــنوع مـــن صـــانع، ولكـــل مســـبب ســـبب... ؛ هـــذه هـــي قـــوانين العـــالم الـــذي نـــراه... ؛ لكـــن هـــذه القـــوانين لا تنطبـــق علـــى الله... ؛فلـــو قلنـــا إن لكـــل خـــالقٍ خالقًـــا قبلـــه، فســـوف نســـتمر فـــي سلســـلةٍ لا نهايـــة لهـــا... وهـــذا مـــا يســـميه العلمـــاء التسلســـل، والتسلســـل باطـــل؛

لأن العقــل لا يقبــل سلســلةً بــلا نهايــة , فــلا بــدّ أن تنتهــي السلســلة عنــد خــالقٍ أول...؛ هو سبب الأسباب وعلّة العلل ... ؛ هذا هو الله.

لــم يفهــم محمــد كــلام الملــة ياســين بعقلــه، لكــن روحــه فهمتــه... ؛ هنــاك أشــياء تفهمهــا الأرواح قبــل العقــول... ؛ كانــت هــذه الكلمــات كنــواة تــزرع فــي عمقــه، ســتنمو معــه، ســتكبر مــع الســنين، وســتثمر فــي لحظــات الحيــرة والبحــث ... ؛ فقــد ســكنت تلــك الكلمــات روحــه , وكبــرت معــه ,كبــرت كمــا تكبر البذور في تربةٍ لا يعلم صاحبها أنها تحمل غابة... .

المشهد الثالث: معركة الروح مع المادة

تعلــم محمــد الصــلاة علــى يــد المُلّــة ياســين، وكــان فــي الثامنــة حــين وقــف لأول مرة بين يدي الله، يقلّد صوت الرجل الذي كان يبكي في الليل .

لكــن حيــاة المُلّــة لــم تكــن هادئــة كمــا يظــن الأطفــال ... ؛ فقــد كانــت زوجتــه، خيرية، ترى العالم بعينٍ أخرى...

كانــت خيريــة امــرأة مــن هــذا العــالم، جســدها هنــا، وقلبهــا هنــا، وأحلامهــا هنــا... ؛ كانــت تــرى الــدنيا بمــا فيهــا مــن ذهــب وفضــة ومتــاع، وكــان الملــة ياســين يــرى مــا وراءهــا... ؛ كانــت تســأله: لمــاذا لا تطــور نفســك ماديــاً ... ؛ كل النساء تلبس الذهب إلا أنا ...؟!

فيجيبهــا: ألســتِ تــأكلين وتشــربين وتنــامين فــي بيــت دافــئ والــدار ملكنــا؟ ألــيس لنا أثاث وطعام؟ لماذا لا تقنعين؟ إن الشكوى من النعمة كفر بها .

فيخــرج مــن درج الخشــب مــالًا كثيــرًا ويعطيهــا ... ؛ ويقــول لهــا : خــذي... واشتري ما تريدين من الذهب ، ولا تشتكي ...

ثــم تعــود تشــتكي مــن غــلاء الحيــاة... ؛ شــكواها لــم تتوقــف قــط , تشــتكي مــن كل شيء ...

وفــي أحــد الأيــام، انفعــل الملــة علــى غيــر عادتــه، وغضــب المُلّــة غضــبًا لــم يعرفــه النــاس عنــه مــن قبــل... ؛ وأخــرج نقــوداً ومزقهــا إربــاً إربــاً أمــام

عينيهـــا... ؛وقـــال لهـــا :هـــذا هـــو ربّـــك الـــذي تعبدينـــه... ؛ المـــال ســـأمزّقه لعلّـــك تتحـــررين مـــن عبوديتـــه ... ؛ أريـــدك أن تعرفـــي أن المـــال مجـــرد وســـيلة، لا يصبح إلهاً إلا حين نعبده .

صـــدمت خيريـــة، رأت تصـــرفه تافهـــاً، ســـفيهًا... ؛ لـــم تـــرَ فـــي ذلـــك زهـــدًا ... ؛ و ازدادت جشـــعاً، وازداد هـــو زهـــداً... ؛ كانـــت معركتهمـــا معركـــة قديمـــة، معركـــة الـــروح مـــع الجســـد، معركـــة البقـــاء مـــع الفنـــاء... ؛ كانـــا كمـــن يســـيران فـــي اتجـــاهين متعاكســـين، يبتعـــدان يومـــاً بعـــد يـــوم، حتـــى لـــم يعـــد بينهمـــا ســـوى الشجار الذي أصبح طقساً يومياً كغروب الشمس.

صـــبر عليهـــا، وصـــبرت عليـــه، حتـــى كبـــر الابنـــاء , و زوّج بنتيـــه : كريمـــة وابتســـام ، ولـــم يبـــق فـــي البيـــت ســـوى الأولاد الثلاثـــة: طـــه، وحســـن، وصـــادق... ؛شـــعر المُلّـــة ياســـين أن الـــدار لـــم تعـــد تتســـع لروحـــه ... ؛ عنـــدها قرر الهجرة إلى النجف الأشرف .

كانـــت الهجـــرة إلـــى النجـــف عنـــد العبـــاد والزاهـــدين مثـــل المـــوت الاختيـــاري... ؛ كـــانوا يتركـــون الـــدنيا طواعيـــة قبـــل أن تتـــركهم... ؛ كـــانوا يهـــاجرون إلـــى حيـــث الجـــو الروحـــي الصـــافي، حيـــث يمكـــن للـــروح أن تتـــنفس بـــلا رئتـــين... ؛ هـــاجر إلـــى النجـــف، إلـــى حيـــث المراقـــد المقدســـة والـــدروس الدينيـــة , وحلقـــات الـــذكر , والمحاضـــرات الاخلاقيـــة والعرفانيـــة , والقلـــوب المتعبـــة التـــي تبحـــث عن الراحة والخلاص ...

المشهد الرابع: الاختفاء الكبير

كان الناس يقولون عن من يهاجر إلى النجف :إنه طلق الدنيا .

هنـــاك، فـــي الأزقـــة الضـــيقة حـــول الضـــريح العلـــوي العـــالي ، عـــاش المُلّـــة ياســـين حيـــاة أشـــبه بالصـــومعة ... ؛ لكـــن القـــدر كـــان يخبـــئ لـــه امتحانًـــا أخيـــرًا ...

في النجف، كان ياسين يعيش حياته الجديدة، حياة الصلاة والتأمل والذكر ... ؛ كان ابنه صادق، آخر العنقود، يزوره بين الحين والآخر... ؛ كان يحبه حباً جماً، كان يراه كغصن أخضر في شيخوخته، كأمل يتجدد ... .

وفي عام ١٩٩١، اندلعت الانتفاضة الشعبية في العراق ... ؛ جاء صادق لزيارته فجأة، فخاف عليه... ؛ كانت الأخبار تصل عن تقدم القوات العسكرية وعناصر الاجهزة الامنية والبعثية والحرس الجمهوري وقوات الطوارئ الاجرامية ، عن القتل، عن الاعتقالات , عن الاعدامات الميدانية , عن القصف العشوائي ...؛ عندها

قرر العودة به إلى بغداد .

خرج الأب وابنه من النجف متجهين إلى بغداد... ؛ وفي الطريق، بين النجف وكربلاء، رأوا سيطرة عسكرية... ؛ أوقفتهما ؛ كان الجنود يرتدون البدلات الزيتونية، على رؤوسهم (الشطافي , الشماغ) الحمراء، وجوههم تقطر حقداً، وعيونهم يتطاير منها الشرر الطائفي والعنصري المقيت ... ؛ كانوا يصيحون، يضربون، يقتلون، يعتقلون ...

رأوا صادق فصاحوا به : ها أنت... , أكنت من الغوغائيين الخونة المجرمين ؟!

ارتبك الفتى , ولم يجب .

قال المُلّة ياسين : انه صبي , لا يعرف شيئاً .

رد أحد الجنود :اسكت أيها الكلب النجس ... ؛ واضح أنك من رجال الدين... ؛ اسكت وإلا قطعناك إرباً ...!!

سحبوا صادق من بين يدي أبيه، وذهبوا به إلى جهة مجهولة .

اختفى صادق ... ؛كما تختفي قطرة ماء في بحرٍ أسود .

عـــاد المُلّـــة إلـــى صـــومعته فـــي النجـــف... ؛ لكنـــه لـــم يعـــد كمـــا كـــان... ؛ عـــاد وهـــو يبكـــي ويســـتغفر ويحمـــد الله ويشـــكره و لا ينـــدب حظـــه... ؛ كـــان يـــدعو الله أن ينجـــي ابنـــه، لكـــن الـــدعاء كـــان يرتـــد إليـــه كالصـــدى فـــي صـــحراء موحشـــة... ؛ كـــان يعلـــم، يعلـــم علـــم اليقـــين أن الشـــيعي الـــذي تعتقلـــه أجهـــزة صـــدام لا يعـــود أبـــداً... ؛ كـــان يعـــرف ذلـــك مـــن قصـــص كثيـــرة، مـــن عـــائلات كثيـــرة، مـــن أمهـــات كثيـــرات فقـــدن أبنـــاءهن إلـــى الأبـــد ... ؛ لـــذلك لـــم يبحـــث عـــن واســـطة ولـــم يســـأل عـــن مصـــير صـــادق ولـــم يصـــرف الامـــوال كمـــا يفعـــل البعض ؛ كان يعرف أن من تأخذه تلك الأيدي القاسية لا يعود ... .

المشهد الخامس: خيرية بين البكاء والموت

جـــاءت خيريـــة بعـــد انتهـــاء الأحـــداث مـــع ابنيهـــا : طـــه وحســـن إلـــى النجـــف... ؛ كانـــت تبحـــث عـــن صـــادق، تظـــن أن الملـــة يخفيـــه... ؛ صـــدمت عنـــدما عرفـــت الحقيقـــة، صـــرخت، عـــوت، لطمـــت وجههـــا... ؛ و لـــم تكـــن تعلـــم أن البكـــاء المزمن يمكن أن يتحول إلى مرض، إلى عمى، إلى موت ... .

بحثـــت عـــن وســـاطات، عـــن محســـوبيات، اتصـــلت بعناصـــر مـــن الامـــن وحـــزب البعـــث ... ؛ بحثـــت عـــن أي طريـــق يوصـــلها إلـــى ابنهـــا... ؛ كانـــت تتوســـل للنـــاس، تســـأل هـــذا وذاك، لكـــن لا أحـــد يعـــرف... ؛ ولا أحـــد يريـــد أن يعـــرف... ؛ فـــي زمـــن الطغيـــان الطـــائفي الصـــدامي ، المعرفـــة نفســـها كانـــت جريمة لا تغتفر يحاسب عليها ...!!

أمـــا الملـــة ياســـين، فلـــم يفعـــل شـــيئاً... ؛ كـــان يجلـــس فـــي صـــومعته، يـــدعو، يبكـــي، يســـلم أمـــره لله... ؛ كـــان يعلـــم أن البحـــث عبـــث، وأن الوســـاطات وهـــم، وان صـــرف الامـــوال اســـتنزاف يضـــاف الـــى عقوبـــات المعتقلـــين وذويهـــم ... ؛ و أن الأمل في زمن القتل هو من أكبر الأكاذيب ... .

ماتت خيرية بعد سنوات من البكاء والعويل والنوح واللطم ...

ماتت خيرية قبل سقوط المجرم صدام بسنة... ؛ ماتت من البكاء، من الحزن، من الكمد... ؛ كان بصرها قد ضعف كثيراً، لكنها كانت ترى صادق في كل مكان، تراه في الظل، في الضوء، في النوم، في اليقظة...

كانت نساء الجنوب يمتْنَ هكذا، يمتْنَ كمداً على أولادهن المفقودين والمقتولين والشهداء والمعتقلين والمعدومين والمعاقين ، كأن الحزن في جنوب العراق وراثة تنتقل من أم إلى أخرى ... .

المشهد السادس: الشيخوخة والضياع

بعد سقوط صدام، ذهب الملة ياسين مع أولاده يبحثون عن صادق في أضابير الأجهزة الأمنية... ؛ كانت هذه وصية خيرية الأخيرة: ابحثوا عن ابني... بحثوا في كل مكان، في السجلات، في التقارير، في المقابر الجماعية... ؛ لم يجدوا له أثراً... ؛ كان صادق قد اختفى في الثقب الأسود للتاريخ، في ذلك الفراغ الذي تبتلع فيه الأنظمة الشمولية البشر ثم تنكر وجودهم ...!!

عندها رجع الملة ياسين إلى صومعته في النجف... ؛ لكن الزهايمر بدأ يأكله، يأكل ذاكرته، يأكل ماضيه، يأكل اسمه... ؛ أصبح ينسى من هو، وأين هو...

وفي أحد الأيام، ذهب إلى بغداد يبحث عن بيته القديم... ؛ ضل الطريق ... ؛دخل منطقة الفضل في زمن الحرب الطائفية، في زمن كان الموت فيه يوزع بالهوية، بالاسم، بالانتماء .

وجدوه مذبوحاً، وكانت لحيته البيضاء تخضبت بدماءه الزكية ... ؛ لكن ابتسامته المعهودة لم تفارق ثناياه... ؛ في قمة الموت، كان يبتسم... ؛ في قمة الفناء كان يضيء ... ؛ كان كمن رأى ما لا يراه الاخرون .

المشهد السابع: الرؤيا

كـان محمـد قـد كبـر، وانتقـل مـن المحلـة القديمـة إلـى حـي آخـر... ؛ لكنـه ظـل يتـابع أخبـار الملـة ياسـين ؛وفـي إحـدى الليـالي، وصـل الخبـر إلـى مسـامعه: مقتـل الملـة ... ؛ انهـارت قـواه ... ؛ وبكـى طـويلا كطفـل صـغير فقـد ابـاه ... ؛ وتـذكّر الايـام الخـوالي ... ؛ وتـذكر الحضـن الـدافئ، تـذكر الضـحكة الهادئـة ... ؛ وتـذكر كيـف كـان المُلّـة يمازحـه ويحضـنه، وكيـف علمـه الصلاة، وكيف فتح له نافذةً صغيرة على السماء .... .

عـرف فـي تلـك اللحظـة أن الملـة ياسـين كـان أبـاه الروحـي، الـذي أخرجـه مـن الظلمات المادية إلى الأنوار المعنوية .

نـام محمـد تلـك الليلـة والـدموع علـى خديـه ... ؛وفـي نومـه، رأى رؤيـا عظيمة :

رأى أبـواب السـماء تُفـتح فتحًـا عظيمًـا .... ؛ لـم تكـن أبوابًـا تشـبه أبـواب الأرض ... ؛كانت أبوابا من نور ,كل باب أكبر من الدنيا وما فيها...

ورأى مـن ورائهـا الجنـة، لكنهـا لـم تكـن جنـة واحـدة، بـل درجـات، بـين كـل درجة وأخرى كما بين الأرض والسماء .

نعـم , كانـت الجنـة طبقـاتٍ شـاهقة، بـين طبقـةٍ وأخـرى كمـا بـين الثـرى والثريا...

ورأى الملـة ياسـين فـي الدرجـة الأولـى، عاليـة كالجبـال، محاطـة بالأزهـار والأنوار...

لكنـه لـم يكـن ياسـين العجـوز الـذي يعرفـه، بـل شـاباً قويـاً، ينـبض بالحيـاة، يضيء كالشمس...

وكـان إلـى جانبـه شـاب آخـر يمسـك بتلابيـب ردائـه، وعلـى رأسـه تـاج مـن ياقوت أحمر... ؛تأمل محمد في وجهه ,فإذا هو صادق .

سـمع مناديـاً ينـادي: أدخلوهـا بغيـر حسـاب، إنمـا يـوفى الصـابرون أجـرهم بغيـر حسـاب...؛ فـأنطلق الملـة ياسـين كالصـاروخ نحـو أعلـى الـدرجات , نحو القمة السندسية التي لا ترى ؛ عند سدرة المنتهى .

وهنـا، فـي درجـة متدنيـة مـن الجنـة، رأى خيريـة... ؛ وكانـت ترتـدي ثيابـاً بيضاء بسيطة، وتقف على أرض خضراء... .

صـرخت بـأعلى صـوتها : ياسـين , ياسـين , ياسـين ؛ وأنـا زوجتـك , مـا مصيري ؟

رد عليهـا صـوت مـن بعيـد، أسـرع مـن الضـوء: تـدخلينها يـا خيريـة , ولكـن بحساب بسيط .

عنـدها توجهـت خيريـة فـي اتجـاه آخـر، نحـو الجنـة البسـيطة , والدرجـة المتدنية منها ,

وبينما كانت تمشي، سقطت أسنانها في يديها... ؛فتذمرت قائلة:

كيف آكل في الجنة وقد سقطت أسناني؟

استيقظ محمد من الحلم ... ؛ففهم أخيرًا شيئًا لم يفهمه في طفولته :

أن النـاس لا يختلفـون فـي الـدنيا فقـط ... ؛بـل حتـى فـي الجنـة يحمـل كـلٌ واحـدٍ روحـه كمـا عـاش بهـا... ؛فالـدنيا ليسـت مكانًـا نعـيش فيـه فحسـب ... ؛بـل هـي المـرآة التـي تُشـكِّل ملامـح أرواحنـا...؛ قبـل أن نصـعد بهـا إلـى الـدرجات التي لا تُرى.

أغنية في حضرة الموت (٧٢)

فـي الـزمن الـذي كانـت فيـه الرصاصـات أكثـر سـخونة مـن قـبلات الأمهـات ... ؛ اذ كانـت البنـادقُ فيـه تُزهـر نـارًا بـدل الـورد ... ؛ وكـان الشـباب

يُساقون إلى الجبهات كما تُساق السنابلُ إلى مناجل الريح ... ؛ والرجال يذوبون في جحيم المعارك الخاسرة كشموع تقدس الموت ... ؛ظلَّ الداخلُ يعجُّ بالأعراس والولادات، كأنَّ الحياةَ تُكابرُ الموتَ وتُغاظيه بالضحك والطبول ... ؛ اذ كان الناس في الداخل يتزاوجون ويتناسلون كأنهم يزرعون للموت الجماعي لا للحياة...؛ لا لأنهم يجهلون المصير، بل لأنهم يعرفونه جيدًا؛ يولدون كأنهم قرابينُ مؤجَّلة، تُربَّى في حضيرة الزمن ليأتي القصّاب الأكبر فيختار منها ما يشاء... ؛ نعم , كانوا كالأنعام التي تسمن في الحظيرة لتُذبح، بل أقسى حظاً منها ، فالأنعام تروى وتشبع قبل الذبح، أما هم فيُذبحون وهم جياع عطاشى تحت شمس الطاغية التي لا تغيب ... ؛ فبعضهم يُذبح وهو يحلم بكأس ماءٍ لم يكتمل ...!!

في إحدى ليالي الاعراس (الحنة) المستعجلة ؛ مخافة هجوم الموت المباغت ,حين كانت الرياح الشمالية تحمل عبق دجلة والبحر الابيض البعيد ... ؛ اذ هبَّت ريحٌ شماليّة عذبة تُداعب وجوه البيوت الطينيّة والصرائف والمساكن البسيطة ... ؛اخترق صدر الليل صوت بلبل الجنوب، الفنان عبادي العماري، يشدو بأعذب الألحان ؛ اذ كان صوته ينساب عبر مكبّراتٍ معلّقةٍ على أعمدة الكهرباء، يركب الأثيرَ بجناحين من نورٍ وأسى، ويغنّي :

عَرِّجْ على حرمِ المحبوبِ منتصبا*** لقِبلة الحُسْنِ واعذرنى على السهر

وانظر الى الخال فوق الثغرِ دون لمىً ***تجد بِلالا يراعى الصبحَ في السَّحَرِ

سمع سعدُ صوتًا يشقُّ العتمة... ؛ كان صوت عبادي العماري، البلبل الذي اعتاد أن يطرّز الليلَ بأنغامه ... ؛ لم يكن الصوتُ مجرّد غناء؛ كان سلّمًا خفيًّا ينزل من السماء إلى صدور المتعبين والبائسين والمحاصرين

فــي القــرى والمــدن والاحيــاء الشــعبية ، يربّــت علــى قلــوبهم التــي أرهقهــا الانتظار والترقب .

لم يكن سعد يعرف لماذا يحبّ صوت عبادي العماري إلى هذا الحد.

ربما لأن الصوت يشبه الجنوب؛ حزينًا ودافئًا في الوقت نفسه.

أو ربما لأن الحرب كانت تجعل الناس يتعلّقون بأي شيء لا يشبهها.

في تلك السنوات، كانت المدينة تتنفّس بخوف.

كل بيت فيها ينتظر خبرًا سيئًا.

الجدران مغطاة بصور الجنود القتلى .

والنساء يتحدثن همسًا، كأن الموت نائم في الغرفة المجاورة.

كان سعد في الخامسة عشرة.

نحيفًا، طويل الرقبة، بعينين متعبتين أكبر من عمره.

أمه تقول دائمًا:

— هذا الولد يفكر أكثر مما يأكل.

فــي تلــك الليلــة، كانــت أمّــه تخبــز قــرب التنــور حــين وصــلهم صــوت الطبــل مــن بعيد.

رفعت رأسها وقالت لأبيه:

— بدأوا الحنّة عند بيت جاسم.

أبو سعد كان يصلح مروحة مكسورة تحت الضوء الأصفر.

لم يرفع رأسه.

ـــ خليهم يفرحون... اليوم عدهم ولد معرس ، باچر الله يعلم.

سكتت الأم قليلًا، ثم التفتت إلى سعد:

ـــ لا تتأخر.

هز رأسه بسرعة، وخرج.

الهواء الليلي كان رطبًا.

كان سعد، يسير خلف الصوت كأنه يسير خلف سراب في صحراء اليأس... ؛ كلما تقدم اقترب الصوت، وكلما تاه ابتعد، وكأن للحن روحاً تهرب منه وتدنو في آن... ؛وكأنّ الطريقَ لعبةُ مرايا، أو كأنّ الصوتَ يمتحنه :

أأنتَ تمشي إلى الفرح، أم تهربُ من الخوف؟

كان صوت العماري ينسيه شبح التجنيد الإلزامي الذي يطارده في أحلامه، رغم أنه لم يتجاوز مقاعد المتوسطة , ويجعله ينسى أن الغد قد لا يأتي ...؛ في الأزمنة المريضة تكبرُ البنادق أسرع من الأطفال، ويُقاس العمرُ بالطول الذي يسمح بحمل البندقية ...!!

وصل سعد إلى منطقة الأورفلي فإذا بالبشر يموجون كالبحر، والناس يرددون خلف المطرب: "خل نصعد فوك للعالي... ونسمع شيكول هل الغالي" بينما البعض يرقص على إيقاعات "البستة" كأنهم يرقصون على صفيح ساخن..., ترتفع الأيدي، تتمايل الأجساد، تتكسّر القيودُ لساعةٍ واحدة ؛ كانت قناني البيرة توزع كالماء و كأنَّ السلطة التي تبخلُ بالخبز تُسرفُ في النسيان...!!

والنساء ينظرن من السطوح عبر نوافذ صغيرة لا تكشف إلا العيون، وكان العماري يغني ورأسه مطأطئ إلى الأرض لا يرفعه، متحاشياً النظر إليهن، حتى وهو ثمل ؛ يسكر بالخمر ولا يسكر بالنساء ...؛ نعم , كان يغضُّ بصره كأنّه يخاف أن يخدش الغناءُ حياءه، رغم أنّه يشرب الخمر أحيانًا حتى الثمالة ... ؛ فيه تناقضُ البشر: ضعفٌ يتجاور مع نقاء، وخطيئةٌ تعانق فضيلة ... !!

وبدافع فضولٍ مراهقٍ لم يكتمل، طلب سعد رشفةً من قنينة أحد الشبان، فزجره الشاب بخشونة فابتعد صامتاً... ؛ فسكت سعد ولاذ بالصمت ... ؛ لم يكن الصمتُ خجلًا فقط، بل كان درسًا مبكرًا في حدود الأشياء... ؛ فهناك أشياء تحرم على الصغار ... , و تُمنَح للكبار؛ وأخرى تُفرَض عليهم، وأثقلها الحرب ...

ثم جذبته الأضواء نحو المطرب عبادي العماري ، فاخترق جموع الحضور المتطفلين، وكان بينهم عمال غرباء مصريون جاءوا للعمل في المدينة كأسراب الجراد الذي يأكل الاخضر واليابس ... ؛ كان سعد وسيماً ملفتاً للنظر، كأنّ البراءةَ ما تزال تُقيم في وجهه رغم كلّ ما يحيط به , فلاحظه العماري من على المنصة, وأشار إليه بعين الأب، فصاح به محذراً بصوته الأجش: ((يا ولد... روح لا تقف بجنب المصريين...؛اذهب وقف مع مَن هم في سنّك)) .

كان العماري معروفاً بغيرته وشيمه، تلك الشيم التي لا يمحوها الخمر ولا تغيب مع الأضواء...

وفـــي تلـــك الليلـــة وفـــي حضـــرة صـــوته ، عـــاش النـــاس لحظـــةً مـــن ســـلامٍ مســتعار، كــأنهم فــي بلــدٍ آخــر ؛ غيــر العــراق، وفــي عهــد غيــر عهــد الطاغيــة، وفـــي زمـــن لا حـــرب فيـــه ولا ســـجون ومعـــتقلات ... , ولا قـــوائم انتظـــار إلـــى الجبهـــات ؛ كانـــت الأغنيـــةُ وطنًـــا مؤقّتًـــا، يُـــؤويهم مـــن جحـــيم الحقيقـــة... ؛ كـــانوا يرقصـــون علـــى حافـــة الهاويـــة دون أن يعلمـــوا أن الغـــد يحمـــل فـــي جعبتـــه كفنـــاً جديدا ...

لكـــن مـــا إن انتهـــت الحفلـــة ... ؛ ومـــا إن انطفـــأت المكبّـــرات، حتـــى عـــاد الليـــلُ إلـــى طبيعتـــه... ؛ و انقشـــعت ســـحب النشـــوة، وعـــادت الهمـــوم تغـــزو القلـــوب كـــالجرذان الجائعـــة ... ؛ فهنـــاك أب يفكـــر بابنـــه الوحيـــد الـــذي سيُســـاق غـــدًا إلـــى الجبهـــة ..., وجنـــدي يســـتعد للالتحـــاق بمعـــارك الحجـــيم الخاســـرة ؛ وأم قلقـــة علـــى ابنهـــا الـــذي اعتقـــل بعـــد صـــلاة الفجـــر ... ؛ وزوجـــةٌ تتحسّـــس فراشًـــا خاليًـــا منـــذ استشـــهاد زوجهـــا... ؛ وثكلـــى تعـــود لتنـــوح علـــى ابنهـــا وأخيهـــا وابيهـــا ، وفاقـــدة تبكـــي شـــهيدين كأنهـــا تبكـــي قلبـــين خرجـــا مـــن صـــدرها دفعـــةً واحـــدة ... ؛وأيتـــامٌ يســـألون عـــن آبـــاءٍ صـــاروا أســـماءً علـــى جـــدار ...؛ كـــأنهم يســـألون عـــن سر الحياة المفقود.... .

عـــاد ســـعد إلـــى دارهـــم فـــي وقـــت متـــأخر، فوجـــد والـــده واقفـــاً (علـــى رأس الدربونـــة) فـــي بدايـــة الفـــرع ؛ كتمثـــال مـــن غضـــب متحجـــر لا ينـــام ... ؛ ومـــا إن رآه حتـــى ولّـــى هاربـــاً إلـــى بيـــت عمـــه الـــذي آواه وحمـــاه... ؛كمـــا تُـــؤوي الشجرةُ عصفورًا مرتعشًا...

لكنـــه لـــم يســـتطع النـــوم، ظـــل يرتجـــف تحـــت اللحـــاف، لا يخـــاف مـــن الضـــرب فقـــط، بـــل يخـــاف مـــن الصـــباح الـــذي ســـيأتي حتمـــاً ... ؛ نعـــم , فـــي تلـــك الليلـــة، لـــم يـــذق ســـعد طعـــم النـــوم... ؛كـــان يفكّـــر ... ؛ كيـــف يمكـــن لصـــوتٍ أن يُنقـــذ روحًـــا ساعةً واحدة، ولا يقدر أن يُغيّر قدرًا؟!

كيـــف يُمكـــن للأغنيـــة أن تكـــون أقـــوى مـــن الرصاصـــة فـــي القلـــب، وأضـــعف منها في الواقع؟!

لكــن خوفــه الأكبــر كــان مــن زمــنٍ يُربّــي أبنــاءه ليــأكلهم ... ؛ومــن الطاغيــة الحاقــد الــذي لا ينــام ولا يــرحم ، ومــن المــوت الــذي ينتظــرهم جميعــاً فــي الطوابير الطويلة ...

وفــي زاويــة الغرفــة، بينمــا كانــت الــريحُ تعــزفُ لحنًــا حزينًــا علــى نافــذةٍ صــدئة، أدرك سعد أنَّ الإنسان لا يعيش بالأمان وحده، بل بالأمل ...

وأنّ الأغنية، وإن لم توقف الحرب، فهي تُذكّرنا أننا ما زلنا بشرًا...

وأنّ فــي صــدورنا متّســعًا لصــوتٍ يقــول :لســنا قطيعًــا، ولســنا حطبًــا للنــار ... ؛بل قلوبًا خُلِقت لتخفق ولوفي حضرة الطاغية , وفي زمن الاوغاد ...

الفــهــرس

المقدمة ١
حارس الذاكرة (١) ٤
ندوب القدر وثارات الغدر (٢)... ٩
نافذة في الطابق الرابع عشر (٣) ١٢
وليمة الأجنحة المكسورة (٤) ١٩
مصطبة بين عالمين (٥) ٢٤
مرايا الإسفلت (٦)... ٣٠
مرآةُ اللهِ المكسورة (٧) ٣٧
مذكّرات رجلٍ لم يعد يخاف من شيخوخته (٨) ٤٤
في بيتٍ قديم عند أطراف المدينة، بيتٍ يشبه ذاكرةً رطبة أكثر مما يشبه مكانًا للسكن، جلس حسين قرب النافذة الخشبية يتأمل الغبار وهو يعبر شعاع المغيب ببطءٍ جنائزي. ٤٥
مدينة الدخان.. ومزرعة المعنى (٩).. ٥١
مدينةُ الانتظار ..حكايةُ الرجل الذي وُلد في الطابور (١٠) ٦٤
ما تبقى بين الأصابع... (١١).. ٧١
يدبر الأمر... (١٢) ٧٦
وليمة الجوع الذي لا يُشبِع... وسراب الشِّبع الذي لا يرحم (١٣)............................ ٧٩
علاقة غريبة الاطوار (١٤) ٨٦
عندما نزل الملاك على سطح البيت (١٥)... ٩١
عندما يسرق الفراغُ قلبًا (١٦)... ٩٥
قصتي مع البلبل القتيل (١٧) ١٠٠
قناع العيد (١٨) ١٠٦
كان أقرب ممّا ظنّ (١٩) ١١٢
كرتي الأولى (٢٠) ١١٣
كرتي الثانية (٢١)... ١١٩
لحظة موت (٢٢) ١٢٤
لقاء العيون في زمنٍ متشظٍّ (٢٣) ١٢٦
لواعج الغائب , نيران في القلب تأبى الانطفاء (٢٤).. ١٣٢
عطر الجلنار (٢٥) ١٣٥

عشرون وجهاً في مرآة واحدة (٢٦) ١٣٨

عرسٌ مؤجَّلٌ إلى الأبد (٢٧) ١٥٢

عتبةً بين بابين (٢٨) ١٥٧

عازفُ المنافي و سيمفونية الرماد (٢٩) ١٦٣

ظلالٌ تتبدّل حين يطول الغياب (٣٠) ١٧٢

ظلالُ الصوتِ الحر (٣١) ١٧٨

طيفٌ من نور في ليل الخراب (٣٢) ١٨٤

صومعة الماء (٣٣) ١٩٣

رجوع إلى الجُبّ (٣٤) ١٩٥

رحلتي في غياهب الإيجار (٣٥) ٢٠٢

زخات المطر وقاع المدينة (٣٦) ٢٠٨

سائقٌ بالصدفة... ورفيقُ الغبن (٣٧) ٢١٣

سرير من رماد (٣٨) ٢١٨

سلسلة من نار (٣٩) ٢٢٤

سُلَّمُ الذِّكرِ الذي قادَ إلى الشيطان ..!! (٤٠) ٢٢٩

شمعة اللاهوت وصومعة الظلام (٤١) ٢٣٣

شيطان الأرق ... (٤٢) ٢٤١

صدى اليقين (٤٣) ٢٤٦

صرخة في سكون ظلام الزمن الأغبر (٤٤) ٢٤٩

رأسٌ ممتلئ بالغياب (٤٥) ٢٥١

درجٌ إلى الأعلى... ومرآةٌ إلى الداخل (٤٦) ٢٥٦

حين يصبح الطيبون سببًا للبكاء (٤٧) ٢٥٩

حين يشوي العمّ (أبو محمد) لحمَ الذاكرة على جمر الزمن... (٤٨) ٢٦٢

حين يأكل الفقرُ ملامحَ الروح (٤٩) ٢٦٦

حين صار الجسد جواز سفر (٥٠) ٢٧١

حين تدور الأسطوانة... ويستيقظ زمنٌ لم يمت (٥١) ٢٧٨

حمدي يختبئ خلف الباب... (٥٢) ٢٨٥

حلمٌ... وقرار (٥٣) ٢٨٨

جدر الباميا ... (٥٤) ٢٩١

تبعات الرؤيا (٥٥) ٢٩٥

بين فخّين... حلمٌ يقطر دماً (٥٦) ٢٩٩
بين الدخان والثلج (٥٧) ٣٠٤
بين الأجرة والرحمة (٥٨) ٣٠٨
بوابةٌ تُفضي إلى الوطن (٥٩) ٣١٣
بوابة الغواصة (٦٠) ٣١٧
أنا عاهرٌ وليست هي عاهرة (٦١) ٣٣١
المدفع النمساوي والهلع الصدامي (٦٢) ٣٣٧
الغرفة العاجية المعزولة (٦٣) ٣٤١
العينان اللتان أوقفتا الزمن (٦٤) ٣٤٤
العابر بين ظلاله (٦٥) ٣٤٩
الضفاف لا تُغوي... لكن السفن لا تُقاوم (٦٦) ٣٥٢
الساكن في الغرفة السابعة و الاخيرة (٦٧) ٣٥٩
الرجل الذي كان يهرب على عجلتين (٦٨) ٣٦٥
الرجل الذي كان يسافر ليعود إلى نفسه (٦٩) ٣٧٤
الذين نبحث عنهم في مرايا الآخرين (٧٠) ٣٨٠
الدرجات التي لا تُرى.. (٧١) ٣٩١
أغنية في حضرة الموت (٧٢) ٤٠٠

رياض سعد

كاتب وقاص وباحث عراقي، وُلد في بغداد عام 1973.

أسهم في تأسيس عدد من المنظمات المدنية والإنسانية والثقافية، ومارس التدريس لسنوات طويلة.

وهو عضو في نقابة المعلمين العراقيين، واتحاد الصحفيين العراقيين، ونقابة الصحفيين العراقيين.

أنشأ موقع «صوت الأمة العراقية» وأشرف عليه، ونشر عبر مسيرته مئات المقالات والدراسات في الفكر والسياسة والاجتماع والثقافة، فضلا عن عشرات القصص والوصفات الأدبية والخواطر.

تنطلق كتاباته من هاجس الإنسان والهوية والوعي الاجتماعي، وتمزج بين التأمل الفكري والبناء السردي، في محاولة دائمة لقراءة الواقع واستكشاف أسئلته العميقة.

الرقيم السومري للنشر والتوزيع
العراق - ديالي - بعقوبه
07775262892
ISBN 978-9922-5525-14
9 789922 552514